

الكتب
آخر يهود
الإسكندرية
رواية
الطبعة الرابعة
DRIVE
SAFE
SARA
معتز فتيحه

آخِرُ يَهُودِ الإسكَندَرِيَّة

رواية

معتز فتيحه

الطبعة الرابعة

2011

دار اكتب للنشر والتوزيع

آخِرُ يَهُودِ الإسكَندَرِيَّة

معتز فتيحه

آخِرُ يَهُودِ الإسكَندَرِيَّة / رواية

معتز فتيحه

الطبعة الرابعة , 2011





دار اكتب للنشر والتوزيع

القاهرة , 10 ش عبد الهادي الطحان , المرج, القاهرة

موبايل : 0110622103

E – mail : dar_oktob@gawab.com

المدير العام :

يحيى هاشم

تصميم الغلاف :

حاتم عرفة

تدقيق لغوي :

أحمد سعيد

رقم الإيداع : 15286/2008

I.S.B.N: 978-977-6297-39-5

محتويات

الإهداء

إلى روح والدي العزيز
لم يمهلك القدر أن تكمل ما بدأته من قراءة روايتي الأولى, ولكن
عزائي هو يقيني بتواجدك في مكان أفضل
أدين لك بما وصلت إليه الآن, و أشكرك على السنوات التي قضيتها
بجانبي أنا و اختي الصغيرة متأملاً نجاحاتنا مصححاً أخطائنا, معلمنا
المعنى الحقيقي للحياة

إبنك
معتز محمد فتيحة

المـُـقَـدِّمَـةُ

أيقنتُ أنَّ أغلبَ لغاتِ العالمِ تعرفُ اسمَ سارة...

وأنَّ بيتر هو بيير هو بطرس...

وأنَّ جون هو يوهان هو يحيى...

وأنَّ الخيرَ أبيضٌ والشرَّ أسودٌ ....

فحاولتُ تصفُّحَ التّـاريخ باحثـًا عن المناطقِ الرَّمَادِيَّةِ، فَقَد تكُونُ أوجُهُ الشبهِ بينَنا أكثرَ مما نعتقدُ ....

مُعتَزٌّ فُتَيْحَة

الإسكندرية 1999

ندى السعادة... هذا هو كل ما كان يطمح للوصول إليه عبر رحلته الطويلة التي امتدت العديد من السنوات، كان فى قناعته أن السعادة كلها تتمثل فى زهرة واحدة رائعة الجمال، على سفح أحد الجبال العالية، رآها البعض واقترب منها القلة... لونها غير محدد، فهى تتظاهر لمن يقترب منها على هيئة لونه المفضل... وقبل أن يفيض نور أشعة الصباح يتكون على أوراقها اليافعة ندى... لا يعرف منتهاه أحد، إنه السعادة المطلقة والراحة الأبدية، التحقيق الكامل لكل الأحلام المؤجلة، والرغبات الجامحة داخل النفس البشرية، الرؤية الواضحة لما كان أو سيكون... لكنه فى النهاية لم يحصل عليه بعد... ولا يعرف كم سيستغرق من أجل تحقيق ذلك، وهل سيمهله الوقت الفترة الكافية لتحقيق الوصول لهذا الندى، أم أنه له رأي آخر.

لم يكن يوم الأربعاء الحادي عشر من أغسطس كبقية أيام العام، رفضت الشمسُ الظهورَ كاملة لتمنح الأرض الحياة ، ولو لبعض الوقت... لحظات من الزمن تختلسها لتبحث عن ذاتيتها، وسط متابعة لها بالغة الأهمية من أغلب سكان الكوكب لنورها، فى مختلف أرجاء الأرض، آملين أن تعود الشمس مرة أخرى بنورها وهم متأملون كسوفها الذى يعد الأخير الذى يشهده القرن، وقد انتشرت الشائعات بين أغلب الطوائف بجميع الأديان، أن الكسوف سيتزامن مع النهاية الحتمية لهذه الأرض بمن عليها... فلطالما كان التنبؤ بأن كسوف الشمس سيحمل النهاية، فلعل الإنسان حاول جاهدًا أغلب فترات وجوده البحث عن سببٍ منطقيٍّ لتبرير هواجسه النفسيَّة.

كان الأمرُ مختلفًا تمامًا بالنسبة لـ"يوسف حداد" الذى تجاوز عامه السبعين فلكل منا شمسه التي يسبح فى فلكها متناسيًا جاذبيتها أو مرغمًا على مقاومتها ، فبالرغم من الإجهاد الشديد الذي يعاني منه إلا أن الأرق كان يلازمه بسبب فارق التوقيت، فمفهوم الرحلة لديه أكبر من آلاف الأميال التي قطعها للوصول لمكانه الحالي، بل تتلخص فى السنوات العديدة التي سبقت قراره، فاتخاذه لقرار العودة لم يكن سهلا على الإطلاق، بالرغم من إمكانية تفعيله منذ عدة سنوات مضت، فربما تختلف رؤية الإنسان للأمور عند معرفته باقتراب النهاية، ويصل اليقين بأهمية عامل الوقت، ومحاولة ما تبقى لديه من أحلام قد يعتقد تأثيرها على النهايات المتوقعة، حيث وصل لمرحلة سنية غير قابلة للمفاجأة من مرض يكون المبرر للوصول للجزء الأخير من رحلته الطويلة ...

ومبدأ العودة قد يكون العامل المشترك الأكبر فى القناعات الشخصية، ربما يعد جزءًا من الأمل فى البقاء لفترة أطول، أو طموح بإثبات القدرة على تحقيق الرجوع لما كان فى بادئ الأمر، ربما كان يحمل العديد من الدوافع الأخرى، إلا أن الأمل كان لا يزل يراوده من أجل تحقيق ما حلم به، وقد يكون ذلك الحلم الأخير القابل للتحقيق فى حياته.

كانت عقارب الساعة تشير إلى الحادية عشرة والنصف... لكن أشعة الشمس لم تظهر بالشكل المعتاد كبقية أيام شهر أغسطس الحار بالإسكندرية التي تقع على الشاطئ الجنوبى للبحر المتوسط، والسبب الكسوف المتوقع للشمس خلال الساعتين القادمتين، حاول "يوسف" إقناع نفسه بأن النوم قد بدأ التسلل إليه وهو مُستَلقٍ على السرير بالغرفة رقم (305) بفندق (سيسل) العريق، الذي يطل على البحر الشاسع وشارع (الكورنيش) الرئيسيّ من جهة، من جهة أخرى على تمثال "سعد باشا زغلول" الذى يتوسط الميدان الحامل اسمه، أغمض عينيه للحظات محاولاً الوصول للسكون النفسيّ التام، ولو للحظات قليلة من الزمن... لكن تزاحم الأفكار والذكريات بداخله قد يكون الدافع لعدم راحته... أحس ألاَّ جدوى من افتعاله النوم، اعتدل من نومه، وأنزل قدمه اليمنى من على السرير ليتحسس الأرض من بعدها، واتجه نحو المنضدة الخشبية الصغيرة التي تتوسط الغرفة، المرتبة إلى حد كبير المكونة من سرير وخزانة للملابس ومرآة يحيط بها إطارٌ خشبيٌّ ويغلب عليها اللون البُنّـيُّ القاتم، وعند وصوله للمنضدة انحنى بخصره إليها و وضع يده على سطحها الخشبيّ واخذ يتفحص سطحها الأملس باحثًا عن نظارته الطبية وسطَ الإضاءة الخافتة المتسللة عبر الستائر المواجهة لمنفذ التهوية، كانت رؤيته مشوشة لها لكن بعد أن وجد نظارته الطبية ووضعها إلى عينيه وجد تحسنًا كبيرًا في رؤيته، واتجه بنظره إلى حقائبه المغلقة التي لم يستطع إفراغها بخزانة الملابس بسبب تعبه الشديد من رحلته الطويلة، اتجه نحو منفذ التهوية بخطوات مُتَثاقِلَة، وحرك جزءًا بسيطًا من الستائر ليرى ما يحدث بالخارج، فتابع الشارع شبهَ الخال من المارَّة بسبب التحذيرات من رؤية الشمس بشكل مباشر أثناء الكسوف بسبب ضرر أشعتها، فقرر الجميع تحاشي الموقف بالسكون فى الأماكن المغلقة... ثم اتجه بنظره إلى الجزء المقابل، حيث البحر الشاسع متلاطم الأمواج، الذى يمثل بالنسبة له اللانهاية، لقد حقق أغلب ما كان يطمح إليه فى حياته، لكن تبقى بعض الأشياء التي تظل عالقة بالذاكرة كحلم بعيد المنال ويبقي الإنسان محاولا البحث عنها والوصول إليها مهما تبقَّى له من عُمْر، متفاديًا الضغوطَ والمُعَوِّقاتِ حالمًا بالمتعة الكبرى واللذة المتناهية لتحقيقها...

كان الوقت لا يزال مبكرًا للغاية على الموعد الأهم فى مرحلته الحالية، ولم

يجد سببًا مُقنِعًا لوجود صورة والده بذاكرته في ذلك الوقت بالتحديد، ربما المكان وقربه من أحداث الماضي... أيقن بأن البداية هى المؤثر الأكبر على ما تم التوصل إليه، فحاول تذكُّرَ الأحداثِ برؤية جديدة قد توضح له ما وصل إليه... فأغمض عينيه بقوة متأملا الماضي ذائبًا وسط بحوره عَلَّهُ يجد ما كان يسأل عنه .

* * *

الإسكندرية 1941

بالرغم من أن يوم الأحد يعد عطلة فى أغلب المتاجر بشارع سعد زغلول بالقرب من ميدان محمد علي فى قلب الإسكندرية، إلا أن السيد "حكيم بك حداد" كان فى طريقه المعتاد لمتجر (داوُد) للذهب الذى يمتلكه، فيهوديته تمنعه من العمل يوم السبت بحكم قدسيته، الجو كان شديد البرودة كعادته فى هذه الأيام من يناير فى كل عام، فالأمطار المصاحبة للنوات نادرًا ما تتوقف، وأمواج البحر قوية للغاية حتى إنها كثيرًا ما تصطدم بالبنايات المواجهة للشاطئ متخطية شارع "الكورنيش" الرئيس الموازي للخط الساحليّ ، وبالرغم من هذا كان يُفَضِّلُ أن يرى البحر فى أوقات الغضب بالنسبة لكليهما، فالبحر كثيرًا ما يغضبُ ويثور ويتخلله العنف الموجه نحو الآخرين، إلا أنه وقت الصفاء يحب الجميع التقرب منه ولكن الغريب فى البحر أنه يعطي فى جميع الأوقات ونادرًا ما يأخذ، كذلك السيد "حكيم بك حداد"، بالرغم من أن عمره قد تجاوز الخمسين بقليل ، إلا أن الزمن قد فعل به ما اراد، فقد أصاب وجهه العديد من التجاعيد، وخاصة الجانب السفليَّ من عينيه، وأصبح من الصعب أن يلاحظ أحد الشعيرات السوداء وسط شعره الأبيض الغزير، الذي غالبـًا ما يخفيه مرتديًا طربوشه الأحمرَ الدائريَّ الشكل ذا الشرائطِ السوداء، الذى يضيف له وقارًا، منسجمًا مع لونِ بشرته ذات اللون الأسمر الغالب على جميع سكان البحر المتوسط، إلا أن جسده لا يزال فارعًا مستقيمًا.

وكان فى الماضي لا تفارقُ الابتسامةُ شفتَيه، وعينيه السوداوتين، ولكن العديد من الأحداث غير المتوقعة قد تحدث للبعض، محولة أحلامه إلى كوابيس حية، مثلما حدث معه منذ ما يقارب عشر سنوات.

وفى اتجاهه إلى متجره فى الجزء الشماليّ فى شارع سعد زغلول قرر أن يلقي نظرةً على المياه الزرقاء، بالرغم من أن المطر لم يهطل بعد إلا أنه متوقع للغاية، فالسحب الرمادية كثيرة فى السماء بالإضافة إلى أن تلاطم الأمواج على الصخور الذي يعطي صوتًا مؤكدًا للتوقعات، وقرر حينها وهو واقف إلى جانبِ إحدى البنايات المواجهة للشاطئ في استغلال هذا الهدوء المؤقت في أن يقترب من البحر ليتخلص من بعض الهموم التي لديه، فقرر تخطي الشارع متجهًا نحو المياه الزرقاء المتدافعة وهو لا يرى سواها، حبات الرمال الصفراء على شاطئ البحر شبهِ الخالِ إلا من بعض الصيادين الذين هانت عليهم أنفسهم مقابل ما يحبون، فالصيد يعد إحدى الهوايات غير القابلة للإشباع، قرر أن يخلع حذاءَه الجلديَّ الأسود، وهو فى اتجاه صوب المياه المتدفقة، إلا أنه عدل عن الفكرة سريعًا بعد أن استشعر برودة الرمال، بالرغم من أنها العاشرة صباحًا.

كاد الهواء المتدافع المحمل برائحة البحر المميزة فى عكس اتجاه سيره أن

يخلعَ من على رأسه الطربوش، لذا اختار أن يفعل ذلك ذاتيًّا، وخلعه بنفسه وأمسكه بيده اليسرى مما جعل شعره الطويل يتطاير، وأكملَ خطواتِه المتدافعة على الرمال، فقد أصبح مشيه على الرمال سهلاً مثل ذى قبل، وذكَّرَه صوتُ الأمواج المتلاطمة فى قوتها واندفاعها بأيام صباه، ذكَّرَه بأحلامه وعنفوانه حيث كان البحر شريكًا فيها، تذكر استقباله مع آلاف من الناس لقدوم "سعد باشا زغلول" بعد عودته من منفاه، الحياة بالنسبة له كانت مجموعة من الأحلام التي تتحقق الواحد تلو الآخر، لكن النهايات المأساوية تخصُّ أصحابها فقط، اقترب من المياه بدرجة كبيرة حتى أن الرمال الواقف عليها أصبحت بالكاد صامدة بسبب بقايا الأمواج المتلاطمة المتطلعة إلى الشاطئ.

نظر إلى ما لانهاية، حاملاً معه آمالَه وذكرياتِه، طموحاتِـه وانفعالاتِـه، حزنَـه وسعادتَـه، فكثيرًا عندما يصل الإنسان إلى مراده يعتقد أن هذه النهاية، هذا كل ما يحلم به، لكن بعد فترة يجد أنها مجرد البداية فى اتجاه شيء أصعب أو أسمى، وأصعب ما فى الذكريات مفهوم الفقدان، فبالرغم من ثرائه الشديد، وتمتعه بسُمعَةٍ طيبةٍ، ورثها عن والده بالإضافة إلى محلات (داوُد) للذهب ذات الشهرة العارمة فى أرجاء الأسكندرية كلها، إلا أن الفقدان ما زال شيئًا لا يعوض. حتى إذا أعاد ما افتقده مستخدمًا ما لديه من مال، يبقى مفهوم الفقدان فى حدِّ ذاته متأصلاً بداخِلِـه.

تذكَّرَ حينما كان فى عشرينياته وبعد معاناة تزوج من السيدة التي عشقها "مادا" ابنة عائلة "عزرا" الشهيرة، ولم يكن السبب الفرق الماديّ أو الاجتماعيّ، بل كان رفض أهلها فى البداية بسبب انشغاله بالعمل السياسيِّ، ومقاومة الاحتلال الإنجليزى، وبعد تعهده بعدم الضرر بسمعة الأسرتين العريقتين، وافقت أسرة الفتاة ذات الطبقة الراقية والتعليم المميز، بعد فترة أنجبت له ابنه الأول "إيزاك" الذى تخطى العشرين من عمره الآن، وبعده ابنته "إرينا" حتى قاربت السيدة "مادا" على الأربعين من عمرها، وفى بداية أربعينياتها فوجئ الجميع بحملها فى هذا السن الكبير بالنسبة لطفل، وكانت النهاية المأساوية لديه بموت زوجته أثناء ولادة "يوسف" ابنه الأصغر، الذى لم يمنحها القدر الوقت الكافي لتتمتع برؤيته وهو يكبر، الحياة فى حد ذاتها تغيرت بشكل كبير بعد وفاتها، لكنه استطاع تحويل كل ما بداخله من حب إلى أولاده الثلاثة، واكتفى بوجود مربية إنجليزية بالمنـزل لتعليم "إرينا" و "يوسف" أصول اللياقة والأخلاق التي تميل إلى الأرستقراطية، بالإضافة إلى اللغة الإنجليزية والفرنسية مما سيساعدهما فى المستقبل المزدهر المتوقع لكليهما.

فالآنسة "هيلين" مربية أرستقراطية بجميع المقاييس، فبالإضافة إلى صرامتها وعطفها على الطفلين فى وقت واحد هى أيضا مشهورة بتعليمها وأصولها العريقة، والغريب أن الآنسة "هيلين" قد تخطت الأربعين من عمرها بدون زواج، وغيرُ معروفةٍ أسبابُ ذلك، أو إقامتِها الدائمةِ فى مصرَ، حتى إنها تجيد

اللغة العربية لكن بلكنة أجنبية، ويقال إنَّ خطيبها قد مات أثناء الحرب العالمية الأولى فى خدمة التاج الملكيِّ، مما جعلها تترك وطنها إلى أحد المستعمرات الهامة للإمبراطورية البريطانية، واستقرت بمصر منذ ما يقارب العشرين عامًا.

وكان للتعليم الدينيّ جانبٌ مهمٌّ فى تربية الأولاد، حيث قرر السيد "حكيم" إلحاقَ أولاده بمدرسة "أيام السبت" بمعبد "الياهو حنابـي" القريب من منزلهما بشارع "النبي دانيال" الذى يعد المعبد الرئيس للطائفة اليهودية بـ "الإسكندرية"، بعد أن أنهى "إيزاك" دراسته المدرسية وحصل على البكالوريا من مدرسة " سان مارك" الفرنسية، قرر والده إلحاقه بدراسة التجارة، بالإضافة للعمل معه فى متجر الذهب، حتى يكتسب المهارات الرئيسية العملية للعمل بالتجارة، مثلما فعل جده مع والده، فالحياة هى متجر يختلف فيه الزبائن على المنتجات، كثيرًا ما رسم له الطريق أن يحصل على البكاوية مثل أبيه فى أقرب وقت ممكن، ربما يتبرع إلى الهلال الأحمر بمبلغ مُجزٍ مع بعض التوصيات لدى جلالة الملك ليحظى بالشرف المناسب كونه ابن عائلة "حداد" فموت والده بعد تخطي الخمسين من العمر أمر متوقع والتجارة شيءٌ متوارثٌ.

كان من عادة السيد "حكيم" أن يصطحبَ ابنه الأصغر "يوسف" بشكلٍ أُسبوعيٍّ في زيارةٍ إلى مقبرة والدته بمقابر اليهود "بالشاطبي" حيث يضع الزهور وبعض الأحجار على مقبرتها ويردد بعض الصلوات منذ تخطيه سن السابعة وكان صريحًا مع الطفل للغاية، عندما كان يسأله أين والدته؟ ولماذا لا يراها؟ وكانت إجابتُه حاسمةً بأن رؤيتها ستكون فى حياة أخرى ربما أفضل، فمن الصعب عليه أن يكتشف الطفل كذبه عندما يكبر، كثيرًا ما اشتاق هو الآخر إلى رؤيتها واحتضانها، حيث كانت مصدر السعادة الحقيقية فى حياته، لكن ليس من الضروريِّ وجود الرغبة للوصول إلى المنتهى.

أوقف كل هذه الخواطر بداخله صوتُ "إيزاك" الواقف بجانبه منذ قليل، رافضاً مقاطعة والده فى انتظار أن يتنبَّـه لوجوده بنفسه، إلا أنه علم أن لحظات تفكيره الدائمة غالبا ما تكون بجانب البحر وقال له:

- توقعت أن تكون هنا يا والدى.

فرد الأب على الشاب ذِي الشعر الأسود والعيون السوداء والشارب فارع الطول، مرتديًا بذلة رمادية حاملاً طربوشه أيضا قائلا:

- من الجيد إنك أتيت.

ابتسم الشاب قائلاً لوالده مكملاً:

- أصبحت الآنَ خبيرًا بأمورِ تجارتِـنا، أو بالمعنى الأصحِّ تجارتِـك أنتَ وإخوتِـك.

فرد "إيزاك":

- التجارة تجارتك ونحن نساعدك.

فقال له الأب:

- كلا إنها لكم، تعلم أنه لم يعد من العمر مثلما مضى، كل ما أطلبه منك أن تحافظ على ما أنجزته، وأن تعلِّمَ أخاك مثلما علَّمتُكَ، وأن تحافظَ على حقوق "ارينا".

وأكمل بعدها بأنه تفانى فى تربيتهم وتعليمهم عاقدًا آمالاً كبيرة عليهم، ليحملوا اسم العائلة والتجارة من بعده، و اهاب بة أن يدلل "يوسف" لتعويضه جُـزئِـيًّا عن موت والدته، وبعدها اتجه مع ولده فى طريقهما عائدين إلى المتجر حاملين معا للمستقبل تطلعات مختلفة، لكنهما يحاولان النظر إلى جانبه المشرق، ربما سيظل اسم "حداد" يتردد فترة من الزمن فى "الإسكندرية".

بعد عبور "الإسكندر" الأكبر لآسيا الصغرى فى محاولة منه لغزو الفرس، متماشيا على نهج والده الملك "فيليب" الذى وحد مدن الإغريق القوية محولها إلى دولة واحدة تحت لوائه، غزا كُلاًّ من الشام وفلسطين، واصلاً إلى مصر بعد هزائم ساحقة للفرس، وكان المصريون يعتبرونه المُخَلِّصَ الأوحدَ لهم من بطش الاحتلال الفارسيِّ، فكان من الطبيعيِّ أن يكون الاستقبال له حافلاً ومُدَوِّيًـا، وبعد زيارته لمدينة "منف" وتتويجه ملكًا على مصر قام بزيارة معبد "آمون" في "واحة سيوة" فى الجانب الغربيِّ من الصحراء المصرية، حيث توج من قبل الكهنةٍ ابنا للإله "آمون"، وفى طريق عودته أعجبته الرمال الصفراء الواقعة على شاطئ البحر الأبيض المتوسط ، حيث لم يكن هناك سوى جزيرة صغيرة تدعى "فاروس"، في البحر وفى الجانب المواجه لها قرية مهمشة تعيش على الصيد تدعى "راكتوس" فأمر بإنشاء مدينة تحمل اسمه وتخلد ذكراه، فعهد إلى المهندس الإغريقيّ "ديمقراطيس"، فخطط بعدها المدينة تخطيطـًا عمليًّا للغاية، حاملاً معه الفكر الإغريقيَّ للمدن القديمة وأنشأها شارعين رئيسيين متقاطعين بشكل رأسيّ وتتفرع منهما عدة شوارع متعددة، فمفهوم الخلود دائم لدى العظماء، فماذاً عن أبناء الآلهة... واتجه بعدها نحو الشرق باحثًا عن المجهول أو العظمة الأبدية محاولاً تسطيرَ اسمه بحروفٍ بارزةٍ فى صفحاتِ التاريخِ.

كان الطريق المُـوصل من مدرسة "يوسف" "سان مارك" "بالشاطبي" إلى بيته بالقرب من ميدان محمد علي، يبدو له كرحلة العودة من النار إلى الجنة، فالدراسةُ فى المدرسة الكاثوليكية الفرنسية صارمةٌ لدرجة القسوة، وما كان يخفِّفُ عليه تلك القسوة هو صديقه المفضل "جمال أحمد أبو الحسن" أو كما يدعوه الجميع اختصارًا "جيمي" كالاسم الإنجليزى المتعارف عليه، فإهدار الهوية

أحد الأطماع الرئيسية لفكر الاحتلال، كانت الرحلة قد أوشكت على الانتهاء عند ظهور مبنى الكنيسة الإنجيلية الذي يعتبرُ فى حدِّ ذاته تحفةً معماريّـةً، إيطاليةَ التصميمِ على يد المعماريِّ الشهير "أيمرتس بيروتى" الذى استغرق تسعَ سنواتٍ لإنشائها حتى تم افتتاحُها فى العقدِ السادسِ من القرنِ التاسعِ عشر، المدخلُ الرئيسيُّ مكون من ثلاثِ أبواب، تعلوها أشكالٌ نصف دائرية متوازية مع ثلاثِ نوافذ ذات نفس الشكل إلا أنَّ ارتفاعها أقل، ويغلب على الزجاج اللون الأزرق الذي يحتوي على روح البحر المتوسط، وعليه رسومٌ لاثني عشر حواريٍّ من أتباع السيد المسيح على الطراز البيزنطيِّ، وفى الجزء العلويِّ ثلاثة أشكالٍ نصف دائرية حجم أوسطها أكبر من الآخرين عن الأطراف وأقل ارتفاعًا حاملاً الصليبَ رمز البقاء بالرغم من القسوة والاضطهاد، وكان أغلب أتباعها من المسيحيين اليونانيين أو ذوي الأصول اليونانية، حتى إنها تحمل عَلمَ اليونان.

* * *

كان الصديقان يحملان الحقائب المدرسية يرتديان البزات المدرسية كحلية اللون، وبنطالاً رماديًّا، وأما القميص فقد كان أبيضا و من حوله رابطة العنق المفككة نتيجة اللعب، أو ربما رغبة فى كسر القيود المحاطة بهما. فأحلامُ الطفولةِ البريئة غالبـًا ما تُصاحب الإنسانَ فى مشوار حياته، كان الحديث بينهما مطوَّلاً محاولاً من خلاله اكتشاف ذلك العالم الغريب بجميع خباياه ومفاهيمه المختلفة، لو كانت الحياة بحدِّ ذاتها مجموعةً من التجارب لكان المستفيد الأول هو الزمن. وكان الحديث أيضا يتخلله العديد من الأحداث السابقة، فـ "جيمي" بالنسبة إلى "يوسف" هو الأخ الذى افتقد أن يكون فى نفس عمره، بينما يعتبره الآخر خله الوفيَّ وصديقه المفضل، وكثيرًا ما يذكران أول مرة تعرَّفا فيها على بعضهما، حيث كان كلاهما يعلم أنَّ الآخرَ جارٌ له، وكان التقاؤهما بالمدرسة أمرًا عابرًا ، وفى إحدى المرات كان "يوسف" المشاغب دائمًا يستفز أحد الصبية المتباهين بقوتهم العضلية بالمدرسة ، فإذا بهذا القويِّ يبرحُ "يوسفَ" ضربًا فى أحد جوانب الفناء بعيدًا عن أعينِ المدرسين والمشرفين، فما كان من "جيمي" إلا أن اشتبك مع ذلك الطالب وضربه محاولاً إنقاذَ "يوسف" الذى استعاد زمام الأمور وأخذا يضربان الولد بقوة، حتى إن الولد اشتكى بعد ذلك لأحد المدرسين وهو السيد "أنطوان" ذو القسوة والغلظة الذي عاقب "جيمي" و"يوسفَ" , وبعد فترة ازدادت العلاقة بينهما وأصبحا أصدقاء يفعلان كل شيءٍ بشكل مزدوج، وما استغرب له "يوسفُ" لماذا حاول "جيمي" مساعدته، وكانت الإجابة صريحةً من "جيمي" ذي الوجهِ المُمتلئ أبيض البشرة والشعر البُني الناعم الطويل نسبيًّا،

إن الفكرةَ لم تكن فى مساعدة "يوسفَ" على الإطلاق، لكنه كان يريد الانتقام من الفتى بسبب مناوشة سابقة، الغريب أن الجميع أخطأ "يوسف" و "جيمى" حتى الولد القوي، لكن لم تَـتِم محاسبة سوى "يوسفَ" و "جيمي"، فما الفكرة فى مفهوم العدل، أم أن السيد "أنطوان" قرر دعم الفتى القويّ ونصرته بسبب تمجيده له واللجوء إليه.

أخذ "جيمي" ينظر إلى صديقه ذي العينين البـُنـِّيـَّتَين من تحت الحاجبين الكثيفين والشعر الأسود الأملس المصفف إلى الخلف بعناية، وتلك الحسنة السوداء الصغيرة على خده الأيسر، وتحدث إليه عن عدم قدرته على استيعاب اللغة الإنجليزية بشكل كبير والسهولة النسبية للفرنسية لغته الأجنبية الأولى ، وكيف أن "يوسف" يجيدهما إلى حد كبير بالإضافة لتمكنه من الرياضيات، فأجاب "يوسف" بأن السبب المباشر هو الآنسة "هيلين" مربيته ومعلمته الخاصة، أما الرياضيات فالمسئول عنها هو أخوه الأكبر "إيزاك" بالرغم من انشغاله إلا أنه يخصص من وقته ثلاث مرات أسبوعيًّـا لمساعدته، ويتحدث معه أطول فترة ممكنة .

دخلا إلى شارعهما فى المنطقة الراقية المكونة من مجموعة من البنايات ذات الأشكال المعمارية أوربية الطراز، تحدوها الأشجار ذات الأغصان العالية التي تتشابك فى نهايتها بالرغم من عرض الشارع الكبير بسبب طولها الفارع، فالأشجار مزروعة منذ عدة عقود، إلا أن يناير لا يوجد به اللون الأخضر للأوراق كما هو معتاد فى أغلب فصول السنة الأخرى.

كان "يوسفُ" و "جيمي" يسكنان فى بنايتين قريبتين للغاية، حتى إن باستطاعتهما رؤية غرف بعضهما عبر الشرفتين، المياه كانت تغمر الشارع بسبب أمطار صباح اليوم، لكن أشعة الشمس المتداخلة عبر الغصون الخاوية، أعطت له مظهرًا مميزًا للغاية، وأثناء مشيهما جعل "يوسفُ" "جيمي" يسبقه بعدة خطواتٍ وبعدها أزاحَ بقدمه بعض المياه فى اتجاه "جيمي" فأحس ببرودة على الجزء السفلى من بنطاله، وبعدها نظر له "يوسف" نظرة ضاحكة ساخرة فهى عادته فى الشتاء، بالرغم من عدم تحمله عواقبها فى أغلب الأحيان، وبدأ بالركض ككل مرة فى اتجاه منـزله، وبعدها بلحظات أفاق "جيمي" من الصدمة وقرر الركض خلفه محاولاً ردَّ اعتبارِه.

كان الاثنان يلهثان فى اتجاه سباق مجهولةٌ نهايتُهُ، ربما يسبق "يوسف" "جيمي" ويصعد سالمـًا، أو يلحق به "جيمي" ويلقنه درسًا فالطريق خالٍ والزمنُ إلى جانبهما.

وأثناء ركض "يوسف" أمام البناية رقم "9" كبح من جماح سرعته وهو ينظر إلى

ذلك الموقف في اندهاش حتى لحق به "جيمي" وضربه على رأسه وهو غير مبال، فاستغرب "جيمي" من عدم رده بضربة أو ركلة أو شيءٍ مما اعتاده "يوسف"، ونظر معه إلى الجانب المواجه من الشارع.

كانت فتاة فى نفس عمرهما تقريبًا لكنها مختلفة بجميع المقاييس، فهى ذات شعر أحمر غجريّ ينسدل إلى نصف خصرها، واضعة حوله رابطة على شكل فراشة خضراء اللون متماشية مع لون عينيها، اللتين تذوبان بين درجتي الأخضر والبني، وبشرتها ذات اللون الأبيض الذى يشوبه حمرة عند وجنتيها، مرتدية فستانًا أخضرَ تَـتَخلله بعض الخطوط البيضاء وهى تبكي أثناء ندائها على قط مذعور أعلى الشجرة خالية الأوراق يبدو أنه لها، فقال "جيمي" لـ "يوسف":

- تبدو أجنبيةً، أرجحُ أنها فرنسيةٌ.

ربما لم يسمع "يوسف" السؤال أو لم يفهمه، فقد كان سابحًا في هذا الجمال العذب الذى لم يرَ مثله من قبل، فتساءَل فى نفسه للمرة الأولى؛ هل يمكن أن يكون أحد على هذه الدرجة من الجمال؟ تاه بين خصلات شعرها الأحمر، وعذوبة لون عينيها، توقف به الزمن فهو لا يرى إلا هو وهي فى الفراغ الكونيّ، بكاؤها جعل من قلبه سفينة فقدت رُبّـانَـها، فربما دموعُها، وربما جمالُها الزائدُ عن الحدِّ، لم يعرف على وجه التحديد، لكنه عرف شيئًا لم يعرفه من قبل، إنه الإحساس بين الحرية المفتقدة والحرية المطلقة، الحرية من أوامر الآنسة "هيلين" أو قسوة السيد "أنطوان" ، شعر أنه لا يعلم أو لا يعرف ماذا يريد، إحساس غريب فهو لا يريد أن يرى أحدا سواها، بدأت دقات قلبه فى الخفقان بشكل أزيد من المعتاد، وأحسَّ بخوف ربما لم يكن يعرفه من قبل، إنه الخوف من المجهول، فهل سيراها مرة أخرى...؟

اتجه صوب الجانب المواجه من الشارع إلى الفتاة وكل خطوة من خطواته تحمل الخوف والرعب ولم يكن يعرف السبب ، فاقترب منها أكثر وابتسم فنظرت إليه الفتاة ذات الشعر الأحمر فتفحصته للحظات وبعدها عاودت النظر إلى قطها الأبيض مكررة نداءَها، وعرف من لهجتها أنها تعرف العربية ، استجمع قواه بعد ذلك وقال لها:

- هل هناك مشكلة؟

فنظرت إليه متفحصة غباءَه الزائدَ غير الظاهر عليه، فكيف يسأل مثل هذا السؤال، ألم يلاحظ أن قطها المفضل أعلى الشجرة، فلم تعره اهتمامًا، وأكملت النداء على القط، استغرب من رد فعلها، وعرف أن كل ما كان بداخله مجرد أحلام وردية، وفظاظتها لم تعد جزءًا من الذى كان يتوقعه، واستدار لها مُعطِيًا ظهرَه لجمالها الأخَّاذ، وخطى خطوته الأولى فى الاتجاه المعاكس لها، ونظر إلى "جيمي" وأكمل النظر أمامه وفكر كيف لها ألا تستجيب إليه؟ ألم تشعر بم شعر

به، لقد وجد فى عينيها النداءَ والاستغاثة، لكن يالَـتَـكَبُّـرها، ربما أخطأ فى العبور إلى الجهة الأخرى من الشارع منذ البداية، وقبل أن يخطو خطوته الثانية استجمع قواه ووقف للحظات يفكر مُعطِيًـا لها ظهره وبعدها ألقى حقيبته على الأرض وخلع الجاكت الكحليَّ ورابطة العنق ووضعهما بجانب الحقيبة , وبعد أن استجمع قواه واستدار في اتجاهها وهو يتحاشى النظر إليها واتجه نحو ساق الشجرة وأخذ يتسلقها حاملاً معها الآمال والأحلام بأنه ربما قد يتحدث إليها بعد عودته بهذا القط على الأرض بسلام، حتى صعد على مفترق الغصون واتجه نحو الغصن الذى يحمل القط وبدأ باستلطاف القط محاولاً أن يأتي فى اتجاه، لكن القط كان مذعورًا لدرجة كبيرة، وأخذ فى المواء بصوت عال، فنظر إلى الفتاة ورأى فى عينها ابتسامة غير مكتملة، فسألها:

- ما اسمه؟

فقالت الفتاة بصوت عذب:

- يُدعَى "تشا"

فرد عليها محاولاً مداعبتها:

- اعتقدت بأنك لا تجيـبين إلا القطط.

لم تفهم الدعابة لكنه وجد في عينيها ما يُرضي غرورَه، فكرر النداءَ للقطِّ باسمه، فلم يستجب، فاتجه نحو الغصن الذى يحمل القط حتى اقترب منه، وبعدها حاول حمله، إلا أن القط كان مذعورًا، فاتجهت يداه إلى القط مستشعرًا ما فوق رأسه برفق، حتى بدأ القط يشعر بالأمان معه، وهنا قرر أن يتجه إليه وهو على حافة الغصن، وبدأ الغصن فى التمايل نتيجة وصول "يوسف" للحافة، لكنه لم يكن يعلم أن الغصن قد قارب على الانكسار، فحمل القط بيده ووضعه فى اتجاه الفتاة، حتى إن القط قفز إليها واحتضنته بقوة، وبدت ابتسامة على وجهها وكانت آخر ما يراه قبل أن ينكسر الغصن ليقع على الأرض فاقدًا للوعى نتيجة ارتطام رأسه بالأرض، ربما تحمل نتيجة اندفاع مشاعره، لكنه سيظل متذكرًا هذه الابتسامة ما بقى حيًّا... فقد دافع عَمَّا حلم به، حتى لو كانت الوقائع وخيمة.

* * *

لو عرف "الإسكندر" أنه لن يرى الإسكندرية بعد إنشائها لما ذهب فى اتجاه الشرق، هكذا اعتقد البعض، وبعد موته في آسيا محاولاً الوصولَ إلى الجزء الأكبر من أسطورته الشخصية، وبعدها اصبحت مصر من نصيب قائده "بطليموس"، فمن الطبيعيّ الوفاء للأصدقاء، وفى عصره أراد أن تكون الإسكندرية إحدى المدن الأسطَورية، فأصبحت على الطراز الإغريقيِّ الفخم، وبقت العمدان

الإغريقية فى أغلب الشوارع، بالإضافة إلى القصور الفخمة، وأصبحت مركزًا للفكر والثقافة عن طريق جامعتها ومكتبتها، حيث اعتبرت أول مركز بحث فى التاريخ وتخرج منها الأجلاء فى جميع العلوم أمثال: "غالينوس" في الطب، "إقليدس" فى الرياضيات، "أراتوستينس" فى الجغرافيا، وعلى مينائها وجد الفنار الذى يعد من عجائب الدنيا السبعِ ، وسادت فترة بطلمية عظمى فى المدينة حتى انتهت على يد الملكة "كيلوباترا" ، فما أخطر أن تعشق امرأة حتى إنها قد تضحي بكلِّ ما تملك من أجل إسعاد من تعتقد أنها تحب، فقد تضحي بكل ما تمتلكه، وقد يكون الوطن ضمن بِنود التضحية، حتى إن سكان الإسكندرية رفضوا احتلال "اكتافيوس" الذى عُرِفَ فيما بعدُ باسم "أغسطوس"، ولم لا والملكة "كيلوباترا" كانت تغوي عشيقها "أنطونيو" على شواطئها الممتدة الرمال، حتى إن العلاقة بين الرومان والسكندريين أصبحت متوترة طوال العهد الرومانيِّ فى مصر.

* * *

كان "إيزاك" لا يزال فى البيت هو وأخته "إرينا" التي تعتنى بالصغير الذى سقط من على الغصن منذ أيام قلائل، وكان جالسًا فى البهو الرئيسيِّ لمنزل أسرته مستمعًا للمذياع وهو يشرب قهوته التركية الساخنة التى يعشقها حتى إنه يشربها دون إضافة السكر لها، وضع الكوب الصغير على المنضدة بعد أن ارتشف آخر ما تبقى منه ونظر على الحائط المواجه لمجلسه الذى يحتوي على صورة والده ووالدته يوم زفافهما، وكانت والدته ترتدي فستانًا أبيضًا يحمل نقوشًا بارزة من نفس اللون، ونظر إلى وجهها وتفحَّصه، إنها تشبه "يوسف" إلى حدٍّ كبير، ووالده أيضا كان فتيًّا، وتذكر جيدًا عندما كان صغيرًا ويطمحُ إلى حنانها، لكن كل شيء انتهى الآن، فلم يعرف لماذا هو بالتحديد؟ ولماذا كان الوريث الأكبر لهذه العائلة، ولماذا يعمل مع والده بالتجارة على أية حال؟

لقد كان حلمه وهو صغير أن يكون بحارًا، يجول الموانئ ويتعرف على لذة الحياة، بعيدًا عن العمل النمطيِّ، كان يحلم بأن تكون لديه فى كل ميناء حبيبة تتجلى أبصارها عند رؤيته كل فترة فلا يفتر الحب، كان يحلم بالقليل من الزاد لكن يطمح بالحرية الكاملة، لقد بحث كثيرًا عن الحب، لكن بحكم سمعة أسرته الثرية غالبًا ما كان يستشعر أن دوافع الفتيات تتلخص فيما يمتلكه، بالرغم من وسامته إلا أن ثقته فى ذاته شبه منعدمة، حتى من الفتيات الأجنبيات، ذوات الديانة اليهودية، لا يعلم لماذا؟ لكنه لم ينجذب إلى إحداهن على الإطلاق بالرغم من العلاقات السريعة التي كان مرادها الرئيسيُّ هو الوصول للذة الكاملة

فى الفراش.

كان كل ما يشعر به هو كونه مسئولاً عن الآخرين دون أن يكون أحد مسئولاً عنه، إحساس مريب في أن تُفني حياتك من أجل الآخرين تعيش لهم وتموت من أجلهم وتكون المحصِّلةُ مجموعةً من الذكرياتِ، يراك بها الآخرون - كما يحلو لهم - مرتبطة بذكرياتهم وأفعالهم ومعتقداتهم الشخصية، دون الوصول للبحث عن الذات أو محاولة احتوائها بدلاً من فهمها، فلو كان الفهم أصعب من الاحتواء كان الاحتواء أشمل من الفهم.

أخرج من الجيب الأيسر من البزة البيضاء التي يرتديها علبة سجائره وأخرج إحداها وأشعلها، أوغل بين صدره دخانها الذى يعشقه وقام من على كُرسِـيِّه وتوجه إلى الغرفة التي بها "يوسف" ، ليصل لها عبر الرواق الطويل الذي يحتوي على غرفته وغرفة أخته وغرفة يوسف، ووجد أن الباب ذا اللون الأبيض مُغلقًا، فطرق عليه مرتين، ورد عليه صوتُ فتاة فى مقتبل العمر تأذن له بالدخول، ففتح الباب بمعصمه الأيمن ودخل الغرفة ونظر إلى الحوائط البيضاء والسرير الأوحد، ذي القوائم النحاسية الذى يوجد فى جانبه العديد من الأعمدة القصيرة النحاسية مستلق وسطه أخوه الصغير وهو نائم وبجانبه أخته "إرينا" ذات الثمانية عشرة عامًا، والشعرِ الأسودِ المجعدِ الغزيرِ، و البشرةِ السمراءَ و العينين السوداوتين وهى ممسكة بإبرتين تحيكُ بهما شالاً صوفيًّا أزرق اللون قارب على نهايته، فنظرت إليه وبعدها تجنبت النظر وأكملت ما تفعله بهدوء، فحياكة الصوف ربما تقلل من برد الصباح، فنظر إليها فى غضب، لكن الوقت لا يسمح بمثل هذه الانفعالات، وكظم غضبه، وتكلم بلهجة قوية وهو ناظر إلى "يوسف" النائم فى الفراش تحت الغطاء مُوجِّهًا الكلام لها وقال:

- كيف حاله الآن؟

فردت بشكل رسميٍّ دون أن تعيره أهمية:

- أفضل من ذي قبل.

وجد أنه من غير المنطقيِّ الدخول فى صدام معها فى هذا التوقيت، مكتفيًا بالنظر لها بعنف، وبعدها أغلق الباب بقوة دون حتى إلقاء تحية الوداع، واتجه إلى باب المنزل، وقبل الخروج تأكد من مظهره الصارم فى المرآة المقاربة للباب، ووضع يده اليسرى على شعره ليعدل من تصفيفه ثم وضع الطربوش الأحمر على رأسه وتأكد من إطفاء السيجارة التي فى يده فى المكان المُعَدِّ لذلك

المواجه للمرآة على المنضدة نصف الدائرية بُنِّية اللون، وقبل خروجه من الباب أخذ المعطف المُعَلَّق على العمود الخشبيِّ الرفيع المخصص لذلك بالجانب الأيسر من الباب الخشبيِّ الذى يتخلله الزجاج على شكل شباكين صغيرين، وأغلق الباب بعد فتحه مُحدثا صوتًا مميزًا نتيجة اختلاط صوت تصادم الزجاج مع الخشب ونزل على السلالم بشكل بطيء وكأنه يتكاسل وهو يفكر فيما عرفه عن "إرينا" منذ أسابيع قليلة، فأخته التي لم تطمح لتكملة تعليمها بعد دراستها المدرسية بسبب تدليلها الزائد من جانب والدها بالرغم من إجادتها الإنجليزية تُواعِدُ أحدَ الشبان دون علم أهلها، وبفضل مصادره تأكد من ذلك، المشكلة الرئيسية ليست فى مواعدتها لشاب، فقد أقبلت على سن متغير، فهى الآن أنثى بالمعنى الكامل للكلمة، ومن حقها أن تحب، لكن المشكلة أنَّ الشاب الذى يدعى "اجوستين" من المهاجرين الأسبان، يدين بالمسيحّيةٌ، ويعمل بأحد محلات البقالة بحيِّ "الجمارك"، فبيئته مختلفة عنها من جميع المقاييس، فالديانة والمستوى الاجتماعيُّ والجنسية، فما كان منه إلا – مثل أى شرقيٍّ فى موقفه – أن صفعها ومنعها من الخروج، بالرغم من يهوديته إلا أنه مصريٌّ ذو طباع شرقية على أية حال، وأعلمها أن العواقب ستكون سيئة للغاية فى حال تماديها فى فعلتها، إلا أن ذلك لم يؤدِّ لشيء إلا أن ازدات فى عنادها، فالعناد الصفة الأقوى لدى الأنثى الثائرة فى أغلب الأحيان، حيث إنها لا تملك غيره.

كان قد أنهى درجات السلم وخرج من الباب الحديدى الكبير وبعد خروجه بخطوات التفت إلى الباب ونظر له. إنه يسكن هنا منذ فترة ولادة "يوسف" بعد أن رفض والده البقاء فى منزلهم القديم "بالشاطبي" بعد وفاة والدتهم، فمن الصعب أن تكمل حياتك فى مكان حلمت أن تبقى فيه طوال عمرك مع أحد ثم لا تجده، حيث تصبح الأركان دالة على الذكريات، نيران تحمل آلام الوحدة، أو الفراق أو أي معنى سلبيٍّ لمفهوم الفراغ، فقد كان يحب بيتهم القديم بشكل أكبر، لكن للزمن أحكام يجب تنفيذها.

قرر أن الجو مناسب للتمشية إلى متجره فالسماء لم تمطر منذ أيام، بالإضافة إلى أنه يكره قيادة سيارته بنفسه، وكثيرًا ما يجدها أنها عمل للطبقة الأقل، ارتدى معطفه الذى كان بيده، وبدأ بالاتجاه إلى الجزء الغربيِّ من الشارع، وهو

فى طريقه مرَّ على الشجرة التي وقع منها "يوسف" منذ ايام هرع بعدها حين أتى "جيمي" إلى منزلهم وهو يلهث ويخبره بالواقعة، فما كان منه إلا أن جرى إلى الشارع باحثًا عن أخيه الذى وقع على الأرض فاقدًا الوعي، وبدأت الناس فى التجمع حوله، حتى جرى إليه وأمر سائقه أن يحضر السيارة بسرعة حتى يذهب به إلى المستشفى الإسرائيليَّ بشارع "النبي دانيال" بجانب المعبد، بعدها طمأنه الأطباء أن الصغير سيفيق من غيبوبته بعد فترة قصيرة، وبالفعل بعدها بفترة استيقظ "يوسف" وكان الغريب بعد أن نظر إلى "إيزاك" و "جيمي" ووالده، وتفحص وجود من حوله، وسأل عن الفتاة الفرنسية، والأغرب أن أحدًا لم يعرف من هى، وكأنها شبح مر فى خياله يصعب وصفه، لكن تأكيدات "جيمي" لما حدث أظهر أنها حقيقة، وبعدها صارت الضحكات المتبادلة بين "إيزاك" ووالده مستغربين من تضحية الصغير من أجل تلك الأجنبية غير المعروفة، وما هو نوع جمالها الذى سيطر على ذلك الصغير؟
وبعدها أعطاه الطبيب بعض المسكنات وأكد له أنه سيبقى مستيقظا فترة قصيرة، بعد أن ضمد الجروح فى مقدمة رأسه من الجانب الأيسر.

كل هذا تذكره وهو فى طريقه إلى محل "داوُد" للذهب الذى يمتلكه، واصلاً إلى تمثال المناضل المصريِّ "سعد زغلول".

ودخل بعدها إلى متجره وتأكد من "عبد العال" عاملهم الأمين، أنه قد بدأ بالعمل فى الميعاد المحدد وهو التاسعة صباحًا، وتفحَّصَ المتجر ذا الشكل المربع الذى يوجد به العديد من الأرفف الموازية للحائط بشكل أفقيّ وكلها مصنوعة من الزجاج الذي يتأكد بنفسه بشكل يوميٍّ من نظافته على الوجه المطلوب، حتى إنه يخصم من مرتبات بعض العاملين نتيجة عدم المحافظة على نظافته، وفى الجهة المقابلة توجد العارضات الزجاجية المحملة بالمصوغات الذهبية، المكان لم يمتلئ بعد بالزبائن بسبب الوقت المبكر، حرص بعدها من التأكد على أن كل شئ فى مكانه واتجه صوب الغرفة المجاورة لبهو البيع، ودخلها وجلس على مكتبه الخشبيّ الإنجليزيِّ الصنع، ونظر إلى بعض الكراسي المخصصة للزبائن ذوي الطبقة العلَيا من الأجانب وأولاد الوزراء، ومنهم بعض أميرات الأسرة المالكة، حتى إن العقد المخصص لشبكة الأميرة "عليا" كان من عنده، حيث عهد خطيبها الأمير إليه بشراء شئ لم يرَ مثله أحدٌ، ولا حتى فى عمر الأسرة المالكة كاملة، وأمهله شهرًا، فما كان منه إلا أن سافر إلى إيطاليا بنفسه ليشترى أفخم المجوهرات ليحصل على رضا الأمير، كان ذلك منذ خمس سنوات تقريبا، ولم يكن قد تعدى العشرين ربيعًا بعد.
كانت شبكة العرس حديث الإسكندرية كاملة لفترة طويلة، وزادت شهرة المتجر بين طبقة الأميرات، وأصبحن من مريديه الدائمين، بالإضافة إلى الأجانب بشكل عام.

* * *

كانت الفتاة ذات الشعر الأحمر واقفةً إلى جوار منفذ التهوية الخاص بغرفتها المطلة على الشجرة التي لجأ إليها "تشا"، هربا من ابن خالتها "عاصم" بعد أن أشعل النار بأحد الأوراق محاولا إحراق ذيل قطها الأبيض، مما جعله يهرب ويرتجف، حتى إنها اعتقدت أن القط فقد صوابه، إنها تكره كثيرًا تواجد "عاصم" بالمنزل بالرغم من حبها لخالتها السيدة "هدى"، يعد السببُ الدائم لكراهيتها له هو عدوانيته، بالإضافة إلى تدخله بالأمور الخاصة بها، واضعًا وصايةً غيرَ مبررةٍ عليها، بالرغم من أن عمره لا يتجاوز عمرها إلا بسنتين، وكثيرًا ما عانى "تشا" بسبب ذلك، فهو يعرف كم تحب قطها، لذلك يتلذذ بتعذيبه، وبالرغم من شكواها المتعددة لوالدتها إلا أنها تحرص على عدم اتخاذ رد فعل تجاهه بسبب المحافظة على علاقتها بأختها، لكن الصغيرة سئمت منه، وفى كل مرة تكرر شكواها تحاول الأم تهدئتها قائلة لها بأنها يجب عليها أن تتحمله لأن والده قد تُوفيَ منذُ الصغر، وكبره يتيمًا قد يكون أحد أسباب عدوانيته، وفى كل مرة من تقديمها حسن نيتها يثبت لها "عاصم" بأنه ليس جديرًا بهذه الثقة على أية حال، فالحياة بالنسبة له مجرد حب امتلاك، سيطرة، تحامل على الآخرين.

أما خالتها السيدة "هدى" فنادرًا ما تحاول معاقبته لنفس السبب، وكأن الأيام المظلمة التي تعيشها بسبب فقدانها لزوجها لم تعد كافية، الفتى مدلل إلى حد كبير، وكان فى قناعتها أنها توفر له التعويض البسيط عن فقدان الأب، فقد منحته الحرية والاعتماد عليه بشكل كامل على الرغم من صغر سنه والإرث الكبير الذى تركه والده، بالرغم من علمها داخليًّا بأنه سيبدده فى أحد الأيام، فالقوة بدون واعظ كالفَرَسِ بدون لِجَامٍ، متناثرة عنفوانية فوضاوية، طامحة إلى ما لا يعرف نتائجه، لكنها ليست مشكلة الفتاة الصغيرة على أية حال، إنها تعلم فقط تكدير صفو حياتها بسبب وجوده، هذا ما تعرفه، هذا ما جال بخاطرها أثناء تفكيرها فى ذلك الفتى الذى لا تعرف حتى اسمه، كيف به أن يصعد على الغصون ليأتي لها بما تحب دون علم منه بأيِّ شيءٍ عن حياتها، خاطر من أجل إسعادها، صعد وهوى من أجل فتاة لا يعرفها على الإطلاق... لا تنكر أنه أثار إعجابها بشجاعته التي لم تعهدها من ذي قبل، إنه مقارب لعمرها تقريبًا، ربما فى الثانية عشرة على أقرب تقدير، تتذكر جيدًا أنه اقترب منها ثم حاول إضحاكها و بعدها ساعدها فى أن تحصِل على قطها، لكنها أيضا تتذكر سقوطه وخوفها العارم بعد فقدانه للوعي، وتركَها المكان بعد أن أتى أقرباؤه ليأخذونه، لكنها لا تعرف بالتأكيد ماذا حلَّ به، هل هو فى صحة جيدة ؟ أو ربما يكون قد مات.... كلا.. ... كلا.. إنه حيٌّ، وسيأتي إلى الشجرة فى أقرب وقت لكى يتمكن من رؤيتها

مرة أخرى، وفكرت ما بال غبائها بأنها لم ترد عليه الرد المناسب، كان يجب عليها أن تكلمه على الأقل أو تعرف اسمه، لكنها كانت مشغولة على قطها، وما فعله بها ذلك التعس "عاصم".

إن ارتباطها بالقط هو ارتباط بالكائن الوحيد الذى تؤمن بأنه يحبها، فبالرغم من سفر والدها شبه الدائم بسبب عمله كقبطان، إلا أنها لا تزال تجد فى والدتها الجزء الأكبر من عدم التفاهم ، على الرغم من حبها الشديد لها، فتعاملها معها يكون بالحزم الذى لا يصل إلى القسوة، لكنها كثيرًا ما شعرت بالحزن لذلك، فالتواصل بينهما ليس على الشكل الذى تطمح له.

ربما كانت الأم تعاملها كذلك بسبب سفريات والدها المتعددة، كانت ترى أنه الحل المناسب للتعامل مع فتاة قاربت على سن المراهقة، كل ذلك جعل إحساس الفتاة ذات الشعر الأحمر فظيع بالوحدة، فهي غالبًا وحدها بالرغم من وجودها وسط الجميع، فلم يهتم أحد بسماع أحلامها، ولا ما تتمناه أو حتى ما تكرهه، بالرغم من مستوى الحياة الجيد الذى تعيشه، إلا أنها إلى حد كبير تعيسة، ووجدت ضالتها فى السيدة "ماريز" ، التي تسكن فى الطابق الثاني من البناية المواجهة لبنايتهم.

هذه السيدة التي تخطت الخمسين من العمر ذات الشعر الأبيض الفضيِّ الذى تصففه "إلى الخلف رابطة إياه على شكل دائريٍّ صغير، الوحدة أيضا تقتل تلك السيدة، حيث إن زوجها تُوفِيَ منذ سنوات، أما ابنها الوحيد "نيقولاس" فقد هاجر إلى العالم الجديد، رافضًا الرجوع إلى "أثينا" بسبب الحرب الدائرة فى أوربا كلها، الغريب فى السيدة "ماريز" أنها تسكن منذ ولدت بالإسكندرية، وتتحدث اليونانية بالكاد، بالرغم من أن والديها مُهاجِرَان مثل ملايين اليونانيين بالإسكندرية الموطن الثاني لهم وربما الأول لبعضهم، فالانتماء صفة أساسية لديهم.

قطع تسلسل أفكار الفتاة ذات الشعر الأحمر صوتُ سيدة تبدو عليها الملامح المصرية الريفية مرتدية زيَّ خادمة واضعة على رأسها ما يشبه الوشاح بلون أبيض قائلة لها:

- سيدتي "سارة" لقد أعددت الشاي.

لم تُعرها اهتمامًا وأكملت النظر إلى الشجرة من غرفتها التي يغلب عليها اللون البُـنيُّ ذو الدرجة الفاتحة المكونة من المكتب وخزانة الملابس، بالإضافة إلى السرير الذى يحمل قطعة شفافة من القماش تحيط به كاملا كعازل للناموس ذات لون أبيض، وبعد لحظات نظرت لها وقالت:

- أتأكدتِ من عدم وضع السكر به، يا "سناء"؟

أجابت بالإيجاب، فأشارت لها الفتاة بيدها اليسرى فيما معناه أن تنصرف،

وأكملت النظر إلى الشجرة غارقة فى تأملاتها وأحلامها، لكم تمنت أن تطمئنَّ على هذا الفتى...

كم كان لطيفًا معها لأقصى درجة، لكن من أين تأتي به، فكم كان مرادها إلا تتركه، إلا أن الخوف هو الدافع الرئيسُ وراءَ أفعالها.

وأثناء النظر إلى الشجرة وجدت ذلك الفتى الذي كان الفتي المضحي مرتدي نفس الزيِّ المدرسيِّ متجهًا في نفس الاتجاه، فأحسَّت بأنها سترى من أرادت بجانب الولد أو بعده، لكنها لم تره، اتخذت القرار بأن تتحدث إليه وتسأله عن ذلك الفتى، لكن غرورها منعها... وبعد لحظات أطلقت الريح لساقيها متجهةً إلى باب غرفتها تجري إلى ردهة البيت الذى يحتوي على مكان الاستقبال والطعام، وكادت أن تصطدم بالبيانو الخاص بها، لكنها تمكنت من تفاديه وجرت صوب الباب الرئيس ونزلت الدرج مسرعة إلى الدور الأرضيِّ حتى وصلت إلى الباب الرئيس للبناية المواجه للشارع، وكل ما كان فى أحلامها أن يكون الصبيُّ بخير، شعورٌ نادرٌ ما عاشته من قبلُ, الخوف الممتزج بالنشوة لمعرفتها مصير ذلك اللطيف المجهول، لقد تخطت العديد من الأبواب فى رحلة السؤال عليه، لكنها لا تعبأ بالقيود، المهم أن تسأل عليه، اقتربت من الفتى الذى يبدو أنه لاحظ وجودها فتمهل، اقتربت منه أكثر وأنفاسُها تلهثُ، وقالت فى استفهام:

- ماذا حل به؟

أجاب "جيمي":

- إنه بخير

أجابت وقد أحست براحة وهى تمد يدها للسلام عليه:

- اسمي "سارة"

فقال لها وهو يصافحها:

- أُدعى "جيمي"، عفوًا "جمال"، لكن الجميع يدعونني كذلك.

فسألته أين يسكن الفتى وما اسمه؟ فأجابها وأشار لها إلى منزله بالقرب من منزلها وإلى الطابق الذى يسكن به، وبعدها سألها "جيمي" عن كونها فرنسية ؟ فأجابت بالنفي، وأخذ يتذكر من ادعى أنها فرنسية، وشكرته ، وبعدها ذهبت فى طريقها عائدة إلى منزلها بعد أن شعرت بالسعادة إلى حد كبير حيث إنه لم

يزل بصحة جيدة، إلا أنها يجب أن تطمئن عليه بشكل مباشر ، وشعرت أنها يجب أن تطلب من والدتها ذلك، واعتقدت أنها لن تستطيع إقناعها وحدها، فقررت عدم العودة إلى منزلها، وأن تتجه صوب البناية المقابلة لكي تطلب المساعدة من السيدة "ماريز" لإقناع والدتها، واتجهت صوب منزلها بشكل مباشر، وعبرت الباب، وصعدت الدرج إلى الطابق الثاني، ودقت الجرس عن طريق شدها للحبل المتدلى بجانب الباب ذي الطراز الكنسيِّ، بعدها سمعت دقات الأجراس المعدنية تدق بالداخل، ووقفت للحظات لعلمها بإجازة الخادمة الخاصة بالسيدة "ماريز" وأنه بسبب كبرها ستأخذ فترة من الوقت لتصل إلى الباب، لكن ما خفف من عنائها صوت السيدة من الداخل الذي يجيب بأن يصبر من على الباب حتى تصل.

فتحت السيدةُ البابَ من الداخل مرتدية السواد مثلما اعتادتها "سارة" منذ معرفتها لها بسبب الحداد على زوجها، ووجدت السيدة "ماريز" سعادة نادرًا ما كانت تراها في عيني "سارة" فابتسمت وقالت لها بشكل ضاحك:

- عيناكِ تلمعان.

فقبلتها "سارة" وهى تدخل إلى المنزل بخطوات راقصة، حتى أن السيدة "ماريز" نظرت إليها باندهاش، متأملة تراقصها وتمايلها حول نفسها، ونظرت إليها "سارة" وهى مكملة للرقص على أنغام أحلامها، وقالت:

- لقد تمكنت من معرفه مكانه اليوم، لكنني أريد مساعدتَك.

* * *

الوضع الحالي بالنسبة لـ "إيرينا" غير جيد على الإطلاق, فبعد معرفة "إيزاك" بعلاقتها بذلك الفتى ذي الأصول الإسبانية "أوجستين" وهي حذرة للغاية من اللقاء به، وتذكرت معرفتها به فى البداية وكيف حدث أن التقت به صدفةً لأول مرة، فى منزل الآنسة "هيلين"، وملاحقته لها فترات طويلة حتى استطاع أن يراها، فى أول ميعاد، وقد انبهرت بقدرته الغريبة على الرقص، وحركات جسده الذى يتنفس الموسيقى، شعره الأسود الطويل للغاية، بالإضافة إلى لكنته الأجنبية حتى إنه أعثم فى حرف (الصاد)، ولا يستطيع نطقه بلغة عربية سليمة، لكن دائما ما ينطقه كحرف (الثاء)، الغريب إنها استشعرت تعاطف الآنسة

"هيلين" معها إلى حدٍّ كبير، ربما السبب هو فقدانها لمن أحبت فى الماضي، لكنها بالرغم من صرامتها وجدت فيها التواصل، فالحياة المنفتحة للآنسة "هيلين" التي عاشتها فى صباها لا تزال مؤثرة عليها بالرغم من صلابتها.

وضعت جانبًا الإبرتين الخاصتين بحياكة الصوف واتجهت إلى السرير تتفحص أخيها الصغير النائم أغلب الوقت نتيجة المسكنات، وتفحصت الضمادات على الجرح الذى برأسه، واستشعرت أن الجرح لن يتلاشى بمرور الزمن، لا تعلم السبب على وجه التحديد الذي جعلها تفكر فى هذا ، لكنها أحسته، وضعت الغطاء بشكل مناسب على الصغير، ونظرت إلى الزجاجة الموجود بها الدواء بجانبه وأيقنت أنه لن يكون هناك جرعة أخرى إلا بعد ثلاث ساعات، فاتجهت بخصرها إلى الفراش وقبلته على جبينه، واتجهت إلى الكرسي المقابل للسرير وأمسكت مرة أخرى أدوات الحياكة وأخذت تحيك الشال الأزرق، ومع زيادة المدة التي تحيك بها زاد التفكير بما هى عليه، يا ترى ما نهاية عشقها لـ "أوجستين" فهي تعرف كم هو فقير لكنها تحبه، ربما ستجد مَخرجًا لها بإقناع والدها، فهي تعرف كم أن أخاها متعصب بشكل كبير تجاه الأمور المتعلقة بالحياة المستقبلية والجانب العقائديِّ منها، فربما بحث لها عن زوج من أحد أصدقائه، لكنها لن ترضى وستحاول أن تجعل والدها يرفض، فهي مدللة بالنسبة له، ولا تعلم على وجه التحديد ماذا سيحدث، لكنها متأكدة من شيءٍ واحد : أن الحياة لا تحدث إلا مرة واحدة، والمتعة جزء من فلسفتها، والاشتهاء غاية، والغواية اشتهاء.

والرغبة فى أن تصل لِـقمَّةِ متعتها فى الحياة أمر حتميٌّ لها والتضحيات واجبة لكن بشرط أن التضحية يجب أن تكون فردية فلو أن التضحية عمت الجميع ما كان مفهوم ندرتها موجود، وقيمتها لن تصبح كما كانت، لكن ليس من الضروري أن تضحي هي، لكن ما الموانع من زواجها من إسباني على أية حال...

سترى إذًا ما سيحدث، لكن فى قناعتها شيئًا واحدًا، الحياة واحدة والمتعة شيء أساسيٌّ، ألا يكفي وضعها الحالي بوجودها بجانب أخيها الأصغر أهي ملزمة بتضميد جراح ناتجة عن حماقته ؟ ألم يكن من الأفضل لها التواجد فى أحضان "أوجستين" أو مراقصته؟ على كل حال هو أخوها الصغير، ويجب مراعاته

، فهي تعوض الأم المفقودة بالنسبة له ولو بشكل نسبيٍّ، كلا إنه يستحق معاناتها كاملة فما ذنبه لافتقادة و جود أمه.

قاطع ما كانت تفكر به دخولُ والدها إلى الغرفة واتجاهُـه إلى الصبيِّ الصغير ليتفحصه وبعد تأكده من نومه التامِّ اتجه إلى الجانب المواجه من الغرفة وجلس على حافة السرير، وبدأ بالحديث إلى "إرينا" وقال:

- أهو نائم منذ فترة طويلة؟

أجابت بالإيجاب وهي تتظاهر بانهماكِها في الحياكة، وبعدها نظر لها والدها متفحصًا إياها ... متأملها.. إنها طبق الأصل من أمها حينما كانت فى نفس عمرها، وقال لها:

- أرى أن علاقتك "بإيزاك" ليست على ما يرام فى الفترة الماضية؟

فردَّت عليه وهى لا تزال متظاهرةً بانهماكِها فى العمل وقالت:

- كلا، العلاقة بيننا على خير ما يرام.

فقال الأب:

- أعلم أنكِ افتقدتِ والدتَكِ، لكن يجب أن تصارحينني إذا حدث شيءٌ ما.

ابتسمت له ابتسامةً شافيةً لأسئلته وأكملت الحياكةَ.

* * *

تعتبر العلاقة بين اليهودِ ومصرَ أسطوريةً إلى حدِّ كبير، حتى إن الوصايا العشر التي تعد البداية الفعلية لليهودية قد أنزلت فى سيناء، رغم الخروج مع النبي "موسى" وصولاً على سيناء ومنها إلى فلسطين ومن بعده الشتات، إلا أن العلاقة قد تأرجحت بين العداء والسلم لفترة من الزمن.

بعد إنشاء "الإسكندرية" بفترة قصيرة وصل تعدادُ اليهود بها إلى ما يقارب ربعَ السكانِ، بعدها رحبَ اليهودُ بدخول الرومانِ مما جعل هناك عدم تناغم فى العلاقة مع السكندريين، وقد كافأ "أغسطس" اليهودَ على تأييديهم له بالإبقاء على حقوقهم فى مجلس الشيوخ، واحترام جميع الحقوق الخاصة بهم فى العصر البطلميِّ، وبالطبع رفض السكندريون الحكمَ الرومانيَّ مما أضفى صبغة عدائية على العلاقة السَّكَندَرِيَّةِ اليَهُودِيَّةِ، وصلت إلى حدِّ الصراعات المُسلحةِ الدمويةِ فى القرن الأول الميلاديِّ، حيث قام الروم بإغلاق معبد يهوديٍّ بعد ثورة

لليهود فى فلسطين أثناء الحكم الرومانيِّ، ومرت العصور وتم الفتح الإسلاميُّ لمصر، وتمتع اليهود بكامل حريتهم العقائدية والشعائرية، وكانوا جزءًا أصيلاً من نسيج المجتمع المصرى، وبعد حروب الاسترداد للأندلس هرب المسلمون جنبًا إلى جنبٍ مع اليهود إلى الجزء الغربيِّ من المغرب العربى، ومنهم من أكمل رحلته وصولاً إلى مصر شرقًا، ومرت السنون وعند افتتاح قناة السويس هاجر إلى مصر العديد من أصحاب الجنسيات المختلفة من إيطاليين وأسبان وإنجليز وفرنسيين، بالإضافة إلى اليونانيين الذين لم يتركوها قط، وفى نهاية القرن التاسع عشر هاجر إلى "الأسكندرية" العديد من اليهود الروس بعد قيام الثورة البلشيفية، هاجرت مجموعة أخرى حتى ارتفع تعداد اليهود من أربعة آلاف إلى ثمانية عشرة ألفًا فى أوائل القرن العشرين، وانقسم يهود "الإسكندرية" إلى نصفين، نصف مصري متأصل وآخر أجنبي انقسم بدوره الي "اللادينو" وهم يهود سكان البحر المتوسط ويهود إيطاليا وشرق أوربا، ويهود المغرب والشرق الأوسط الذين يتكلمون العربية، وبعدها تحول أغلب من يدين باليهودية إلى الحياة المنفتحة الأوربية، وتعلموا اللغات وحسَّنوا من معيشتهم، حتى إنهم أصبحوا ينتمون إلى الجزء الأعلى من الطبقة الوسطى، وكان منهم أيضا علية القوم من تجار ورجال بنوك ورجال صناعة، واتخذت الطائفة معبد "الياهو حنابي" مقرًا لها، الذى تم بناؤه فى أواسط القرن الرابع عشر وتعرض للقصف على يد نابليون مثل الأزهر الذى تم تدنيسه بالخيول فى نفس الفترة الزمنية.

* * *

كانت عقارب الساعة قد قاربت أن تشير إلى الخامسة والجو لا يزال غير مستقر نتيجة للأمطار التي تهطل بغزارة خارج متجر "داوُد" للذهب حتى إن الزجاج الخاص بالعرض الخارجي للمشغولات الذهبية امتلأ بحبات المطر التي سريعًا ما تتحول إلى خيوط من المياه على الزجاج من الجهة الخارجية، وصوت ارتطامها بالحاجز الزجاجي لا يزال مسموعًا بصوتٍ واضح يتسارع إيقاعه حينا ويبطئ حينًا، لكنه لا يعرف التوقف.

قام "إيزاك" من على كرسيّه الجلدي ذي اللون الأسود المواجه إلى مكتبه واتجه نحو النافذة وحرك الستائر البنية ليتلصص على الجو ناظرًا عبر الزجاج، ووجد أن المطر لا يزال يهطل بشكل قويٍّ، حتى إنه رأى اتجاه الرياح عبر تدافع

المطر، وأخرج علبة سجائره وأشعل واحدة، وأخذ ينظر إلى قطرات المطر على الأرض الأسفلتية المبللة وإلى الجهة المواجهة لمتجره، ورأى بعضًا من المطابع غيرِ ظاهرةِ الأسماء بسبب المطر الشديد الذي استقر بعضٌ منه على السيارات القليلة المتواجدة أمام المكان لأصحابها الغالب عليها اللون الأسود من طراز يرجع أغلبه إلى منتصف الثلاثينيات، وأخذ يفكر ماذا عساه أن يفعل فيما تضطره أخته لفعله، فعلاقتها بأجنبي مسيحي قادرة على هزِّ سُمعةِ الأسرةِ ربما طمع هذا الفقير فى ثرائها، وربما أحبها حقا، لكنه فى النهاية أجنبي ومسيحي، على أية حال يجب الوصول إلى حل وسط يرضي نفسه على الأقل وبعدها يحاول إرضاء بقية الأطراف، فيجب عليها التزوج من يهوديٍّ ذي أسرة محترمة، حتى لو لم يكن مصريًّا بالشكل التام إلا أنه يجب أن يكون يهوديًّا.

قاطعت تفكيرَه طرقاتٌ على الباب وبعد أمره بالدخول، وجده "عبد العال" ذا الأربعين عامًا، والشكل المصريِّ إلى حد كبير من سمرته وعينيه السوداوتين، وشعره الأسودِ المجعَّدِ، مرتديًا معطفَه الأسود الشتويَّ الذي يتماشى مع رابطة عنقه التي تميل لدرجة فاتحة من اللون البني، وطربوشه الأحمر، ونظر إلى السيد "إيزاك" وقال له:

- سيدي هناك زبونة تتحدث الفرنسية.

أجاب "إيزاك" بحزم:

- اجعلها تنتظر وسآتي إليها فى الحال.

وخرج إليها "عبد العال" وأغلق الباب خلفه، وبعدها اتجه "إيزاك" إلى مكتبه وأخذ من عليه الطربوش، وتأكد من وضعه على رأسه بشكل مناسب واتجه إلى الباب الخاص بمكتبه الملحق ببهو البيع، وأخذ يفكر، لماذا تنـزل سيدة من منزلها لأى سبب كان تحت هذه الظروف الجوية الصعبة، من أجل أن تذهب لمتجر الذهب، ربما لديها مناسبة هامة، أو ربما الشهرة العارمة للمتجر، لكنه فكر مليًّا، لماذا لم تنتظر حتى انتهاء المطر على أية حال، وأغلق الباب خلفه، واتجه نحو البهو الرئيسيِّ للبيع وعدَّلَ بيده سترتَه، واتجه نحو السيدة التي ترتدي معطفًا للمطر أسود اللون ذات شعر أشقر، ولم يتمكن من رؤية وجهها بسبب أنها كانت مواجهة لأحد الأرفف ذي الخواتم الذهبية، انتظر للحظات حتى

تستشعر وجوده لكنها لم تفعل، فقرر البدء بالحديث بالفرنسية:

- سيدتي أيُعجِبُكِ شيءٌ مُعَـيَّنٌ؟

دارت حول خصرها لتتجه بعينها إلى الصوت القادم من خلفها، وعندها رأى "إيزاك" وجهها... يالجمالها، فتاة فى بداية العشرينيات على أقصى تقدير، ويبدو من ملامحها أنها أجنبية، وتاه وسط عينيها ذات اللون الممتزج بين الأخضر والأزرق وبشرتها البيضاء وشعرها الذي لا يزال مبللاً بسبب الأمطار حتى أن هناك نقاط مياه على كتفيها فوق المعطف الأسود الأنيق لدرجة كبيرة، وابتسمت له وردت بالفرنسية:

- كلا.. إنني أريد ان أبيع هذه.

وأخرجت من جيب المعطف الأزرق قلادة ذهبية تحمل "نجمة داوُد" التي تعتبر أحد أهم رموز هوية الشعب اليهوديِّ وهى عبارة عن مثلثين مختلطين معا مكونين نجمةً ذهبيةً، أمسك "إيزاك" من يد الفتاة القلادة وتلامست أطراف يديها مع أنامله مما أشعره بإحساسها بالبرودة الشديدة، وأمسك النجمة منها وقبلها وهو لا يزال ناظرًا إلى عيون الفتاة وقالت له والدهشة تعلو عينيها:

- أأنت يهودي؟

أجاب بالإيجاب وأكمل:

ألم تلحظي هذا من اسم المتجر، فاجابته بابتسامة عذبة:

- لا أعرف العربية أو الإنجليزية.

فأجاب متسائلاً ونظراتُ الإعجابِ لم تفارق عينيه مبتسمًا لجمالها ففي أغلب الأحيان تبدو يهودية وقال لها:

- يبدو أن بلادًا بعيدةً أرسلت سائحةً جميلةً.

فردَّت مبتسمة:

- لستُ سائحةً إنني مقيمةٌ هنا لوقت غير معلوم، أنا من تشيكسلوفكيا.

استشعر من كلامها أنها لاجئة من الحرب الدائرة فى أوربا وقال لها وهو يقدم يده للسلام عليها مُعَرِّفًا نفسه:

- "إيزاك حداد".

فسلمت عليه بـرِقـَّـةٍ وقالت:

- "بارابورا سيمكوفا"

وضع يده على كتفها الأيسر وأشار بيده الأخرى إلى مكتبه ثم خلع عنها المعطف المبلل، وقال وهما متجهين إلى المكتب إن القهوة ستُعجِبُكِ إلى حدٍّ كبيرٍ، واصطحبها للداخل وأغلق الباب من خلفه، ولكن يبدو عليها أنها كانت تتذكر شيئًا ما.

* * *

براغ 1938

الجمعة التاسع من سبتمبر، كان أكثر أيام السنة تميزًا بالنسبة لـ "برابورا نوفاك سيمكوفا" أو "بارا"، إنه ذكرى ميلادها، لم يكن اليوم شبيهًا بالبارحة بالنسبة لها، فربما يكون الإنسان متواجدًا فى نقاط مختلفة فى حياته دون سبب جِدِّيٍّ لمفهوم وجوده.

تذكرت نفس اليوم من خمسة أعوام مضت... لقد كان الاحتفال بيوم ميلادها فى معبد القدس اليهوديِّ فى "براغ" بـ "تشيكوسلوفكيا"، حيث رددت أجزاءًا من التوراة، فَسِنُّ البلوغ لدى الفتياتِ فى الديانةِ اليهوديةِ اثنا عشر عامًا، وكان غريبًا بالنسبة لها أنها أدركت سنَّ الرشد رغم أنها لم تعرف عادتها الشهرية الأولى بعد... ربما كان السبب هو جسمها الهزيل فى ذلك الوقت، لكنها لم تستطع التذكر جيدًا، هل كانت سبت أم لا؟

على الجانب الشرقي من نهر "فلتافا"، مشيت "بارا" في شارع "لسنوبادو"، متأملةً انعكاس أشعة الشمس على مياهه الزرقاء متخللها الخيوط الذهبية، تفكر فيما هي الآن، إنها فى السنة النهائية من دراستها الثانوية، وقد قاربت الدراسة على الانتهاء، ويجب عليها التفكير جيدًا فى دراستها الجامعية، ربما تفضل دراسة اللغاتِ فهي تجيد التشيكية والألمانية بحكم النشأة والفرنسية بحكم الدراسة.

ربما ستكون أيام الجامعة أفضل من أيام مدرستها الحالية كاثوليكية الدراسة، إنها ليست كمدرستها الأولية يهودية التعليم، إنها تغيرت كثيرًا منذ الانضمام إليها... لم تعد تلك الفتاة البريئة الساذجة والفصل بأكمله يرجع إلى صديقتها "ادينا"، التي تعرفت عليها فى مدرستها الجديدة، بالرغم من عيوبها فالإنسان يجب أن يقبل أصداقائه بحالهم كما هو.

تذكرت أول مرة اشتعلت فيها السيجارة مع "ادينا" منذ ما يقارب الثلاث سنوات عن طريق حب التجربة، ورغبةً في اكتشاف المجهول... تذكرت السعال فى البداية عدم القدرة على احتمال رائحة الدخان... كما كانت تكرهه أثناء تدخين والدها لغليونه الخشبى البنى اللون ذي الشكل المميز، وبعد فترة أدمنت دخانها الملعون، إنها الرغبة الجامحة غير قابلة الإشباع، فتذوب أفكارها وتستكين بعد الانتهاء من آخر دخانها... إضافة إلى أنها تشعرها بالدفئ فى أيام البرد القارس، والثلج المنهمر.

وعندما تم اكتشاف أمرها من قِبَـلِ والدتها صفعها والدُها ونهرَها... فكان الغريب أن تخاف من لذة السيجارة فاعتادت أن تضعها بين إبهامها وسبابتها، محتوية جسد السيجارة بين يدها لمحاولة إخفائها، رعبًا من رؤية أحد.

أيضا "ادينا" كانت السبب فى معرفتها بـ "فرانز" صديقها الذي تعشقه، فهو يهوديٌّ مخلص، ويكبرها بعدة سنوات ويعمل بأحد محلات الصباغة، ومستقبله مقنع، وتعتقد أنه يحبها، فهو مثير بجسده الطويل، وشعره الأسود الطويل الأملس، الذى كان يصففه للخلف مما يعطيه بريقًا مميزًا، وشاربه الأسود الذى يعطيه بعض الوقار، بالرغم من صغر سِنِّه... وجودُه فى مخيلتها أشعلَ النارَ فى مخدعِها... حتى إنها اعتادت أن تداعب جسدَها عدةَ مراتٍ قبل أن تنامَ لتطفئ شهوتها، تتخيله فى أحضانها يلتهم كل جزء من جسدها ويشبع رغبَتَها.

تتذكر جيدا يوم أن تحولت من فتاة إلى إمرأة، وفقدت عذريتها، على يدي "فرانز" ، وكم بكت بعدها خوفًا من اكتشاف أمرها، وأقنعها حينها أن تلبية الحاجة الجسدية لا علاقة له بالأخلاق.

تأملت لأول مرة انحدار نهر "الفلتافا" الذي تعشقه، فى اتجاه الشرق، ثم العودة تدريجيا فى اتجاه الغرب، مُكَـوِّنًا هلالاً على الأرضِ، واستنكرت فكرة أن يكون الله قد غير مساره ليقترب من الحيِّ اليهوديِّ "جوسوف" حتى يسهل علي سكانة الحاجة اليومية للمياه... وابتسمت واستبعدت الفكرة لأن وجود النهر ربما يكون قبل وجود اليهودية نفسها.

و بعدها تحول نظرها من النهر إلى الجانب الأيمن من الشارع، رأت مسرح "رودلفينم" الموسيقيَّ ذا المكانة الهامة وسط أبنية "براغ" التاريخية والحديثة بالنسبة لها، فعشقها للموسيقى جعل تواجدها مع "فرانز" شبه دائم به، وقد استمعت للعديد من كلاسيكيات الموسيقى للمرة الأولى هناك... حفظت أيضا تكوينه المعمارى الفذ عن ظهر قلب.

فمن ينظر إليه من المقدمة يراه يتكون من طابقين يعلوهما طابق ثالث على ما يقرب من نصف المسافة الكلية للطابقين الأولين للوصول للطابق الأول طريق يتكون من مجموعتين من السلالم الرخامية تفصلهما ردهةٌ فى شكل تصاعديٍّ وعلى جانبيه تمثالان أعلى عمودين على الطراز الإغريقيِّ، أما الأبواب والنوافذ فى الطابقين فيمتلكان نفسَ التصميم فى النوافذ فى الثاني والأبواب الخشبية

فى الأول وعددها خمسةٌ على شكلٍ دائريٍّ.

على بُعد خُطواتٍ من ذلك المبنى الذي يرجع تاريخُه إلى نهايات القرن التاسع عشر منتسبًا إلى "رودلف" أمير النمسا في ذلك الوقت الذي حضر الاحتفال بنفسه توجد المقبرة اليهودية، حيث يرقد أجدادها اليهود... مجرد مكان به العديد من الحجارة المتناثرة من الرخام الأبيض والأسود موضوعة بشكل أفقيٍّ، وأسماء بالتشيكية والعبرية وتاريخية ونجمة داود... الغريب أنه على الرغم من اختلاف كل هذه التواريخ، إلا أنَّ وجه التشابه بينهم واحد، إنهم كلهم جزء من الماضى... هذه هى الحياة قطعة رخامية على عشب بائس نتيجة اقتراب الخريف، وما الحكمة أو الموعظة فى أن يكون الموت بجانب الحياة متمثلة فى الفن... أخذت تفكر ... كلا... كلا ... الله يعلم ما يريد ويفعل ما يريد، إنه إلهنا الذي فى السماوات ينتظرنا فى السماء ليكافئنا.

انعطفت "بارا" يسارًا بعد عدة أمتار من المقبرة اليهودية لتدخل شارع "نكسكرنش" فى اتجاه نهاية الشارع، حيث يربط الشارع بين مجاورات النهر والحيّ اليهوديِّ "جوسوف"، الشارع فى حد ذاته يعتبر جزءًا من "براغ" المتشابهة معماريًّا إلى حدٍّ كبير.

الطريق مكوَّنٌ من مربعات من مادة صلبة موضوعة بشكل منتظم لتمهيد الطريق، أما الأرضِ فضيقة والمباني المتلاصقة مكونة غالبًا من طابقين أو ثلاثة، كما أنها ذات فتَحات تهوية متماثلة ومطلية بألوانٍ زاهيةٍ من أصفر وأخضر ولبنيٍّ، والأسطُح جميعها متشابهة منحدرة إلى الأسفل على أشكال تشبه التكوين الهرميَّ فى وجهتين متقابلتين، حتى تمنع تراكم الثلوج في الشتاء القارس ببراغ.

المحلات والمقاهي التي تتخذ الطابق الأرضي مكانًا لها والعديد من البضائع والعمال... الكل يبحث عن رزقه وبداخله قناعة أن الله سيرزقه بالرغم من تكرار المقاهي ومحلات الفاكهة إلا أن الرواد مختلفون.

قبل نهاية الشارع ببنايتين اضطرت "بارا" للتوجه إلى الناحية الأخرى من الشارع لدخول البناية المواجهة لذلك المقهى الذي صاحبُه فرنسِيٌّ، و الذي كثيرًا ما ابتاعت المشروباتِ الساخنةَ منه لدى زيارتها لجدتها.

اليوم متوسط الحرارة، ولم يدخل الخريف بعد بقسوته وعدم وضوحه ، وهي ليست بحاجة للدفء .

صعدت "بارا" درجات السلم بخطوات متعبة بسبب الحقائب التي تحملها فى يدها اليسرى، إنها بعض الأغراض التي طلبت منها والدتها بأن تقوم بشرائها للاستعداد لحفل عيد مولدها في المساء، وقد كتبت لها ورقة صغيرة بالاحتياجات على شكل نقاط حتى لا تنساها.

فقد اشترت الشموع والبالونات وبعض الزينة للمكان، بالإضافة إلى أنها فى طريق ذهابها لجدتها مرَّت على محل الحلوى، حيث أكدت على ميعاد استلام الكعكة، وبعض المخبوزات الأخرى، وعلمت من البائع أن والدها قد فعل نفس الشيء فى صباح اليوم، وأكد بنفسه على التحضيرات الخاصة بالكعكة وخلوها من الشيكولاته، حيث لا تحبها، واتفق مع صاحب المخبز بأنه سيمرُّ عليه فى طريقه لمنـزله ليأخذها.

وقفت أمام الباب الخشبيِّ بُنـيِّ اللون المكتوب عليه بأحرف ذهبية "استر دومن"، طرقت الباب طرقتين متتاليتين، وبعدها سمعت صوت امراة عجوز يطلب منها الدخول، فإذا بها تنحني إلى الأرض بعد وضع الحقائب عليها لتأخذ من تحت السجادة الصغيرة مفتاح الباب، وتعتدل لتفتحه، وبعد التأكد من فتحه أرجعته إلى مكانه الأصليِّ وحملت الحقائب.

بعد خطواتها الأولى داخل المنزل، وضعت الحقائب التي ابتاعتها من يدها اليسرى على الأرض، وبدأت ترى المكان لمرات عدة بنفس الرؤية تلك الشقة الصغيرة، بنية الأثاث، مكتومة الرائحة، وتلك المنضدة المستديرة التي يحيطُها أربعُ كراسي، وذلك المكتب البُنيِّ الصغير والشمعدان، وهذه المرأة العجوز بيضاء الشعر الناعم، مرتدية السواد حدادًا على زوجها الذي تركها وحيدة منذ عدة سنوات، إنها جدتها لامها "استر"، إنها تحب تلك السيدة حبًّا جنونيًّا، فتلك الخبرة من السنوات لا يمكن أن تكون متوافرة فى شخص واحد، ربما اقتربت من بلوغ السبعين، لكن تجاربها الحياتية تضاعف عمرها أعمارًا.

من على كرسيها المتحرك بدأت الجدة "استر" فى تفحص "بارا" وكانها تراها للمرة الأولى.

فتاة متوسطة الطول شقراء ذات شعر ذهبيّ ناعم، تَـتَـخلله بعضُ التموجات مما يُضيف سحرا له، غالبـًا ما تصففه من المنتصف على شكل جزئين فى اتجاهين متعاكسين، أنثى بالمعنى الكامل للكلمة، فخلف هذا المعطف البُنـيِّ

نهدان ساحران وجمالها ليس بالرجراج ولا المندثر، وخصرها الصغير الذي يعطي لها بُعدًا آخر من مفهوم الجمال، وأكثر ما يشد النظر لها عيناها وحاجباها المُـزَجَّجَان، إنه لون خليط بين الأزرق والأخضر يتغير حسب إضاءة المكان، وربما حسب حالتها النفسية، إنها تشبهها لحد كبير أثناء صباها.

تذكرتها وهى رضيعة، وهى طفلة والآن... فالزمن يمر بسرعة غريبة، اقتربت "بارا" منها وقبلتها، وبعدها جلست على كرسي قريب منها، نظرت لها السيدة العجوز وفى عينيها ابتسامة نادرًا ما تراها بعد رحيل زوجها وقالت لها:

- جمالك أصبح باهرًا

خجلت "بارا" من كلام جدتها، وابتسمت وأكملت العجوز الكلام:

- تعرفين أنك المفضلة بالنسبة لي من جميع أحفادى

قالت "بارا":

- أنت أيضا الجدة المفضلة لي

حركت الكرسي فى اتجاه المقابل لـ"بارا".

- لقد أخطأتُ مع والدتكِ من قبل ولا أريد تكرار ما فعلته معكِ.

نظرَت "بارا" إليها في استفهام وهي تقول:

- أعلم أن الحياة مجموعة من الأخطاء المكررة من أشخاص مختلفين.

ابتسمت العجوز وهى تهزُّ رأسها دليلاً على موافقتها:

- صدقتِ، لكني أريح ضميري فالموت قريب.

- لنا جميعًا ولستِ وحدكِ.

- قلتُ لوالدتكِ من قبلُ إنه لا يجب أن تكون نهاية قصة الحب الزواج، فوالدتك كانت تحب رجلاً آخر غير والدكِ، فهو لم يكن بنفس قدرة والدكِ الماديةِ، ولا الدينيةِ.

صمدت "بارا" للحظات، فماذا عساها أن تقولَ ، متأملةً ما تقوله العجوز، وأكملت العجوز كلامها:

- قلت لها يجب أن تسلم جسدَها لمن هو كفيلٌ بتقديره، وقلبُها ملكٌ لها

وحدها، لكن الجسد له متطلبات لا يقدر القلب وحده على الوفاء به.

لم تعرف "بارا" أتوافق أم تستنكر، لكنها قررت تأييد العجوز، وقالت:

- لن أسلم جسدي إلا لمن يقدره.

- أصبتِ، لكن أرجو منكِ أن تُسلميه لمن تحبين، ولا تنظري إلى ماله، لا أريد أن أخطيء معكِ مرة أخرى مثلما فعلت من قبل، فالعشق حالة لا تتكرر.

ولوحت الجدة بيدها لـ "بارا"، حتى تقترب وأخذت من جانب الكرسي المتحرك صندوقًا صغيرًا مُغلقًا بألوان زاهية وعليه بعض الأربطة الملونة وقبلتها وقالت:

- كلَّ عام وأنت بخير "بارابورا"

* * *

فى العقار رقم 18 بشارع "كارلوفا" العموديِّ على نهر "الفلتافا" تسكن "بارا" مع والديها فى مبنى ذي شكل معماريٍّ تقليديٍّ لِمَـبَاني "براغ" العتيقة، فى حوالي الساعة الخامسة سيبدأ الأصدقاء في التوافد إلى منزلها، الأصدقاء من جميع الأنواع المخلصين منهم والأفاقين، والصداقة جزء من كمال الوجهة الاجتماعية لدى والدها صاحب مصنع النسيج في منطقة "استروفا" خارج "براغ"، وبمناسبة ذكرى مولد ابنته الوحيدة، صرفَ يومًا إضافِيًّا للعمال كهدية، كما هي عادته منذ مولدها، وكان الرد المنتظر من العمال هو تجميع بعض الأموال ليشتروا هدية مناسبة للسيدة الصغيرة صاحبة النعم، مصحوبة بخطاب صغير باللغاتِ الثلاثِ التي تُجِيدُهُنَّ تعظيمـًا لثقافتها ومعرفتها، ومع الخطاب الصغير ورقة طويلة تضم أسماء العاملين فى المصنع كاملة. كثيرًا ما كان يفتخر والدها بولاء عماله أولاً ، ثم حبهم له، الذي يبادله بالنعم والهبات، حتى إن مصنعه أصبح أحد أهم مصانع النسيج فى البلاد كاملة.

فى داخل غرفة "بارا" ذات اللون الأبيض يوجد مكتبها الخشبيٌّ الخاص بالاستذكار والعديد من الكتب متعددة اللغات وخزانة ملابسها الخاص الممتلئة بالملابس الفاخرة التي جلبها لها والدها من رحلاته المتعددة فى أماكن مختلفة فى أغلب أرجاء أوربا، و بها ايضا خزانتها الخاصة توجد حافظة السجائر الذهبية الخاصة بها، التي أهداها لها "فرانز" فى نفس المناسبة للعام المنصرم، وتضع بها سجائرها الألمانية الفاخرة الصنع، وكثيرًا ما استعجبت كيف استطاع أن يكتب اسمها عليها بحروف سوداء براقة مما أضاف بُعدًا آخر من إحساسها بمفهوم الملكية.

اتجهت نحو خزانة ملابسها الخاصة وفتحتها على مصراعيها وأخذت تتفحصها بعناية لاختيار أزهى الملابس، فهذا الفستان الأحمر الذى يتماشى مع القبعة البيضاء الدائريَّة، عارِ الكتفين هو الأنسب لها اليوم، فعلى الرغم من أن اليوم سيكون باردًا فى المساء إلا أن إظهار جمالها أهم عندها من شعورها النسبيِّ بالبرد، اختارت أيضا الجوارب الشفافة التي تظهر أنوثتها بسبب قصر الفستان ذي الخط الأبيض حول عنقه، ونظرت إلى الجزء الأسفل من خزانة ملابسها واختارت الحذاء الأحمر المفضل لديها، فهي تعتقد أن اللون الأحمر يسبب غيرة الأخيرين ويضفي المزيد من الأنوثة لها.

ووضعت جانبًا المنشفة التي كانت تضعها حول جسدها المبلل بعد انتهائها من حمامها الساخن، وبقيت عارية أمام المرآة تتفحص جسدها، وأخذت ترتدي ملابسها بعد ذلك على الترتيب المعتاد لأى امرأة، ملابسها الداخلية ثم الجوارب، ثم تأكدت من اتصال الجوارب بالملابس الداخلية من خلال رابطة ذات اتصال بالجانبين، ثم فستانها، ونظرت إلى مرآتها واقتربت منها، وتأكدت من زجّ حاجبيها، وبدأت بوضع بعض مساحيق التبرج ، وهي تفكر أنه كان من الأفضل لهاَ أن تكون فى حفلة صغيرة مع "فرانز" وحدهما فى غرفة مغلقة أفضل من كل هؤلاء المدعوِّين الرسميين من أصدقاء والدها ومعارف والدتها وأصدقائها فى المدرسة، لكنها ستجد طريقة أخرى لاحتفالهما فى وقت لاحق.

انتهت من تبرجها الغالب عليه الطابع الأحمر بالإضافة إلى شقرتها المميزة، واتجهت لتضع حذاءَها الأحمر وخرجت من باب غرفتها متجهةً نحو مكان الاستقبال في شقتهم الفاخرة، حيث تمت إضافةُ الزينة التي أشرفت والدتها مع الخدم على وضعها مما أعطى بهجة للمكان وبعض البالونات بألوان زاهية فى جميع الأماكن بجانب الشمع، حتى عند المذياع الذى يقارب ارتفاعه من الأرض مترًا ونصف المتر، بنيِّ اللون الذى يمكن تغيير استقبال إشارته عن طريق يده السوداء ذات اللون اللامع، وأخرى لتعلية الصوت وخفضه بنفس الطريقة، وعلى منضدة الطعام الفاخرة فى الجانب المواجه للمذياع يوجد العديد من أنواع الأطعمة من المعجنات وبعض المشروبات الفاخرة، بالإضافة إلى عدة زجاجات من نبيذ "شاتولاتو" الفرنسيِّ المميز من أجل والدها وأصدقائه المهمين بالإضافة إلى زجاجتين من " الفودكا " الروسية البيضاء والعديد من الأطباق الخزفية وكؤوس الخمر الناصعة النظافة الموضوعة فوق بعضهما البعض على شكلٍ هرميٍّ مما أضاف رونقًا لها لم تره من قبل، واتجهت نحو الخادمة المرتدية اللون

الأبيض وسألت عن والدتها فأجابتها بأنها بالغرفة المجاورة.

اتجهت نحو الغرفة المجاورة لتجد والدتها وهى جالسة على كرسيٍّ خشبيّ أمام منضدة توجد عليها شمعتان وكأس من النبيذ ورغيف من خبز "الشالا" المقدَّس والمكون من القمح والشعير والشوفان الذي ترجع أصوله لفترة ما قبل خروج اليهود من مصر الفرعونية مع النبيِّ موسى، وقفت "بارا" ساكنة احترامًا للشعائر الدينية ، ولم ترد أن تتحدث لوالدتها إلا بعد انتهاء الشعائر.

قامت الأم التي تضع وشاحًا فوق شعرها بإشعال شمعتين، وبدأت بتلويح يدها إلى الشمعتين، وبعدها وضعت يديها أمام عينيها حتى بالكاد أنها أصبحت ترى، وبعدما أبعدتهما بدأت بترديد التبارك على الشمعة وهى خاشعة:

-"مبارك أنت، إلهنا، ربنا، ملك الكون الذى قدسنا مع واصاياه، وقادنا إلى النور، أنوار السبت" آمين

رددت كل من "بارا" ووالدتها "فيالا" فى خشوع مغمضتين أعينهما، ثم نظرت والدتها ذات الأربعين عاما إليها، الشبيهة بـ"بارا"، لكن ليس بدرجة الشبه بجدتها فلون الأعين مختلف، حيث تميل عين "فيالا" للون الأخضر الفاتح، وقالت لها وهى تخلع الوشاح الأبيض من على رأسها :

- الاحتفال بعيد مولدك لا يمنع صلاة قدوم السبت.

ردت "بارا" غير مكترثة:

- متى سيأتى المدعوون؟

- ربما بعدَ قليل.

- سأبقى فى غرفتي أطالع بعض الكتب حتى يأتي عدد مناسب من الحضور، بعدها أظهر على الملأ، فاليوم أنا الملكة المتوجة.

وبعد قليل أخذ المدعوون فى الحضور إلى المنزل، مهنئين أو طالبين التقرب، من هذا الرجل الثريِّ... وكانت من أوائل الحاضرين "ادينا" صديقة "بارا" الكاثوليكية وزميلة دراستها، ومن أشارت لها بالاستمتاع بالفاكهة المحرمة، ذات الشعر الأسود وعينيها السوداوتين، وبشرتها البيضاء، مرتدية معطفًا باللون الزهريِّ، عليها قطعة من الفراء حول عنقها، أبيض اللون، وعندما خلعت المعطف ظهر فستانها ذو اللون الزهريِّ والأبيض مكشوف الصدر موضحًا الفراغ فيما بين نهديها، قصير يبرز جمال ساقيها الناعمتين، وحول عنقها رابطة على شكل عقدة

مزدوجة من نفس اللون، دخلت إلى غرفة "بارا" مباشرة وهنأتها وقدمت لها الهدية الملونة، وبعدها استقدمتها للخارج حيث كان الجميع فى انتظارها.

كان والد "بارا" جالسًا مع اثنين من أصدقائه فى البهو الأيسر من الشقة، أحدهما يرتدي زيًّا عسكريًّا ذو رتبة عالية، والآخر يرتدي بزة سوداء أنيقة يعلوها سلسلة ذهبية متدلية من الجزء الأيسر الأعلى للبزة إلى جيبه الأيسر، معطية شكلاً برَّاقًا متماشيا مع البزة الداكنة، أما والد "بارا" فكان يشعل غيلونه بأعواد الثقاب من حين لآخر.

وعلى المنضدة الصغيرة التي أمامهم ثلاثُة كؤوسٍ من النبيذ ذي اللون الأحمر الداكن.

التقط الرجلُ العسكريُّ أحدَ الكؤوس وقربه من أنفه يشم رائحته ثم ارتشف قليلاً منه وأخذ يوجه الكلام لوالد "بارا" :

- "نوفاك"، أفضل أنواع النبيذ أتذوقها لديك

ابتسم والدها وهو يدخن غليونه وقال:

- أفضل الأشياء أقدمها لأفضل الأصدقاء

وقال الرجل ذو القلادة الذهبية:

- أتعتقدون أن الاجتماع الذي سيُعقد فى نهاية الشهر الحالي لزعماء أوربا سيؤدي إلى شيءٍ؟

ابتسم الرجلُ العسكريُّ وهو يتفاخرُ قائلاً :

- مجرد اجتماع شكليٍّ لهؤلاء الداعرين، فإقليم "السودتلاند" جزء لا يتجزأ من "تشيكوسلوفكيا".

وقال "نوفاك" بنرةٍ يائسةٍ :

- لن يتركنا "هتلر" فى سلام، هذا ما أؤكده لك.

فرد الرجلُ العسكريُّ بحزم :

- يستطيع أن يفعل ذلك مع اليهود الألمان أما نحن فلن نسمح.

- ربما تحمل الأيامُ القادمةُ العديدَ من التغيرات.

قاطعَ حديثَ "نوفاك" قدومُ "فيالا" وهي مرتدية فستانًا أسودَ اللون مرصع ببعض الخيوط اللامعة فرنسيِّ الصنع وردت:

- ربما حان الوقت للانتهاء من الكلام فى السياسة والانضمام إلينا لنحتفل.

ردَّ الرجلُ ذو القلادة الذهبية مجاملاً :

- رؤيتك سيدة "نوفاك سيمكوفا" هي الاحتفال الحقيقيُّ.

بينما نظر الرجلُ العسكريُّ فى امتنان أثناءَ قيامِه وارتدائِه لقبعته العسكريَّة، ومن بعده "نوفاك" إلى الجزء المخصص للاحتفال في الجانب الآخر من الشقة.

وبعد أن توسطت "بارا" الجميع أمام الكعكة ذات السبعة عشرة شمعة عددَ سنواتها وسط جميع الحاضرين ثم أطفأت الشمع، وهنأها الجميع، وأعطوها الهدايا الملونة، اتجهت صديقتها "ادينا" إلى الجرامافون ذي سرعة ثلاثة وثلاثين وثلث دورة في الدقيقة، اتجهت إلى الجانب الأيسر حيث أخذت تتفحص الاسطوانات حتى اختارت واحدة بعناية وأخرجتها من غلافها الذي وضعنه جانبًا، ووضعت الاسطوانة فى المكان المخصص لها فى الجهاز ذي اللون الأسود، وبعدها بدأت الاسطوانة فى الدوران، ووضعت الجزء الحديديَّ عليها أثناء دورانها وبدأ الصوت في الارتفاع إنها أغنية "يا من مررت دون رؤيتي" للمطرب الفرنسيِّ الشهير "جان سالبون" الذي حصل على الجائزة الكبرى الفرنسية للموسيقى منذ عامين تقريبـًا، وبدأت فى التمايل والتراقص مستمتعة بنغماته الهادئة... ومع اندماجها بالموسيقى بدأت تتمايل بشكل مثير وكأنها تصل لنشوتها فى الفراش، وسط تصفيق حاد من الموجودين، وكأنها عازفة منفردة على كمان عذب.

كانت المرة الأولى التي يراها فيها والد "بارا" وهي ترقص، وبدأ ينظر إليها برؤية مختلفة، إنها لم تعد تلك الفتاة الصغير التي كان يقبلها مثل ابنته، بل أصبحت أنثى ناضجة كثمرة نضجت وثقلت على عودها، وتفحص جسدها المتراقص ونظر إلى نهديها مقارنًا إياهم بما تمتلكه زوجته التي تخطت الأربعين بقليل، إنها مقارنة ظالمة لها تمامًا بالرغم من خدمتها له كل تلك السنوات، وجد فى المراهقة اللذة المحرمة بخصرها النحيف الذى يتمايل مع الأنغام الهادئة ويعطي لها سحرًا وحيويَّـةً، كما أرادها بشدة كي تطفئ شهوته ويريها خبرة السنوات التي يمتلكها، وأخرج الدخان من أنفه بقوة وكأنه يخرج تلك الأفكار الشيطانية من داخله، إنها فى سنِّ ابنته بالإضافة إلى كونها صديقته بالرغم من إثارتها، ونظر إليها مرة أخيرة قبل انتهاء الأغنية وهي تتمايل، ثم قام الجميع بالتصفيق وتوالى الحفل.

* * *

"تشيكيا" هى الجزء الغربيُّ من دولة "تشيكوسلوفكيا" التي أسس الاتحاد بين دولتي "تشيكيا" و "سلوفاكيا" فى عام 1918 ووجدت على أنقاض دول تاريخية قديمة مثل: "بوهيميا" و "مروفيا" و "سيلسيا" وهى الأقاليم الرئيسية بالبلاد... وكانت جزءًا من إمبراطورية "هايسبرج" في القرون الوسطى، و "بوهيميا" إقليم حبيس وسط أوربا، ولا يوجد فرق فى اللغة التشيكية بين كلمتي "بوهيمي" و "تشيكي"، والغريب أن الفرنسيين فى القرن التاسع عشر قد اختاروا اسما لمذهب الحياة غير التقليديِّ أو الفوضويِّ بـ "البوهيميِّ"، حيث اعتقدوا أنَّ الغجرَ الرحلَ الفوضاويينَ قادمونَ من إقليمِ "بوهيميا" الشرقيِّ، غالبًا ما كانت تطلق كلمة "بوهيميِّ" على الفنانين.

"براغ" مكان مميز للغاية بالنسبة لليهود فى القرن السابع عشر كان بمثابة الفترة الذهبية للمجتمع اليهوديِّ حيث وصلَ التعداد ما يقارب خمسةَ عشر ألفَ يهوديٍّ، مكونين نسبة تُقاربَ ثلثَ السكان لـ "براغ" كاملة، مكونين أكبر مجتمع يهوديٍّ اشكينازي لأوربا كاملة، وتعد النقطة السوداء فى تاريخ اليهود هي طردهم من "براغ" على يد "ماريا تريزا" إمبراطورة النمسا، حيث كانت "براغ" منتمية إلى الإمبراطورية النمساوية العظمى فى فترة الأربعينيات فى القرن التاسع عشر، بسبب تواطؤ اليهود مع جيشٍ مُعتَـدٍ، وبعد ثلاثِ سنواتٍ أمرت بالسماح لهم بالرجوع فى حارة اليهود "جوساف" بجانب البلدة القديمة.

وفى عام 1935 وبعد إصدار قوانين محكمة "نيورمبرج" الألمانية المسماة بقوانين حماية الدم والشرف الألمانيِّ التي نصت على منع الاختلاط الجنسيِّ بين اليهود والمواطنين الألمان فى الإطار الشرعيِّ أو غيره، ومنعهم من تأدية التحية للعلم النازيِّ، فر العديد من يهود ألمانيا والنمسا إلى "براغ" القريبة الآمنة نسبيًّا، حتى إن تعداد اللاجيئن اليهود من ألمانيا والنمسا زاد على ما يقارب 120 ألفًا فى "بوهيميا" و "مروفيا"، فأي قانون هذا لأيِّ نوع من الشرف..؟

كان هناك العديد من الاحتجاجات اليهودية على ألمانيا النازية، حتى إن الرياضيين اليهود رفضوا المشاركة فى الألعاب الأوليمبية التي أقيمت فى "برلين" فى العام التالِ لإصدار القوانين، أما بالنسبة ليهود ما قبل قوانين "نيورمبرج"، كان جزءٌ كبيرٌ منهم مواطنين أصليين، لكن بعد الكساد العظيم فى نهاية العشرينيات وبداية الثلاثينيات، لجأ العديد من يهود أوربا الشرقية إلى "تشكوسلوفكيا" فى طريقهم إلى "ألمانيا" المزدهرة، لكن بعد أن اعتلى هتلر السلطة 1933 فضل العديد منهم البقاء في "بوهيميا" و "سليسيا" بالبقاء في أماكنهم المؤقتة، جاعلين منها إقامة دائمة فما أسوأ تدمير الآمال وانتظار المجهول.

* * *

بعد خروجهم من المدرسة المجاورة للبلدة القديمة قررت كلٌّ من "بارا" و "ادينا" عدم ركوب الترام الأحمر المتجه جنوبًا لشارع "كارلوفا" الذي تقطن به "بارا" واختارا التمشية في البلدة القديمة، ليصلا بعدها إلى مشارف نهر "فلتافا"، ومنه يتجهان جنوبًا نحو منزليهما، عبرتا بشكل عرضيٍّ الشارعَ متجهتين نحو بائع المثلجات صاحب العربة الخشبية المزينة بالأبيضٍ والأحمر وابتاعا منه بعضَ المثلجات وأكملا السير إلى نهاية الطريق حيث يوجد النهر.

كانتا مرتديتين ملابسهما المدرسية الكاثوليكية ذات اللون البُنـيِّ ، إلا أن ملابس "ادينا" كانت ضيقة بعض الشئ لتبرز مفاتنها، ونظرت "بارا" إلى النهر الذى تعشقه وعلى شفتيها ابتسامةٌ عذبةٌ وقالت:

- ربما النهر هو الشيءُ الأسمى في الخليقة.

فردَّت "ادينا" مستنكرة :

- الشيءُ الأسمى في الخليقة هو المتعة، الحياة غالبًا ما تكون قصيرة.

أكملت "بارا" قائلة:

- النهر يأتي كل يوم لنا بالخير، بالرغم مما نلقيه فيه، إنه الرحمة في مقابل الغدر، والكرم الدائم، والحب المطلق.

فضحكت "ادينا" بصوت مسموع مستهزئة:

- حب للنهر، حدثيني عن ذلك، الحب لا يكون إلا في فراش ملتهب، وبشكل جيد أيضا، فالحب هو إشباع الرغبة، مهما كانت المتطلبات أو التنازلات.

ونظرت "ادينا" إلى النهر متأملة مياهه الزرقاء قائلة:

- ماذا تعتقدين أنكِ تعلمتِ فى مدرسة كاثوليكية، وأنتِ يهوديةٌ ، كيف تنظرين إلى التعاليم الكابتة للحرية، لتنالي جائزةً لم يرها أو يعلم مكانها أحد.

فكرت "بارا" لبرهة، ووجدت جزءًا من كلامها قد يكون صحيحًا وربما يكون منطقيًّا، لكنها نشأت نشأة يهودية متدينة وصلواتها متعددة، ولا يجب أن تفكر فيما هو أوسع من مداركها وقالت:

- ربما، لكنني أعشق النهر على أية حال.

حينما وصلتا -"بارا" و "ادينا" - لبداية الشارع الذي تسكن فيه "بارا" افترقتا عن بعضهما، وانتظرت "بارا" حتى تعبر "ادينا" الجسر إلى الجهة الأخرى من النهر، وعندها لوحت بيدها لها لتوديعها، إنهما الآن على جهتين مختلفتين من نهر

واحد، يصل بينهما عدة جسور، فما الحكمة في افتراقهما وقربهما في نفس الوقت عبر حاجز مائيٍّ يمكن عبوره عبر عدة طرق، سوت "بارا" من حقيبتها على كتفها، واتجهت صوب الشارع الذي تسكن به، كان على بداية الشارع يقف شاب ذو شعر أسود مصفف من تحت قبعته البنية اللون، وشاربه المنمق إنه "فرانز" الصديق العاشق، إنه الخطيئة، لكن الخطيئة يمكن تداركها، ولا ينطبق الأمر على الحب.

هزت رأسها إليه وابتسمت، إنها العلامة السرية بينهما على موافقتها على سيره خلفها، ومشت بشكل فيه رعونة أمامه، الأمر الذى زاد من أنوثتها، وفجر أنهار الرجولة بداخله، وقبل منزلها ببنايتين دخلت البناية منخفضة الإضاءة، ولم تصعد درج السلم، لكنها مرت بجانبه ودخلت إلى الغرفة الصغيرة المظلمة وأغلقت الباب خلفها بإحكام، بعدها مرت بيدها على شعرها لتعدل من تصفيفه، فهو يهوديٌّ متدين، يواظب على التردد على المعبد أيام السبت، بالإضافة إلى وسامته وحبه لها، لكن السبب في رفضها الإعلان عن ذلك هو سنها الصغير وخوفها من والدها ذي النفوذ والمال، لرفض ذلك الشاب متوسطِ الدخلِ، ذي المستقبل غيرِ المعلوم.

وبعد لحظات من دخولها... دخل هو...ورفع من على الأرضِ المصباح المضاء بالوقود... وأغلق الباب خلفه... وأبعد الجزء الزجاجيَّ عنه محاولاً إشعاله بعود من الثقاب، رفض أن يشتعل، كرر المحاولة بآخر، وأول ما ظهر كانت عيناها على ضوء اللهب البسيط... لونهما مختلفٌ هذه المرة ... كانتا مبتسمتين، لكنها فجاة حولت الابتسامة العذبة إلى صرامة لتظهر غضبها منهن أمسكها من يدها وسحبها فى اتجاه الأرض وجلسا، ووضع المصباح جانبًا، ثم اتجة بيده الي خدها الأيسر ليتحسس ملمسها وحرك يده إلى شعرها ليحركه خلف أذنيها قائلا لها بحنوٍّ:

- لم أستطع أن أراك أمس بسبب عدم وجودي فى البلدة.

قالت بنبرة غاضبة:

- لكنك تعلم أنه ذكرى مولدي.

حاول التخفيف من غضبها قائلا:

- حبيبتي، العمل هو ما سيوفر لي الرونق المناسب لطلب الزواج منكِ.

حاولت "بارا" الردَّ، فاسرع بوضع يده على فمها مكملا:

- لقد صليت من أجل أن تكوني سعيدة، وهذا أهم.

ووضع يده حولها، واحتضنها بشدة، واتجه بيده وجزء من جسده إلى الركن المقابل من الغرفة، وأخذ صندوقًا ملوَّنًا وأعطاه إياها، ووضع يده حولها قائلا لها وهو يحاول إضحاكها:

- بعد أعوام قلائل سنحتفل بهذه المناسبة فى بيتنا.

ظهر الرضا على ابتسامتها، وأكمل:

- كلَّ عام وأنتِ بخير يا "بارا".

بعدها اعتصر شفتيها فى قبلة استمرت برهة من الزمن، لكنها بالنسبة لهما تعتبر سنوات.

* * *

الإسكندرية 1941

لقد شعرت السيدة "منال" بحرج كبير، بسبب ما فعلته ابنتها الوحيدة "سارة"، فلجوؤها إلى السيدة "ماريز" يعني أن هناك ثمة خطأ في العلاقة بينهما، فبالرغم من تقديرها للسيدة اليونانية، واعتبارها جزءًا من المعارف المقربين، إلا أنه كان يجب على ابنتها إخبارها بما حدث بشكل مباشر وفوريٍّ، حيث تعتبر نفسها إلى حد كبير المسئول الرئيسيَّ للبيت فى ظل الغيابات المتعددة لوالد "سارة"، فتساهلها مع الفتاة في هذه السن الحرجة ربما يكون له تبعات غير محدودة في المستقبل، فالفتاة يجب أن تكون واجهة مشرفة للأسرة، حيث ربما سيقع اختيار أحد النبلاء أو المقربين من القصر عليها... ولم لا... فهى جميلة للغاية وورثت عن جدتها الإنجليزية ذات الأصول الأرستقراطية مظهرها حتى شعرها الأحمر، ربما القليل من تعاليها، وهى تتعلم في أفضل المدارس الإنجليزية للبنات بـ"الإسكندرية" (المدرسة الإنجليزية للبنات) حتى أنه يقال إن ملك اليونان اللاجئ قد ألحق ابنته بنفس المدرسة، ووالدها يتفانى في خدمة التاج الملكيِّ عن طريق عمله فى الأسطول البحرى كقبطان للباخرة "المعزة" ذات الشهرة الواسعة، فالمستقبل مبهر بالنسبة لها، والحياة مجموعة من الخيارات الصحيحة، وقد جلبت لها العديد من المدرسين لقواعد اللياقة والموسيقى التي تحاول إجادتها عن طريق دروسها نصف الأسبوعية على يد أحد الأساتذة الإنجليز .

حتى لغتها الإنجليزية جيدة للغاية و تتحسن يومًا بعدَ الآخر، فلِمَ لا، ربما أرادت السيدةُ "منال" أن تجعل من "سارة" الجزء الأكبر في أحلامها المؤجلة ، فبداخلها يقين أن "سارة" ولدت لتعيش في أحد القصور الملكية، كأميرة و ليست كوصيفة و دائمًا ما كان تمنيها لحياة أفضل للصغيرة هو الدافع الرئيسيُّ للصرامة ،ففي قناعتها الشخصية أنها تعرف مستقبل ابنتها بشكل أفضل من الصغيرة ... وتذكرت كيف كان أول لقاء بينها وبين والد "سارة" القبطان "مصطفى شعراوى" فقد رأته في أول مرة وهو لا يزال ضابطًا صغيرًا مرتديًا بزته البيضاء الملاحية، وكان أكثر ما يميز شكله هو عيونه التي تشبه إلى حد كبير عيون "سارة" وشعره الأسود، وغليونه دائمَ الوجود بين يديه، توقعت في البداية بأن يكون ضابطًا في البحرية البريطانية، وأتى إلى الحفلة الثانوية لنادي اليخت، كجزء من تقاليد البحرية البريطانية في مستعمراتها، كانت جالسة مع والدتها... تتذكر ذلك إلى حد كبير، على إحدى المناضد المواجهة لساحة الرقص، وبعد أن بدأت الموسيقى في العزف اتجه إليها الضابط الوسيم وقبّـل يدها ودعاها للرقص، كل ما تتذكره هو نظرته لها بعد أن قبل يدها، نظرت بعدها إلى والدتها فمالت برأسها إلى الأمام دليل الموافقة، فقامت الحسناء بفستانها الأسود على طراز أواسط القرن التاسع عشر وهى ترهب الموقف إلى حد كبير، لقد

راقصت العديد من قبل، لكن يبدو أنه مختلف، أحست أنها تمشي على السحاب وهو ممسك بيدها الحامي لها القفاز الأبيض حتى وصلت إلى ساحة الرقص ووقف أمامها ووضع يده على خصرها وأمسك بالأخرى يدها وبدأ بالحركة متناغمًا مع الموسيقى، لم تشعر بشيء سوى ذلك الوهج القادم من عينيه، وبدأ بالتحدث وأخبرها باسمه، فلاحظ ابتسامةً على وجهها، وعندما سألها أجابت، أنها توقعته أجنبيا، وبعدها أكد لها اختلاط الدم بعروقه فوالده مصريٌّ ووالدته إنجليزية، وتراقصا حتى النهاية، وبعدها جرت قصة الحب الكلاسيكية المعتادة، ثم خطبها وتم الزفاف... الحياة مجرد مواقف متشابهة للغاية.

كانت سارة ووالدتها تسيران في اتجاه البيت الذي وصفته لها الصغيرة من قبل، لكن لماذا لم تخبرها بما حدث من قبل، فربما قد أصاب ذلك الفتى مكروه، وكان يجب على "سارة" مخاطبتها بشكل مباشر، وقفت السيدة وابنتها أمام البناية إيطالية التصميم المكونة من أربعة طوابق، ويوجد على الزاوية المجمعة للواجهة والجانب شكل أشبه ببرواز بطول البناية، مع تساوي النوافذِ بعدد 6 فى الواجهة وثلاثة فى الجانب، إنها قريبة الشبه للغاية من بنايتها، ربما لا تبعد سوى خمس أو ستّ دقائق على أقصى تقدير.

صعدت السيدة التي ترتدي فستانا ذا لون كحليّ وعلى رأسها قبعة صغيرة من نفس اللون على الطراز الفرنسيِّ منسدلاً منها قماش قصير على شكل شباك أسود اللون متسع الفتحات إلى ما يقرب من منتصف وجهها، ونظرت إلى ابنتها الحاملة مجموعة من الزهور التي تحيط بها شريط أبيض، ووصلتا أمام باب الشقة المكتوب عليها بحروف ذهبية اسم والد "يوسف" وامتنت كثيرًا من وجود كلمة "بك" في أوسطه، وطرقت على الباب بيدها بعد أن تأكدت بأن الساعة الرابعة، إنه الميعاد الصحيح للقاء، فبسبب عدم معرفتها لرقم الهاتف بعثت أمس الخادمة لتخطرهم بالزيارة في هذا الميعاد بالتحديد بعد موافقة الآنسة "هيلين" التي كانت موجودة بالمنزل وأخبرت السيد "حكيم" وابنته "ارينا" بالزيارة.

بالفعل طرقت الباب وبعدها فتحت السيدة ذات الأربعين عاما أجنبية الشكل الباب ورحبت بهما، ودخلا إلى البهو المخصص لاستقبال الضيوف، وطلبت منهما الجلوس، وبعد سؤالهما عن مشروباتهما المفضلة، اختارت السيدة القهوة ، بينما امتنعت الصغيرة عن الطلب، واتجهت بعدها الآنسة "هيلين" إلى الداخل، تفحصت بعدها السيدة المكان ووجدت به المظهر الفخم، فيبدو أن المنضدة المخصصة للطعام إنجليزية الصنع، بالإضافة إلى ذلك البيانو الخشبيِّ الصغير مُتفانِ الإتقانِ، وعليه بعضُ النقوش الغائرة على أشكال أغصان، لكن أكثر ما شد انتباهها هو الشمعدان السباعيُّ بجانب المنضدة... إنهم يهود إذًا...

وبعد فترة قصيرة ظهر السيد "حكيم" مرتديًا معطفًا حريريًا مخصصاً للمنزل فوق بزته الرمادية، وتقدم إلى السيدة يسلم عليها وعلى الفتاة الصغيرة واعتذر بسبب عدم وجود سيدة في المنزل لاستقبالهما بسبب وفاتها، وبعدها تبادلوا التعارف، وكان من الغريب أنها زبونة دائمة لمتجره، فما كان منه إلا أن طالبها أن تتأتي وتعتبر ما يملكه المتجر هو جزء بسيط من ممتلكاتها الخاصة، وبعدها نظر إلى الفتاة الصغيرة وتفحص جمالها قائلا في نفسه ربما لم تكن هناك مشاكل مع ولده في المستقبل مع الجنس الآخر على الإطلاق، فهي جميلة للغاية، واستطاع الصغير أن يبهرها وبدأ بالحديث للفتاة الصغيرة باسمًا:

- هل القطُّ بخير ؟

فردَّت الفتاة بابتسامه خجلة، وبعدها طلبت السيدة رؤية الصغير، فوقف السيد "حكيم" وأشار إليها إلى الطريق المُؤَدِّ إلى الغرفة، وأمر الآنسة "هيلين" أن تكون بصحبتهما إلى الغرفة فمن غير اللائق تواجده معهنَّ في غرفة نوم الصغير، أشارت الآنسة "هيلين" إلى الغرفة وطرقت الباب، لكن أحدًا لم يرد، فعرفت أن الفتى نائم، بعدها فتحت الباب ببطئ وأضاءت الأنوار وأشارت إليها بالدخول فتقدما.

الضوء المفاجئ أيقظ "يوسف" من نومه وبمجرد أن فتح عينيه وقع نظره على الفتاة الصغيرة الحاملة للورود، نظراته كانت مشوشة نتيجة عدم إفاقته الكاملة بالإضافة إلى الإضاءة المبهرة، جمع قواه لفتح عينيه، ربما كان لا يزال يحلم، ونظر إليها بشكل مباشر وهى تبتسم له... استجمع قواه وأخذ يفكر بأن هذا ليس حلمًا لكنه واقع، فنظر إليها وقال بصوت يشوبه بداية اليقظة من النوم قائلا:

- الفرنسية.

ابتسمت له وقالت:

- لست فرنسية، من ادعى ذلك؟

استجمع بعدها الصور كاملة للسيدة التي بجانبه ونظر إليها جيدًا، بعدها طلبت منهما الآنسة "هيلين" أن يجلسا على الكرسيين المواجهين للسرير الذي اعتادت "ارينا" أن تحيك الخيوط عليه بعدها اتجها للجلوس، وفى طريق الفتاة إلى الكرسيِّ لم ترَ سوى ذلك الجرح فى الجانب العلوي الأيسر من مقدمة رأسه والضمادات التي يكسوها اللون الأحمر ربما بسبب الدماء أو بسبب المطهرات... هو أيضا لم يصل إلى مرحلة الاستيعاب الكامل للموقف، فمن أتى بها وكيف عرفت مكانه؟ كل هذه الأسئلة جالت بخاطره، وبعدها لم يعرف ماذا يقول مكتفيًا بالنظر إلى الفتاة، بعدها بدأت السيدة في الحديث وقالت:

- ربما شجاعتك، ستصنع لك المشاكل في المستقبل.

ابتسم الفتى وأكملت السيدة:

- لقد ظللنا فترة طويلة نبحث عن مكانه.

بعدها قامت "سارة" من على كرسيها متداركة عدم تقديم الورود لـ "يوسف" بعد، واتجهت صوب مكانه، حيث كان قد اعتدل في منتصف السرير وجلس بشكل رأسيٍّ وقدمت له الورود، وبعدها اتجهت صوب الجرح تتفحصه بعينيها وبداخلها سعادةً غريبة كل هذا من أجلي، هذا ما كانت تفكر فيه، فبدأ "يوسف" بالحديث متسائلاً بابتسامة:

- ما اسمُكِ؟

فأجابت:

- "سارة"

وبعدها سألها عن القط، وكيف حاله ؟ وما السبب فى تربية القطط إذا كانوا يجبرونها على الخوف منهم إلى هذه الدرجة، وابتسم الجميع، بعدها أحست الأم أنها يتوجب عليها الكلام، فسألته عن دراسته وبعدها استطرقت الحديث عن البيانو الموجود بالخارج، وقالت بأن "سارة" قد بدأت دروسًا تعليميَّة منذ صغرها للموسيقى وأن مدرس الإنجليزي يأتي لتعليمها.

هنا أيقن الفتى الصغير أنها قد تكون فرصة مناسبة لرؤية الفتاة مرة أخرى على أقل تقدير أو بشكل منتظم، وأثناء حديث السيدة قاطع السيدة وقال لها بجرأة يحسد عليها:

- سيدتي... إنني أعشق الموسيقى... وأرجو منك التكرم بالموافقة على مشاركتي "سارة" لدروس البيانو.

استغربت السيدة من شجاعة الولد الصغير ولباقته، فما كان منها إلا أن ضحت وأجابت بالموافقة.

* * *

كانت الساعة الرابعة والنصف عصرًا هى الموعد المحدد الذي يلتقي به السيد "حكيم" بأصدقائه بمقهى "البُـنّ البرازيليّ" بشارع "سعد زغلول"، الحياة بالنسبة له لم تعد مثل سابق عهدها، حتى لقائه بأصدقائه لم يعد مثلما كان بشكل شبه يوميٍّ، وأصبح الانهماك فى مصاعب الحياة هو السمة المشتركة

بينهما، لا يزال يتذكر وهو فى مراحل الشباب "عبد الجواد محسن"، و "عدلى غطاس" والإيطالي "انزو" الذى يتحدث العربية بإجادة لكن بالرغم من وجوده بـ "الإسكندرية" ما يقارب الأربعين عاما، إلا أن لكنته ما زالت بها بعض العثرات، وما كان غريبًا بالنسبة لـ "انزو" لهم فى البداية هو طباعه حيث إنها مزيجٌ بين عدم الحياء وخفة الظل والصدق المطلق في وقت واحد، بالإضافة إلى لسانه السليط بين الإباحية العربية والإيطالية بشكل يدعو للضحك في كثير من الأحيان، ولا يجد خجلا بالحديث عن علاقاته الجنسية وأدائه فى جميع الأحيان، حتى إنه عندما كان يكتئب أو يبقى صامتًا على غير عادته يعرف الجميع من كثرة التجارب أن السبب الرئيسيَّ هو عدم رضاه التام عما قام به فى الليلة السابقة، والعكس صحيح فحينما يكون سعيدًا بشكل مبالغ فيه غالبا ما يكون السبب علاقة جيدة للغاية من وجهة نظره، فعشيقاته متعددات ومن جميع الطبقات الاجتماعية، وعلى الرغم من زواجه فى سن متأخرة قاربت على الخامسة والثلاثين إلا أنه لا يزال حتى فترة قصير مستمتعا بما منحه الله من متعة جسدية، بالإضافة إلى عشقه للموسيقى وإجادته الرقص في أيام شبابه التي ولت.

أما السيد "عبد الجواد" فهو مسلم ومتدين إلى حد كبير، يعمل بتجارة الأقمشة بشارع "محرم بك"، وكان من الصعب على أصدقائه إقناعه بالعدول عن ارتداء الجلباب والعمامة، بسبب مستواه الاجتماعيِّ الجيد، وبعد مُضيِّ العديد من السنوات اقتنع بأن الوقت لم يعد وقت العمامةَ وأصبح من المهمِ للغاية بالنسبة له ارتداء البزة أو الملابس "الإفرنجية" كما يسميها، وبالرغم من مواظبته عى أداء الصلوات بشكل دائم إلا أنه لا يجد حرجا في أصدقائه المخالفين لدينه , و عند تقديمهم له بعد المشروبات الكحولية أو النبيذ يقابل طلبهم بالرفض المطلق، وفى إحدى المرات اتفق "انزو" مع النادل بأن يضع له بعضا من الفوديكا مع البرتقال، وبالفعل بدأ فى شربه وأحس بلذعة كبيرة في البداية لكنه أقنعه بأن البرتقال ربما يحمل بعض اللذوعةِ بسبب عصره منذ الصباح وبالفعل شرب حتى أحس بأن رأسه بدأت بالدوران، بعدها بفترة بسيطة بدأ مفعول الشراب المنعش، و بدأ بالكلام بتلعثم، وبدأ يفصح عما بداخله من أسرار حتى ما يخص منها زوجته السيدة الريفية البسيطة، وبدأ بالتحرر من القيود لأفكاره ومعتقداته، وبعد إفاقته كانت هناك مشادة بينه وبين "انزو" انتهت بالقطيعة التامة لعدة أشهر ، بعد اتهامه بأنه سيكون سببا رئيسيًّا لدخوله النار بسبب إجباره على شرب الخمر المحرمة لدى المسلمين، وبعدها ما كان منه إلا أنه ذهب إلى مسجد "سيدي المرسي" وقام بافتداء عجلين حتى يحاول أن

يغفر الله من فعلته التي ستحرمه من تقبل صلاته لمدة أربعين يوما، وبالرغم مما فعل إلا أن بداخله كانت نشوة التجربة واللذة المطلقة لكن هذا لا يمنع أن التوبة عن الذنب أمر واجب، لكنها على كل حال متعة لم يعرفها من ذى قبل.

كان السبب وراء المصالحة بعد عناء هو أذكى أصدقائهم السيد "عدلى"، فهو قبطيٌّ وله معتقداته التي تكون جزءًا من مفهوم وجوده، لكنه لم يصطدم بأحد على الإطلاق على الرغم من اتفاقه مع البعض واختلافه أيضا مع البعض، فهو يعمل بالبورصة , والمجازفة أمر محسوب لكن هذا لا يمنع المخاطرة، وفي نفس الوقت التأخر عن الخيارات الصحيحة ربما يسبب العديد من الخسائر، لذلك كان الورق لعبته المفضلة حيث يبني جسورًا من الثقة والاحترام الزائفين، مقنعا الآخرين بما لا يمتلك، وفي النهاية غالبا ما يفوز، الغريب في الأمر أن أربعتهم أصدقاء بالرغم من شبه الاختلاف التام لمعتقداتهم، والسبب الرئيسيُّ لتواصلهم هو الانشغال بالعمل الوطني ومقاومة الاحتلال، حيث كانوا جزءًا من المقاومة الطلابية أثناء شبابهم، ربما وجود هدف واحد لجميع الطوائف هو الدافع الأكبر لتنحية الخلافات جانبًا.

نظر السيد "حكيم" إلى ساعة معصمه الذهبية، ورأى أنها قد قاربت على الخامسة إلا الربع وهو أمام باب المقهى فدخل عبر الباب ذي الإطار الخشبيِّ المكتوب عليه "البنّ البرازيليّ" وتفحص بنظرة سريعة الديكور الخاص بالمقهى المكون من عدة مناضد بشكل يشبه رقعة الشطرنج المنتظم، وعليها المفارش المميزة للمكان بنية اللون التي تم طباعة الحروف الأولى من كلمة قهوة وبن باللغة الإنجليزية عليهما في إطار ذي شكل دائري، وعلى أقصى اليمين في الجانب الخلفي من البار الذي توجد أمامه كراسٍ دائرية الشكل ذات طول مرتفعٍ نسبيا، مواجهة للماكينة البخارية المخصصة لصنع القهوة، بالإضافة إلى العديد من أنواع القهوة الموجودة داخل إطارات زجاجية مثبتة على الحائط وفي أسفل كل منهما محبس صغير لفتحها، وأكثر ما كان يميز المكان رائحة القهوة التي تم طحنها حديثا، وصوت الموسيقى الهادئة التي غالبا ما تعمل بشكل مناسب مع إيقاع المكان.

اقترب منه النادل الذى يرتدي بزة بيضاء ورابطة عنق سوداء وألقى التحية مُرَحِّبا به وسأله لماذا لم يأتِ في الأسبوع الماضي مع رفاقه كعادته، فأجابه بوجود بعض الأعمال الهامة، فأشار إليه أن الجميع أتوا وجلسوا على منضدتهم الخاصة بالجانب الأيمن، اتجه نحوهم في خطوات ثابتة لا يشوبها إلا بعض التعب والعناء من جهد اليوم، وكان السيد "عبد الجواد" كعادته في مشادَّة كلامية مع

"انزو"، وبمجرد قدومه صافحه الجميع بعد إلقاء التحية إليهم، كان السيد "عبد الجواد" لا يزال ينظر إلى "انزو" شذرا، فابتسم السيد "عدلي" وقال له بعد أن جلس:

- سأقص عليك ما حدث وأخبرنا برأيك.

وأكمل السيد "عدلي":

- اختلف "عبد الجواد" و "انزو" على الامتيازات الأجنبية، حيث أقر "عبد الجواد" بأن إلغائها هو الصواب، بينما أقر "انزو" بأنها هي الطريقة المثلى للاستثمار في "مصر".

فردَّ السيد "انزو" ضاحكًا محاولاً التخفيف من حدة الصراع:

- ربما لو ارتبطت الامتيازات الأجنبية بالنساء الأجنبيات لاختلفت وجهة نظر الجميع.

فضحك الجميع، لكن "عبد الجواد" أحس بأنه يجب عليه إهانة "انزو" بشكل مباشر بسبب وجوده كدخيل من وجهة نظره، وقال له بشكل مباشر:

- عندك حق، يا "خواجة".

وهنا جرت الدماء فى عروق الإيطالى ذي الأعين الزرقاء والشعر الأبيض، فهو يعرف أن كلمة "خواجة" أي الغريب في اللهجة المصرية المتداولة كنوع من الإهانة بالنسبة له، حيث إنه يعتبر نفسه مصريًّا مِئة بالمِئة، فلإن تقضي في مكان ما يزيد عن أربعين عاما حاملا همومه متأثرًا بأفراحه بالإضافة لولائك الكامل له، يصبح للمكان مُسمَّىً واحدٌ، وعلى الرغم من أن الجالية الإيطالية من أهم الجاليات بـ "الإسكندرية" إلا أنه يشعر بأنه فى وطنه، فردَّ عليه بقسوة وبلكنته الأجنبية المعتادة:

- لست "خواجة "، فأنا مصري خيرا منك.

فردَّ عليه "عبد الجواد":

- بل متمصرٌ، تحاول بلاده غزو مصر ليتحول الحكم من بريطاني إلى إيطالي.

حاول السيد "حكيم" و السيد "عدلى" التهدئة، بعد فترة من المشاحنات، فقرر "عبد الجواد" و "انزو" التوقف، فربما الحديث بينهما يشبه إلى حد كبير العقاب الأبدي، فلا داعٍ للمجادلة .

* * *

قبل الحرب العالمية الأولى كانت مصر تحت الولاية العثمانية وفكرة الاستقلال غير واردة على الخريطة السياسية فالشعب كان يعتبر نفسه جزءًا من العالم الإسلاميِّ ذي القوميات المتعددة، وبعد تصاعد العداء بين السلطان العثمانيِّ، وإعلان الحرب مع "انجلترا" متحالفا مع "ألمانيا" و "النمسا"، و بعد أن أعلنت بريطانيا الحماية على مصر 1814، وبعد انتهاء الحرب وهزيمة العثمانيين، حاول بعدها الوطنيون البحث عن سبل الاستقلال ومحاولة عرض القضية المصرية على العالم أجمع، بعدها تم نفي "سعد زغلول" بعد أن وكله الشعب للتفاوض باسم المصريين إلى جزيرة "مالطا" في محاولة منهم لإخماد المقاومة الوطنية، قامت ثورة 1919 ب، بعدها عاد من منفاه مظفرًا، وسافر مع وفد إلى "باريس" ولم يجد أى صدىً لطلباته لدى المجتمع الأوربيِّ، بعدها بسنوات تم إعلان دستور 1923 الذي يجعل من الأمة مصدرًا للسلطة، وفى عام 1935 غزت إيطاليا الحبشة وكان التوتر سائدًا لاحتمال قيام حرب عالمية، بعدها بعام تم الاتفاق على معاهدة الصداقة والتحالف بين "مصر" و "بريطانيا" التي نصت على الانتهاء من الاحتلال العسكريِّ ، وإلغاء الامتيازات الأجنبية، ومحاولة تقوية الجيش المصريِّ بالدرجة الكاملة التي تمكنه من الدفاع عن قناة السويس بمفرده، وحينها تجلو القوات البريطانية الحليفة.

وفى عام 1939 حاولت القوات الإيطالية دخول "مصر" عن طريق القدوم من الأراضي الصومالية، لكن الجيش البريطانيَّ استوقفها مما جعل اتجاهها يتغير إلى الغرب في اتجاه "ليبيا"، وتولى الجيش النازيُّ عاتق الاتجاه إلى الشرق.

* * *

مرت عدة أسابيع على طلب "يوسف" من السيدة "منال" أن يلتحق بدروس البيانو مع ابنتها "سارة"، لقد فكر مليا ما سبب ادعائه حب الموسيقى، ربما لديه اهتمامات أخرى مثل القراءة والرسم، لكن الموسيقى لم تكن وسط أولوياته ورجح تفكيره فإذا كانت الموسيقى هي التي ستجعله يرى "سارة" بشكل دوريٍّ فلِمَ لا، بالإضافة إلى أن السيد "ميلر" مدرس البيانو ليس سيئًا إلى حد كبير، فهو لا يحمل الصرامة الزائدة التي تمتلكها الآنسة "هيلين" بالإضافة إلى استخدامه مفردات لم يكن اعتاد على سماعها من قبل... اشعر، تخيل، استمتع، كلها مرادفات كانت جديدة بالنسبة له، لكنه حاول تفهمها

والتماسها بداخله وعلم أن لها مذاقا خاصًّا ورأى في أصابع السيد الإنجليزى راحة وسكون لم يعتد عليهما، ويوما بعد أخر أصبحت متعة الموسيقى بداخله، حتى أنه أثناء سيره وحيدًا، أو مع "جيمي" يتمتم ببعض الجمل اللحنية التي تعلمها من قبل، فالموسيقى هى أحد الدوافع الرئيسية في مفهوم البحث عن الذات لتستشعر من أنت؟... وتحاول فهم ذاتيتك، ترانيم تشعرك بوجود قوة أعظم، وتثير بداخلك الانفعالات المتداخلة المتباينة المختلفة المتشابهة، وتجعل من المتناقضات مزيجا يصعب وصفه، كجزء من بحث الإنسان عن الأسطورة التي يطمح لها، واختلاف أنواعها حسب اختلاف الثقافة والحالة النفسية والعاطفية أيضا... ربما هى نداء للآلهة والشياطين في نفس الوقت، وقد تكون من القلائل التي اجتمع عليها المتناقضان.

إضافة إلى استمتاعه الدائم بوجوده بجوارها، فـإن "سارة" بالرغم من تعاليها الظاهري إلى حد ما، تحمل قلبا طيبا للغاية وتحاول مساعدته بشتى الطرق لمحاولة فهم الموسيقى، فالشعور والفهم مزيجٌ لا يجب أن ينحصر ، كم أحسَّ بسعادة بالغة حينما كان يرى أناملها تتحسس أصابع البيانو، وكثيرا ما اختلس النظر إلى عينيها أثناء عزفها التي في أغلب الأوقات تكون مغلقتين، فهي تعزف لحنا من الخلود غير مرئيٍّ، تتمازج فيه النغمات لتصل لذروة الشعور بالاجتياح... ربما كان كل ذلك عبارة عن مجموعة من الأوهام بداخله، لكنه على الأقل أحب أن تتواجد هذه الأوهام بداخله.

تعلمَ شيئًا آخر... تعلم أن يعتاد أن يحب، فربما البراءة هي السبب أو انعدام التجربة، لكن بعد فترة وجيزة من معرفتها أيقن أنها أصبحت الجزء المضيء في حياته، الجزء الذى أشعره بأن هناك متعة لم يعتدها من قبل، ولكم أراد أن تستمر معه إلى الأبد، وذكاؤه الفطريُّ هداه إلى خدعة شيطانية، فأصبح دائم الحضور قبل موعد الدرس بما يقارب النصف ساعة، متعللا بعدم فهمه لبعض النغمات والرموز ليبقى فترة أطول مع "سارة"، بعدها يحاول تغيير مسار الحديث إلى ما هو عام وشائع ويحاول اختلاق وجود شيء مختلف عما هو نمطيٌّ، ساعده على ذلك أيضا إحساسه بالاستجابة من جانبها ، فبعد فترة قصيرة بدأ تعاليها وغطرستها بأن تضعف وتهوى، وبعد عدة مرات أصبحت ودودةً معه للغايةِ ، ربما السبب إعجابها به، أو شعورها بأنه المهتم الأول بها و الساعي الرئيسيُّ لإحساسها بالسعادة، أو كونها الآن أصبحت مرغوبة من الجنس الآخر بالرغم من صغر سنها، واعتادت هي الأخرى على عادات لم تكن تعرفها من قبل مثل الاهتمام البالغ بمظهرها، والعطور التي في أغلب الأوقات تستعيرها من والدتها ووقوفها لفترة أمام المرآة لتمشيط شعرها الأحمر، وبالرغم من الحزم الذي

تحاول أن تتمتع به وجدت في "يوسف" شيئًا مختلفًا، فهو ليس كـ "عاصم" ابن خالتها الذي يحاول استفزازها بشكل دائم، وإرهاب قطها... إنه مُسَالِمٌ معها إلى الغاية ودودٌ إلى حد كبير، يحاول إشعارها بكينونتها ويحاول دائما إضحاكها، ربما هو الإنسان الأول الذي يهتم بها بشكل مختلف، فهو ليس كوالديها الصارمين في أغلب الأحيان المحبين بعض الوقت غير المتفاهمين دائمًا، اهتمامه بها نما من رغبة لا تعلمها بعد، ربما هو أيضا.

ربما تأخر اليوم بعض الوقت للوصول إلى منزل "سارة" الساعة قاربت على الرابعة إلا ربع وهو لا يزال في الطريق القصير المؤدي إلى منزل الفتاة، وبدت خطواته في الشارع على الأرض التي تغمرها مياه الأمطار التي هطلت في الصباح مع تسارع خطواته علا صوتُ اصطدام قدميه بالأرض المبللة، ربما كان يجب عليه أن يصحو من قيلولته في وقت مبكر، وعلى الرغم من شبه اعتياده على الذهاب إليها إلا أنه لا يزال قلبه يخفق مضطربًا بشكل لم يعتد عليه لدى رؤيتها.

تخطى الباب الرئيسيَّ لمنزلها وصعد السلم، ووقف أما باب منزلها، ورتب من رابطة عنقه التي يرتديها ذات اللون الأبيض الذى تتخلله خطوطٌ عرضية خضراء اللون متماشية مع بزته الخضراء الداكنة وطرق على الباب مرة بعد الأخرى وهو في انتظار أن يُجِيبه أحدٌ وبداخله الرهبة التي اعتاد عليها، والتي لم يستطع التخلص منها بعد ... رهبة رؤيتها... وبعد لحظات مرت عليه طويلة بدأ الباب في التحرك وهو بداخله الشوق المتمادي في رؤيتها... وبعدها أحس بأن آماله قد خابت عند رؤيته الخادمة الريفية التي قابلته بابتسامه، حاول الرد بمثلها ثم دعته إلى الدخول بعدها اتجه مباشرة صوب البيانو جالسا إلى الكرسي الخشبي معدوم الظهر متفحصا الجزء العلوي من أصابع البيانو سوداءِ اللون البراقة، التي تعطيه رونقا مميزا وأخذ يفكر لماذا لم تفتح له "سارة" بنفسها الباب اليوم، ربما كانت مستاءة منه من حدث لا يعلمه، أو أنها أصبحت لا تحب تواجده على الإطلاق وهذه هي الإشارة له لكي يبتعد عنها بشكل نهائي وأخذ يتذكر الدرس الماضي، ربما لمحت نظراته لها وهي مغمضة العينين... لكن كيف؟ بدأ الخوف يسيطر عليه بشكل كبير وأخذ ينظر إلى أصابع البيانو بشكل عميق حتى إنه بعد لحظات من التفكير لم يكن يراها بشكل واضح، بعدها بلحظات وجد على الخلفية السوداء البراقة فوق أصابع البيانو ظلا يتحرك، فحاول النظر إليه

بتركيز ليحدد ما هو فوجد مزيجًا من الألوان، الأرجوانى والأحمر ولون بشرة يعرفها جيدا، أيقن أنها "سارة" فاتجه بنظره إلى الخلف قاصدًا رؤيتها مُحركًا رأسه وجزءًا من خصره حتى رأى ما يحب... الفتاة المفضلة لديه، ووجد أن "سارة" بدأت تضفي لديه مفاهيم أخرى للجمال لم يعتَد عليها من قبل، فقد أحاطت شعرها الاحمر المميز بإيشارب أرجواني على شكل وشاح لا يتجاوز عرضه ثلاثة أصابع متجاورة حول مقدمة رأسها، ومن خلفه شعرُها الغجريُّ الثائر المتناسق مع الفستان الذي ترتديه ذي اللونين الأرجواني والأسود وحول عنقها القلادة التي اعتادت أن تضعها، حاملة الحرف الأول من اسمها بحروف إنجليزية، ابتسمت له وشعر بأن كل ما في رأسه مجرد أوهام اختلقها، وكاد أن يصدقها، فابتسامتها كانت شافية له إلى حد كبير، ابتسم لها هو الآخر أثناء قيامه من على المقعد وبعد أن استقام بدأ ينظر إليها وفي عينيه سعادة بالغة بسبب رؤيتها، قدمت يدها إلى الأمام لتسلم عليه بشكل أرستقراطيٍّ حانية لجزء من رسغها باتجاه الأسفل، وعرف أن تلك الإشارة التي كثيرًا ما علمته إياها الآنسة "هيلين" أن خفض من رأسه واتجه بشفتيه إلى يديها يقبلها، تلك العادة التي تشعر المرأة بحب التملك ... قدرة مطلقة على السيطرة، الغريب أنها لم تتعدَ عامها الثاني عشر، لكن مفهوم الأنثى المسيطر يولد مع المرأة، ربما رأت والدتها تصنع نفس الشيء لكنه تلذذ أن يحني رأسه لجمالها، وشعر بأنه يستطيع أن يتجرأ ويثني على جمالها، فقال لها:

- تبدين في غاية الجمال

فردَّت "سارة" بابتسامة متعالية على الرغم من القشعريرة التي مرَّت بداخلها، حيث إنها المرة الأولى التي يلمس يدها، ودار حديثٌ بينهما بعد ذلك عن السيد "ميلر" الذى يحاول تعليمهما بشكل جيد، فما كان من "يوسف" إلا أن ادعى كعادته أنه لم يفهم بعض الجمل اللحنية، فما كان من "سارة" إلا أن أتت بكرسي صغير مماثل لما يجلس عليه "يوسف" ووضعته إلى جواره وأخذت تشرح له بشكل مبسط وهو يحاول التظاهر بعدم الفهم لتكرر جملها اللحنية، وكان يقوم باختلاس النظر إلى قدميها اللتين كانتا ترقصان مع عزفها، فحرك قدميه متراقصا مع ألحانها بشكل هادئ، أحس أنهما يتمايلان رقصا مع حركة قدمه وقدمها، وشعر أنه فوق السحاب، شعر أنها بين ذراعيه وأنهما يتراقصان على الرمال أمام البحر في المساء، وصوت الأمواج المتلاحقة هو اللحن الذى يتراقصان

عليه والسماء بنجومها هي الحد الأوحد لإيقاف المتعة غيرِ قابلةِ الإشباع.

كان قد مرَّ على دخول "يوسف" المنزل ما يقارب نصف الساعة وقد تأخر السيد "ميلر" كثيرًا وهذا ليس من عادتة , ففي الساعة الرابعة بالضبط يكون متواجدًا أمام المنزل وطرقاته على الباب تكون مسموعة للجميع، وبدأ الصغيران التحدث عن عدم وصول السيد "ميلر" في الوقت المناسب وقالت "سارة":

- ربما سيأتي بعد قليل.

فأيدها الرأي وأحس كلاهما أنه من الممتع التواجد سويًّا بدون رقابة من أحد، وأن يتكلما عن أشياء أخرى لا تخصُّ الموسيقى، وأثناء عزفهما على البيانو... حدث للمنزل هزة مفاجأة نتيجة صوت فرقعة مدوية وتعالت أصوات صفارات الإنذار وبعدها تعالت الأصوات التي عرفوها بشكل جيد وقريب، إنها أصوات الطائرات الألمانية التي استباحت سماء "الإسكندرية" منذ فترة، وصدرت صرخةٌ من "سارة" بشكل مباشر بعد صوت الانفجار وأمسكت بيدها اليسرى اليد اليمنى لـ "يوسف" نتيجة خوفها من صوت الانفجار، فأمسك يدها بيديه الاثنين وهو في خوف هو الأخر، وبعد لحظات قليلة تواجدت السيدة "منال" والخادمة "سناء" بالقرب من مكان البيانو واتجهتا صوب الصغيرين تحتضناهما مؤكدتين أن كل شيء سيكون على خير ما يرام، واتجهتا بهما إلى باب المنزل مع تزايد صوت الانفجارات، ربما كانت الأهداف الألمانية قريبة من المنزل بشكل كبير.

نزل الجميع درجات السلم بشكل سريع حتى وصلوا إلى القبو بالطابق الأرضيِّ من المنزل الذى يحتوي على مخزن قديم للأشياء عديمة الأهمية حالك الظلمة، واتجهت "سناء" إلى أحد الأماكن وأخذت تشعل ثقابا كان بحوزتها وأشعلت شمعة صغيرة في المكان دامس الظلمة تماما إلا من بعض أشعة الضوء المتلصصة، وأخذت السيدة "منال" في إمساك "يوسف" و"سارة" بيدها وهى تتمتم ببعض الآيات القرآنية غير واضحة الصوت، بعدها وضعت "سناء" الشمعة على أحد الصناديق القديمة التي تعلو على الأرض بأقدام قليلة وأحس كلاهما بالخوف من المجهول مع تزايد الانفجارات في التعالي بينما احتضنت "سارة" والدتها.

وكان من الغريب ترك "يوسف" ليد السيدة "منال" متجها نحو الشمعة المضيئة وبداخله إحساس بأن النجاة لن تكون إلا بالصلاة التي يعرفها جيدًا، ورأت "سارة"

ظلال "يوسف" تتحرك، فتركت والدتها واتجهت لتقف بجانبه وهى ناظرة إلى الشمعة المضيئة... فنظر إليها وأمسك بيدها قائلا لها:

- صلِّ من أجل نجاتنا.

ونظر إلى الشمعة وهو ممسك بيدها وبدأ القول بصوت مسموع واضح وبدأ بترديد:

- "الرب إلهنا.. رب واحد : اسمع يا إسرائيل. فلتحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفس ومن كل منّ، ولتكن الكلمات التي أنا كل قوتك".

فلم تعرف ماذا يقول، لكنها علمت أنها يجب أن تردد ما قد يطمئن قلبها مما تحفظه من القرآن:

- "قُل هُوَ اللّهُ أَحَدٌ. اللّهُ الصَّمَدُ. لَم يَلِد وَلَم يُولَد. وَلَم يَكُن لَه كُفُوًا أَحَد".

توالت أصوات الانفجارات لفترة، ثم بدأت بالتوقف تدريجيًّا... ولم يصبهم أذىً، ربما الصلاة هي السبب في النجاة، أو ربما قد فعل الله كل ذلك حتى لا ينسى أحدهما كيف كانت المرة الأولى التي تشابكت فيها أيديهما ... فالحكمة غير مفهومة في أغلب الأوقات.

* * *

دخلت "ارينا" إلى غرفتها وهى منهارة في البكاء بشكل تام نتيجة امتزاج دموعها بمساحيق تبرجها، كانت ترتدي فستانا أبيض يظهر بوضوح من تحت معطف المطر الأسود، أغلقت باب غرفتها الخشبيَّ بإحكام ووقفت خلفه متكئة بظهرها عليه وهي تضرب مؤخرة رأسها في الباب وتعلم أن ما فعلته اليوم غير قابل للحدوث مرات أخرى، بدا بعدها صوت بكائها في الظهور بشكل أوضح، ووضعت يدها على فمها من هول ما فعلته أثناء بكائها، ثم انهارت وضعت جبينها على الأرض وكأنها ساجدة تحاول الصلاة كيوم عيد رأس السنة، فربما تذكر وجود الخطيئة لا يتضح إلا بعد حدوثها، أجهشت أكثر بالبكاء وهي تفكر فيما حدث اليوم.

البداية كانت في نفس المكان، لكن في الأغلب منذ خمس ساعات مضت، كانت واقفةً أمام مرآتها تضع مساحيق تبرجها وتتأكد من زج حاجبيها ونظرت على جسدها اللدن خالِ الملابس عدا ملابسها الداخلية، وبعدها أخذت زجاجة العطر ووضعت منه على جلدها الأبيض الذى جعلها تشعر بألم نتيجة التصاق العطر على مسامها المزالة الشعر حديثا، فالمفهوم الأملس هو أحد المميزات الأنثوية، إنها ملساء ناعمة متخلية عن العنفوانية المتلخصة في شعر الجسد

ذي المفهوم الذكوريِّ الحيوانيِّ البحت، أو ربما تكون ملساء مثل الحية التي أقنعتها بالغواية في بداية الأمر، تعددت الأفكار وظل تدارك التشابه هو الدافع من أجل الإحساس بالتميز عن الجنس الهمجيِّ، الوحش الحيوانيِّ الذي غالبا ما تروضه وتسلب منه ما تريد عن طيب خاطر.

اختارت الفستان الأبيض الذى يكشف عمًّا بين نهديها ذا الأكمام الطويلة المتناسب مع صدريتها البيضاء، وبعد التأكد من ارتدائه اختارت المعطف الجلديَّ الأسود الخاص بالمطر، فربما ستمطر السماء اليوم قليلا، فالسماء بها بعض السحب المحملة بالغيوم، وتخيلت صورتها وهي مع حبيبها "أوجستين" تحت قطرات المطر، وربما يلتصق فستانها المبلل بجسدها مما يشعل الرغبة بداخل "أوجستين" فكم تحب أن تتصنع الدلال والرفض أثناء محاولته تقبيلها، بالرغم من أنها تشتهيه أكثر من اشتهائه لها لكنها المرأة غالبا تتظاهر بأمور مثل ذلك لتجعل من رغبة الرجل لها أكثر قوة، وتخيلته وهو ينقض عليها محاولا تقبيلها لكنها ترفض فتزداد رغبته وتقوى حتى يحيط ذراعه بجسدها كاملا فتقاوم للحظات ثم تلين لتذوب في المتعة التي ترغب بها.

وبالرغم من أن اللقاءات بين "أوجستين" و "ارينا" غالبا ما تحتوي على أوجه ساخنة من العناق والتقبيل وكذلك لا تخلو من المداعبات الجسدية، إلا أن "أوجستين" لم يحاول تطوير الأمور لتصل إلى علاقة جنسية كاملة، لعلمه بأن مفهوم العذرية أمر مقدس لدى الفتاة الشرقية، على الرغم من اختلاف دينهما، فكلاهما يصل إلى نشوته ذاتيًّا مُكتفيًا بوجود الآخر بجانبه، غالبـًا ما كانت تتم اللقاءات بينهما في أحد الشقق التي يمتلكها صديق "أوجستين" بحيِّ "الجمارك" الشعبيِّ في الجانب الغربيِّ من المدينة، بالقرب من الميناء الشرقيِّ، أو عند الضرورة القصوى وعدم وجود المكان المناسب يكتفيان باللقاء في بنسيون صغير يدعى "روزيكا" بـ "محرم بك"، صاحبه يعتبر قواد إلى حد كبير حيث إن كل ما يهمه الحصول على أجر الغرفة لطالبي المتعة أو المهمشين أو حتى الهاربين.

تأكدت من تمشيط شعرها وعبرت باب غرفتها متجهة نحو مكان الاستقبال بالقرب من البيانو ومنضدة الطعام، فوجدت والدها جالسًا على الكرسيِّ وهو يقرأ جريدته الأسبوعية الفرنسية اليهودية التي اعتاد قراءتها "لاترديبون غواف" أو المدافع اليهودي، أحس بحركة خلفه فنحى الصحيفة جانبا واتجه بنظره ليرى سبب عدم الهدوء فوجد ابنته الصغيرة "ارينا" وهي فى استعدادها الكامل للخروج من المنزل فنظر إليها قائلا:

- ماذا ستفعلين اليوم عزيزتي؟ .

فردَّت وهي تبتسم:

- سأذهب إلى الخياطة ثم مصفف الشعر.

ابتسم لها وتمنى لها قضاء يومٍ ممتعٍ، بعدها خرجت من منزلها وهي لا تفكر سوى في شئ واحد، وهو اللحاق بموعد حبيبها "أوجستين" واستقلت سيارة أجرة من أمام الكنيسة إلى محرم بك، وأثناء طريقها أخذت بالنظر إلى البحر مُتعالي الأمواج التي ترتطم بالصخور، واللون الأزرق غالبا ما كان يشعرها بالصفاء، إنه القاَسم المشترك الأكبر للسكندريين حب البحر على حاله، كانت لا تزال الشمس مشرقة وقد بدأ منذ لحظات مطر خفيف للغاية في الهبوط مما جعل السائق يستخدم الماسحات الأمامية لزجاج السيارة من وقت إلى آخر، ووقفت السيارة الأجرة أمام إحدى البنايات البالية في مسافة تقدر بحوالي خمسة وعشرين دقيقة كان البيت مكوَّنًا من ثلاثة طوابق وبه العديد من الشرفات البارزة عن الجسم الرئيسيِّ للمبنى.

نزلت من السيارة واتجهت إلى المنزل الذى حفظته عن ظهر قلب نتيجة تكرار تواجدها به، وقرأت بالعربية والفرنسية اسم البنسيون، وعبرت الباب الحديديَّ متجهة إلى الطريق المؤدي إلى السلم الذي يتصل بالباب الرئيسي الخشبي، وعبرت منه متفحصة للمكان ذي الطلاء البالي ناظرة إلى الجانب الأيمن من الباب الرئيسي توجهت إلى الجزء الخاص بالاستقبال المكون من منضدة رخامية سوداء اللون في ارتفاع ثلاثة أقدام ومن خلفها العديد من الأرفف الخشبية المتقاطعة بشكل أفقيٍّ وطوليٍّ حاملةً أرقام الغرف والمفاتيح الخاصة بها، ووجدت الرجل الذى تحتقره بشكل كبير ذا السبعين عاما صاحب البنسيون بشعره الأبيض الطويل وعينيه البُنِّيَّتَين وبزته البالية التي لم تره مُرتديًا غيرها من قبل، قابلها بابتسامة صفراء متفحصًا جسدها من تحت المعطف فهو يعلم جيدًا أن هذه الملابس لن تبقى على جسدها لفترة أطول، واتجهت إليه بخطوات ثابتة، فرحَّب بها قائلاً بخُبثٍ:

- مرحبًا آنستي

فردَّت التحية بشكل رسميٍّ وسألته عن "أوجستين" فأجابها بأنه قدم منذ ما يقرب من الساعة وهو في انتظارها بالغرفة رقم 9 بالطابق الثاني، فأدارت وجهها بتعالٍ ولم تشكره واتجهت نحو درجات السلم الرخامية الذي يحيط به الدرابزين المعدنيُّ على أشكال متخالطة ومن فوقه الجزء الخشبيُّ المخصص للاتكاء.

عار علي " اوجوستين " أن يأتي بها إلى مثل هذا المكان المُتَدَني، ومع صعودها لدرجات السلم أخذت تفكر بأنه يجب عليها وجود حل لعدم القدوم لهذا

المكان مرة أخرى، حيث إنها تكره للغاية نظرات ذاك العجوز إلى جسدها الذي أصبح يتفحصه كلما رآه، بالإضافة إلى الكلام ذي التورية فهي تكرهه إلى حد كبير، لكن بعدها فكرت بأن كل هذا العناء لا يوازي قبلة من "أوجستين" أو أن يتلمَّس بأنامله شعرها الأسودَ، لكن يجب عليها أن تجتمع به في مكان آخر، تزاحمت الأفكار برأسها حتى وصلت إلى الطابق الثانى واتجهت فى الرواق إلى الجانب الأيسر واقفة أمام الباب الخشبيِّ شاهقِ الارتفاعِ مثل كل البنايات القديمة، وطرقت عليه فأجاب صوت "أوجستِين" بأن الباب ليس مغلقـًا، فدفعت الباب بشكل قويٍّ محاولة فتحَه، ودخلت إلى الغرفة المكونة من أثاث رديء للغاية، سرير كبير يتوسط الغرفة وخزانة ملابس صغيرة للغاية، ومرآة مهشمة تعكس صورتها على شكل عدة أشكال ممتزجة، نظرت لها وتأملت نفسها، ربما هذه الصورة هي أكثر ما تعكس وجودها وذاتيتها حيث إنها مجموعة متخبطة من الصور غير متماسكة الأركان مجرد سراب منعكس من خلال إضاءة قوية.

ورأت حبيبها "أوجستين" جالسـًا على الأرض بجوار السرير ذي القوائم النحاسية مُسندًا ظهرَه إلى الحائط وأمامه زجاجة نصف ممتلئة من الفودكا البيضاء وطبق صغير من الملح وكأس صغيرة، أيقنت أنه قد شرب بشكل مبالغ فيه، فنظر إليها مبتسمًا وهو في نصف وعيه، وحاول أن يقوم من جلسته مرة ولم تفلح فاستجمع قواه لكي يقف ونظر إليها نظرة محبة قائلا لها بكلمات إسبانية لم تفهمها، ثم ترجم لها المعنى بالعربية الركيكة:

- أنت أجمل ما خلق الله على الأرض

واتجه إليها بخطوات مترنحة محتضنها بقوة، حتى شعرت أنها قد ذابت وسط ذراعية، فحاول حملها لكنه لم يستطع فأخذها وهو حاضن لها في اتجاه السرير ودفعها إليه ثم اتجه بجسده ليبقى بجانبها، وبدأ بتقبيلها وهو يخلع من عليها ملابسها فأحسَّت أنها ذائبة في بحور المتعة والشهوة العارمة التي صَحِبَتها منذ الصباح فقد حان وقتُ إطفائها وقالت له بصوت لا يكاد أن يفهم:

- "أوجو" يبدو أنك أفرطت في الشراب اليوم.

فردَّ عليها:

- دعيني أحبكِ كما أريد

وأكمل تقبيله لجسدها متماشيا مع اتجاه الجاذبية وشعرت باللذة المفرطة وأحست بأن رغبة اليوم غير قابلة للاشباع ، وبدأ يعلو صوته بكلمات غير مفهومة بالنسبة لها واتجه إلى الجزء السفليِّ منها وبدأ بتقبيله من قدمها حتى موضع

عفتها وهى فوق السحاب من فرط النشوة، أحست بأنها على سحابة بيضاء عالية بالقرب من الجنة التي لا يعلم مكانها أحد، اتجهت بيدها نحو شعره وهى تغرز أصابعها وسطه من فرط اللذة وكأنها تريد أن تتمتع بالمزيد، وتناست مفهوم البكارة، تناست كل شيء، فالمتعة عارمة واللذة المحرمة لها تأثيرها، أحست بألم بسيط من اللذة وطلبت منه أن يتوقف وكررت الطلب مع زيادة الألم، وبدأت بإزاحة رأسه من عليها، لكن يبدو أن الخمر قد أثر على "أوجستين" بشكل شهوانيٍّ، فلم تستطيع مقاومة الألم واللذة المتناهية، وفجأة أحست وكأن سكينا قد تم طعنه بداخلها ليخرجها من اللذة والمتعة، واعتدلت من جلستها على السرير لترى ما أصابها بصدمة... دماء عفتها التي لا تُرى إلا مرة واحدة.

* * *

ظل لسنوات شارع "سعد زغلول" هو القلب النابض لمدينة "الإسكندرية" فهو يحتوي على العديد من الأماكن الحيوية مثل القنصلية الإيطالية، بالإضافة إلى العديد من الفنادق مثل؛ "سيسل" و "بنسيون" و "أكربول"، على طراز أوائل القرن العشرين، حيث التباعد بين الطوابق والزخرفة الموجودة على الشرف البارزة، ويتوسط الشارع من جهة البحر تمثال "سعد زغلول" وهو يخطو خطوة في اتجاه البحر مرتديا بزته الكاملة وعلى رأسه الطربوش، والغريب أن الشارع العمودي على نفس الشارع يحمل اسم زوجته "صفية"، بالإضافة إلى الغرفة التجارية في الجانب الآخر من الشارع التي تحمل طرازا يمتزج فيه الأسلوب المعماري للمعابد الإغريقية وقصور العدالة الفرنسية، حيث إنه مكون من ثلاثة طوابق في مقدمة مدخله عمودان إغريقيان على جانبي الباب الرئيسي، أما سقفه فعلى شكل مثلث أحادي الزاوية مثل معبد "الاكرابولس" القديم وينتهي الشارع في ميدان "محمد علي باشا" المؤسس الحقيقي لمصر الحديثة، ويحتوي الشارع أيضا على أكثر ما يميز "الإسكندرية" وهو الترام الذي يعمل بالطاقة الكهربائية العلوية الموازية للخط الحديدي على الأرض، أما المباني في حد ذاتها فهي غالبا ما كانت إيطالية التصميم، مكونة من ثلاثة أو أربعة طوابق على الأكثر، حاملة للطراز الأوربي متلاصقة إلى حد كبير، وفي الاتجاه نحو

ميدان محمد علي يوجد العديد من المحلات التجارية للذهب والملابس والأثاث، باختصار هي منطقة للصفوة من المجتمع، حلواني "ديليس"، "شيكوريل" ، "المقهى البرازيلي" للبن، "سفيانوبولو" ، بالإضافة لعدة بنوك ومنها "بنك مصر".

كان "ايزاك" يجلس في الجانب المواجه للمبنى المكون من ثمانية أدوار بداخل سيارته السوداء وهو ينظر إلى المتجر الذي يتواجد بالطابق الأرضي والأول من البناية , في المكان التجاري الأول لعلية القوم في "الأسكندرية" لفترة طويلة من الزمن، كان اسمه مكتوبا على الجزء العلوي من المتجر بحروف عربية "شيكوريل" ذلك المتجر الذى يحمل اسم العائلة اليهودية الشهيرة، متعدد الأقسام من ملابس وزينة ومتطلبات الحياكة ذات الجودة العالية نتيجة اتجاهه للاستيراد من الخارج، كان ذا طابع أجنبيّ إلى حد كبير حتى إن اللغة السائدة به كانت الفرنسية، لذلك كان من المنطقي أن يكون المكان المناسب لعمل "بارا".

إنها المرة السادسة التي يراها فيها بمعدل أسبوعيٍّ تقريبا، كم أضافت بهجة إلى حياته لم يكن يعرفها من قبل، ففي البداية كان مستغربا من تدخينها وكلامها الذي لا يعرف الكذب أو المجاملة، أخبرته بأجزاء من الماضي عرف من خلالها معاناتها، لكن ظلت ثقافتها هي أكثر ما جذبه لها، ربما كان يحاول إقناع نفسه بذلك، لكن السبب الرئيسي وهو كون "بارا" مختلفة بجميع الأشكال أو على عدة أوجه عن اللاتي عرفهنَّ من ذي قبل، فهي مقبلة على الحياة بشكل كبير، لا تخجل من احتساء الخمر معه، منفتحة ومثقفة، وقد كانت هى التي طلبته للتراقص في عشائهما الأول، وقَبَّلته في الوقت الذى اختارته، وبالرغم من كل ذلك لم يشعر تجاهها كأيِّ شرقيٍّ ولم ينظر لها تلك النظرة الشهوانية الفاجرة التي لا تستخدم إلا في الفراش، فقد نظر إليها بمفهوم آخر وهو كونها إنسانة صادقة تحاول الاستمتاع بالحياة على قدر المستطاع بسبب رؤيتها للموت من قبل.

نظر في ساعة معصمه فوجد أن عقاربها قد قاربت على الإشارة إلى الواحدة والنصف، فقرر الذهاب إليها داخل المتجر بشكل مباشر فهو لن يطيق الانتظار أكثر من ذلك، فخرج من سيارته ورتب من رابطة عنقه البنية وتفحص الشارع يمينًا ويسارًا ثم اتجه بعدها بخطوات سريعة نحو المتجر وصعد درج السلم للدخول عبر الباب الزجاجيّ المفتوح على مصراعيه، وتسارعت نظراته متخبطة داخل المتجر متعدد الأقسام فوجد أن الطابق الأول يحتوي على الجزء الخاص بالأحذية وكماليات الزينة والعطور، كان المكان مُمتَلِئًا بالعديد من الزبائن ذوي

الأجناس والأعراق المختلفة، وكثيرًا ما اختلطت اللغات داخل أذنه من فرنسية وإنجليزية وقليل من العربية، واتجه إلى الجانب الأيمن حيث الأحذية وسأل شابة في مقتبل عمرها عن المكان المخصص للملابس النسائية، فأخبرته بأن المكان في الطابق العلويِّ، واتجه بعدها نحو السلم الداخليِّ للمتجر صاعدًا بخطواتٍ سريعة وبعد وصوله إلى الطابق الثاني تفحص المكان بين قسمي الملابس للجنسين واتجه نحو الجزء الخاص بالملابس النسائية، فجال بناظره وسط البائعات فلم يجدها، فاتجه نحو إحدى الشابات التي ترتدي الزيَّ الموحَّد للبائعات المكون من اللونين الكحليِّ والزهريِّ على شكل تنورة قصيرة كحلية اللون، وقميص زهريٍّ ومربوط على العنق إيشارب يحتوى على اللونين معًا، فتقدم إليها وسألها عن "بارا" فأجابته بأنها عند الجزء المخصص لقياس الملابس في نهاية الرواق فشكرها وأطلق العنان لساقيه في الاتجاه الذى تعمل به.

كانت واقفة في الاتجاه المقابل لباب الغرفة الصغيرة المخصص للقياس وكان هناك صوتٌ نسائيٌّ من داخل الغرفة يحدثها عن قياس الفستان وضبطه على جسدها وهى ترد عليها، فاقترب من أذنها من الجهة الخلفية وهي في غفلة حديثها مع السيدة وقال لها بصوت منخفض بالفرنسية:

- لم أستطع الانتظار أكثر من ذلك.

ارتعبت من الصوت في البداية على الرغم من أنه خافت جدًا وصرخت بصوت ضعيف في حركة لا إرادية من هول المفاجأة واتجهت بنظرها إلى الخلف لرؤية هذا الشخص، وظهرت ابتسامة عندما رأته وحركت يدها إلى كتفه وهى تحاول التظاهر بضربه:

- فاجأتني للغاية.

فابتسم وأخبرها أن تحَوُّلَ لونِ وجهِها إلى الاحمرار نتيجةَ المفاجأةِ أضافَ لها بُعدًا آخرَ منَ الجمالِ، ابتسمت وأخبرته بعدها بأنها ستكون مستعدة للمغادرة معه خلال ربع الساعة، لذا تُفَضِّلُ أن يبقى في سيارته، فابتسم لها موافقًا واتجه إلى سيارته.

بعد مرور عشرين دقيقة من الانتظار داخل سيارته ظهرت "بارا" عند باب المتجر في اتجاهها للخروج وكانت معها إحدى زميلاتها في العمل في نفس عمرها تقريبًا، سلمت عليها مودعة إياها وابتعدت الفتاة، بينما أخذت "بارا" تتفحص الشارع لترى سيارة "إيزاك" وبعد أن وجدتها اتجهت صوبها بشكل مباشر، وكانت ترتدي فستانا أحمر اللون ذا خطوط بيضاء عرضية، ورأى "ايزاك" في خطواتها تمايلا غريبًا وخفة لم يعهدها من قبل فيمن عرفهن، كان حذاؤها

الأبيض يتلمس الأرض بنعومة فتقابله الأرض بردٍّ فعل مساوٍ لهمس حذائها، اقتربت منه والابتسامة تعلو وجهها كعادتها فما كان منه إلا أن خرج من السيارة مسرعا في الاتجاه الآخر من عجلة القيادة ليفتح لها الباب، شكرته وجلست في السيارة ثم عاد بعدها إلى مقعد سيارته وبدأ بالحديث إليها:

- ربما يجب أن نحظى اليوم بجولة مميزة، فلم أركِ منذ ما يقرب من الخمسة أيام.

فردَّت مبتسمة:

- ألا ترى أن رؤيتي شيءٌ مميزٌ ؟

فردَّ عليها ضاحكًا:

- عزيزتي... أنت الغفران بالنسبة لي.

اتجه بسيارته في اتجاه الجانب الشرقيِّ من المدينة حيث قرر دعوتها على الغداء في مطعمٍ إيطاليٍّ مقابلٍ للبحر في شارع الكورنيش يدعى "فابيو"، كانت المسافة التي قطعها للوصول إلى المطعم تقارب العشرين دقيقة، تحدث خلالها معها عن العديد من الأشياء وأخذ يصغي لها بما تتفوه به، فهي تعلم ما تقول ولا تدعي مثل من عرف، وعند اقترابهما من الدخول أمسك يدها حول ذراعيه وهو سائر إلى الباب الخاص بالمطعم الراقي.

استقبلهما النادل ذو البزة البيضاء ورابطة العنق السوداء بابتسامة مرحبة وأشار إليهما باختيار المكان الذى يريدان الجلوس به، المكان يحتوي على لونين يجلبان البهجة، هما الأبيض والأحمر، هذا بالإضافة إلى بعض الصور المعلقة على الحائط لمعالم إيطالية مثل "الكوليزيوم" و "البرج المائل"، فسألها عن رأيها في اختيار الجلوس لمنضدة تطل مباشرة على البحر ولكنها اختارت أخرى في الجانب الآخر من المطعم، وبعدها ترجم لها قائمة الوجبات إلى الفرنسية بسبب كتابتها بالإنجليزية والعربية فاختارت المعكرونة البلونيز فطلب مثلها وبعدها بدأ بالتحدث إليها متسائلاً:

- لماذا لم تحب الجلوس إلى المنضدة المواجهة للبحر؟

تذكرت كل ما حدث لها من أحداث وأخبرته بالسبب، بعدها دار الحوار بينهما عن أسرتهما، وكم من الألم الذي أوجده موت والدته، وكم كانت تكثر من تدليله، وأخبرته هى بدورها بما يوجد بداخلها من كلام ظل ساكنا لفترة محاولة تناسيه، وتحدَّثا أيضا عن الغارات الألمانية ووجد أن "بارا" تكره النازية بشدة، ووجد أن مسار الحديث قد يتجه إلى مجادلة سياسية بعيدة كل البعد عن محاولته إيجاد

أرض خصبة مشتركة من الرومانسية ذات طابع فرنسيٍّ، كان من الصعب عليه أن يحب واحدة لا تتحدث لهجته الأم، لكن ربما المتطلبات الإنسانية أسمى من اختلاف اللغة، فكل ما يعرفه أنه يشعر إلى جانبها بالأمان والفرحة والأمل، فهي الابتسامة التي لطالما افتقدها في حياته بعدها تذكر أنه لا يعرف معنى اسمها في لغتها التشيكية فسألها، فردَّت "بارا" وقد استشعرت بأنها لم تفكر فى ذلك من قبل، ربما السبب تناوله الدائم لمفهوم شخصية من يحمل الاسم وليس ذاتية المعنى في اللغة، فابتسمت ابتسامة بها العديد من علامات الحزن قائلة:

- "باربورا" من أصل لاتينيٍّ ولكنها تعني "الأجنبية"...

براغ 1938

بعد مرور عدة أسابيع على ذكرى مولد "بارا" ، جلس والد "بارا" ووالدتها معها إلى المنضدة المخصصة للطعام وعليها ثلاثة كؤوس من النبيذ، وكوب آخر يحمل عصيرًا للفاكهة وطبقـًا صغيرًا به بهارات، وشمعتان ملتصقتان نحيفتان للغاية، وقد فات على مغيب الشمس ما يقرب من نصف الساعة، بدأ الأب في ترديد الشعائر بعد إشعال الشمعتين:

- "مباركٌ أنتَ، إلهَـنَا، ربَّنا، ملكَ الكونِ، الذي خلقَ الفاكهةَ والنبيذَ، الذي جعلَ كلَّ شيءٍ موجودًا عن طريقِ كلماتِـه".

رددت "بارا" ووالدتها: – "آمين".

وأكمل:

- "الذي خلقَ أنواعَ التوابلِ، والذي خلقَ الضوءَ منَ النارِ".

رددت "بارا" ووالدتها: – "آمين".

وبعدها أكمل ترديدَ الشعائرِ:

- "الذي فرَّق بينَ ما هو مُقَدَّسٌ وعلمانيٍّ، بينَ الضوءِ والظلامِ، بينَ إسرائيلَ والأُمَمِ، بينَ اليومِ السابعِ المُـقَدَّسِ وأيامِ العَمَلِ السِّـتِّ".

بعدها بدأ الثلاثة في شرب كؤوس النبيذ، وأخذ السيد "نوفاك" بعضَ قطراتٍ من النبيذ وأطفأ بها لهب الشمعتين.

إنها كانت الشعائر التي تحفظها "بارا" عن ظهر قلب، إنها شعائر نهاية يوم السبت المقدس، فاليوم في التقويم العبريِّ يبدأ بعد مغيب الشمس، وبعد أن فرغوا من شرب كؤوس النبيذ، وقفت "فيالا" واتجهت إلى غرفتها، بعد نظرة مؤلمة إلى زوجها، وربما السبب كان ذلك الشجار الذي حدث بينهما ليلة أمس في غرفتهما ليلاً، حيث اتهمها زوجها أنها لم تعد صالحة للاستخدام كزوجة، بسبب برودها الجنسيِّ الشديدِ، أثناء ممارسة الحب، نظرة تحمل الكبرياء والإيمان بالذات في نفس الوقت، وفي مخيلتها أنه أصبح هائمًا بالجنس أكثر من ذي قبل، ربما كذلك، أو ربما سئمت منه كزوج، كيف تستطيع أن تبذل جهدك وتفانيك لشخص لا تحبه ما يقارب العشرين عاما، بالرغم من الحفاظ على المظهر الاجتماعيِّ الإيجابـِيِّ لتكون النهاية هي الاتهام بالبرود الجنسـيِّ.

هو أيضا له مبرراته كرجل، فهو لا يكبرها إلا بأعوام قلائل ولم تمت الشهوةُ بداخله بعد، وقد يكون السبب رؤيته لصديقة ابنته، لكن ماذا عساه أن يفعل سوى معاشرة تلك السيدة الباردة، حيث إن تدينه لا يسمح له بالخطيئة، ربما كانت الشهوة هي المحرك الرئيسيَّ للعقل الإنسانيِّ، حتى لو لم يكمل العقل تلك الحركة نتيجة المحافظة على القيم أو المبادئ التي يحلم بالقناعة بها... لا تزال هي الدافع الرئيسيَّ.

تحركت "بارا" بعدها إلى غرفتها مستأذنة بالانصراف بحجة استذكار بعض الدروس، وبقي السيد "نوفاك" وحيدًا، وقرر التخلص من كل تلك الهموم عن طريق إشعال غليونه الذي أخرج من جيبه، اللعنة على الجميع، ربما هو الدخان الذي سيؤدِّي به إلى الهدوء النسبيِّ، هكذا كان يفكر بعد أن أخرج الساعة الذهبية، ذات الشكل الدائريِّ من الجيب الأيسر من البنطال الداكن الذى يرتديه، وركز فيها لوهلة، إنه موعد نشرة الأخبار، وقد بدأت منذ عدة دقائق.

قام من كرسيه واتجه إلى المذياع، وبعدها حرَّك اليد السوداء الدائرية لتنبعث منه أصوات للموسيقى الهادئة، إنها ليست الموجة التي تُبَثُّ عليها النشرة الإخبارية، قد تكون "بارا" أو والدتها آخر من استخدمه، وبدأ بتحريك اليدين السوداوتين للمذياع واحدة لتحويل الموجة والأخرى لتعلية الصوت، واختلطت الأصوات مما أدى إلى حدوث إزعاج لبعض الوقت، بعدها بفترة توقف وحرك اليد الخاصة بتغيير الموجة في الاتجاه العكسيِّ لها، وأخذت الأصوات تتصاعد، لكن بشكل عكسيٍّ، حتى استقر على الموجة الإرسالية المحددة التى ارادها، وهنا سمع صوتَ رَجُلٍ يتحدثُ الإنجليزيةَ التي يجيدُها لكن بلكنة فرنسية، ربما كانت الأخبار عن الاجتماع لرؤساء أوربا الأخير، فقرر الإنصات للنتائج:

- "... ولتسوية مشكلة الاستيطان في "تشيكوسلوفكيا" التي ستكون مجرد مقدمة لإعادة استيطان أكبر، من خلالها تعيش أوربا في سلام، هذا الصباح تحدثت مع السيد "هتلر" وها هو توقيعه على الورقة بالإضافة إلى توقيعي".

وسط سماعه لأصوات صيحات من السعادة للجموع المتواجدة، وتوقف بعدها الصوت لحظات، بعدها أكمل الرجل ذو اللكنة الفرنسية المنتظر سماعه في أوربا كلها، وأخذ بإعلان تحويل الحكم في منطقة "السودتلاند" ذات الأغلبية من أصحاب الأصول الألمانية وذات الانتشار الواسع للغة الألمانية في التحول للحكم الألمانيِّ.

لم يتمالك السيد "نوفاك" نفسه من الغضب وصاح بصوت عال سمعه جميع من في البناية، حتى إن "بارا" ووالدتها "فيالا" قد خرجتا من غرفتيهما مسرعتين في اتجاه الصوت، مفكرتين في سبب ثورته بالرغم من طبعه الهادئ في أغلب الأوقات، وأثناء قدومهما وجدتا "نوفاك" يتجه إلى المنضدة ويزيح بيده كل ما عليها بشكل عشوائيّ انفعاليٍّ عدا زجاجة النبيذ التي أمسكها بيده و استدار بجسده كاملاً في اتجاه الحائط، و قذف بالزجاجة في اتجاه الحائط على الصورة الزيتية المعلقة عليه، فانكسرت راسمة على الحائط بقعةً كبيرةً من أثر النبيذ الذى سار في اتجاه الأرض مكوِّنا خطوطًا حمراء متزايدة الطول بالإضافة إلى قطع الزجاج المنثورة على الأرض مع النبيذ، ربما تدفق النبيذ على الأرض سيكون مثل الدماء بعد فترة قليلة من الزمن، وصاحت "بارا" بصوت مرتبك:

- ماذا بك يا والدي؟

فرد بصوت عال وهو متجه إلى كرسيه الخشبيِّ:

- لقد وافق قادة أوربا على إعطاء "السودتلاند" إلى هذا المستعمر الهمجيِّ.

وضعَت "فيالا" يدَها على فمها من هول المفاجأة، واتسعت عيناها من صدمة ما سمعته، بينما نظرت "بارا" إليه غيرَ مُصَدِّقَةٍ قولَ والدِها، وحاول "نوفاك" البحثَ عن أعوادِ الثقابِ، حتى يشعل غيلونه، وتذكر وضعه له في الجيب الأيسر بعد أن أشعل الشموع، ورد بصوت يعلوه لهث أنفاثه:

- لن يكتفي بـ "السودتلاند".. لقد خدعهم.. سيأتي إلى "براغ"، في أقرب وقت ممكن ليعاملنا مثل اليهود الألمان.

* * *

بعد صعود "هتلر" للسلطة في "ألمانيا" على رأس الحزب النازيِّ – اختصارا للحروف الأولى من اسم حزب العمل الاشتراكي القومي الألماني في اللغة الألمانية – في عام 1933، بدأت ميوله الاستعمارية التوسعية في الظهور، وحاول إعداد ألمانيا بشكل مختلف عن الفشل والهزيمة المُذِلَّـةِ التي لحقت بها في الحرب العالمية الأولى، حيث واجهها بنفسه عندما كان وسط الصفوف الألمانية كساع للبريد بين الوحدات الألمانية... وبعد انتهاء الحرب الأهلية في النمسا موطنه الأصلي في عام 1934، الذي خسر جنسيته في منتصف العشرينيات في القرن العشرين، حاول دعم حزب بنفس الاسم بالنمسا وبالطبع كان مُتَبَـنِّـيًا لنفس الأهداف حتى استطاع ذلك الحزب السيطرة على مقاليد الحكم وما لبث في عام 1938 من غزوها دون مقاومة تذكر، ووقع معها اتفاقيةً تنص على أنها جزء من الرايخ الثالث "الإمبراطورية الثالثة وتسمى "أوستمارك"، وقد كانت

منطقة "السودتلاند" تقع بين "تشيكوسلوفكيا" و "ألمانيا" ذات أغلبية تتحدث الألمانية، فوجد "هتلر" ضالـّـتَه بها ليجد ذريعة لبداية القتال المؤجل، واقتنع أن ضمها أمر حتمي، وبمعرفة الاتفاقية المشتركة الموقعة بين كل من "تشيكوسلوفكيا" و "فرنسا" من جهة، و بين "فرنسا" و "انجلترا" من جهة أخرى، أبلغ "هتلر" السيد "بنس"، رئيس "تشيكوسلوفكيا" عن طريق "دلادير" وزير الدفاع الفرنسي، أن الحيلولة دون الغزو الألماني هو التنازل غير المشروط عن "السودتلاند" إلى "ألمانيا".

وأبلغ الوزير الفرنسي "هتلر" أن الطلب قد قوبل بالرفض، فهمس له "موسولينى" الإيطالي أنه لا يجب الأخذ في الاعتبار موافقة الرئيس التشيكوسلوفاكي على الإطلاق، وكل ما يحتاجه هو مؤتمر رباعي بينه وبين "فرنسا" و "انجلترا" بوجود "إيطاليا" حتى يوافقوا على طلبه، وَاعِدًا إياهم بعدم تماديه في السياسة الاستعمارية في أوربا... ووافقوا، وكان هذا هو الطُّعم الذي أعده لهم... حيث اعتقدت "فرنسا" و "انجلترا" أنهما قد حتما أوربا من الحرب التي لا يعرف منتهاها أحد...

* * *

جلس الجميع صامتين لما يقارب النصف ساعة، فما هو الحل إذا دخل "هتلر" "براغ" ؟ وكيف سيعاملهم وهم يهود؟... كان الأب في قناعته أنه سيطبق عليهم قوانين "نيورمبرج"، ليعيشوا في "جيتو" - حارة يهود – حياة إجبارية، ويرتدوا نجمة داود على أذرعهم وملابسهم، ومن المؤكد أنهم سيأخذون مصنعه، وربما سيغتصب الجنود الألمان ابنته الصغيرة، أما "بارا" فكانت تفكر في حبيبها "فرانز" وما هو مصيرهما بعد ما حدث وما سيحدث... هل سيحتفلان سويا بعيد ميلادها القادم في بيتهما منفردين، أم سيكون للقدر رأى آخر؟... أما "فيالا" كانت تفكر في والدتها المقعدة، وماذا سيحدث لها، وهل ستوافق على الذهاب معهم إذا تطلب الأمر الرحيل؟ فالبرغم مما فعلته معها منذ ما يقارب العشرين عاما مضت بإجبارها على الزواج من "نوفاك" ، على الرغم من عشقها لآخر بسبب حالته المادية المتيسرة، لا تزال تعتقد أن قرار والدها كان صائبًا، فبدونها لم تكن "بارا" لتعيش في هذه الحياة الرغدة دون والدها المحب لهما هما الإثنتين، قاطع الصمت المخيم على المكان صوت "نوفاك" الحازم:

- سنذهب إلى "بولندا" عند "يوهان"، ابن عمتي.

نظرت إليه "فيالا" مستغربةً وقالت:

- هل سنترك بلدنا بعد كل هذه السنوات من أجل منطقة خسرناها.

فردَّ مُوَضِّحًا:

- ليس المهم خسارة المنطقة بالمقارنة بحياتنا.

فقالت له "فيالا":

- أتعتقد أن "بوهميا" ستخلى من البشر بسبب "السودتلاند"

فصاح بصوت عال:

- ليست كل "بوهيميا" من اليهود الذى يحاول "هتلر" البطش بهم.

فقالت "بارا":

- وماذا عن أصدقائي؟

تهكم والدها قائلا:

- ماذا عن أصدقائك، سأخسر مصنعي وهَيْبَتِي وتقولين لي ماذا عن أصدقائي ؟ لن يكون لك أصدقاء إذا خسرت حياتك على أية حال.

بدأت عينا "يارا" في الإحمرار نتيجة تجمع الدموع داخلهما، وردت الأم وكأنها حسمت الأمر:

- كم من الوقت أمامنا لكي نرحل؟

فرد الرجل بعد أن وضع كفيه حول رأسه:

- لا أعلم بالضبط ، ربما أقل من أسبوع، لن يأتوا إلى هنا قبل ذلك على أية حال.

ردت "بارا" وهى تبكي:

- سنترك وطننا الآن، في فترة الاحتفالات و الصيام واستقبال السنة العبرية الجديدة، عار على هذا العام البائس.

فرد والدها:

- لا مكان للصيام أثناء الحروب.

* * *

كانت قد مرت عدة أيام على سماعهم خبر انتقال "السودتلاند" إلى "ألمانيا" والغريب في اجتماع "ميونخ" لتحديد وجهة "السودتلاند" لم تتم دعوة البلد صاحبة السيادة على المنطقة، ربما القرارات الحاسمة تحتاج المؤيدين فقط، اصطحب السيد "نوفاك" مجموعة من الزهور التي اشتراها إلى المقبرة اليهودية التي يرقد بها والده على الجانب المواجه من نهر "الفلتافا"، الأيام الماضية كانت صعبة للغاية بالنسبة له، حيث كان يتوجب عليه القيام بالعديد من المهام في أقل وقت ممكن، كان يجب أن يجد حلاً لمصنعه وعماله المسئولين منه، بالإضافة إلى التأكد من تحويل أرصدته في البنوك، حيث كان يتوجب عليه أن يحول أكبر قدر منها إلى عملة نقدية سائلة، حتى يستطيع توفير المال اللازم للرحلة، التي لا يعرف منتهاها أحد إلى الآن، ووجد ما كان يبحث عنه في مساعده الأكبر والأول "ميرك"، ذلك الرجل ذو الخمسة وستين عاما مُتَفانِ العمل مُتَناهِ الثقة، لقد كان يعمل في المصنع أيام والد "نوفاك" وقد تفانى في الأسرة لعدة عقود، وأقنعه بالتوقيع على عقد صورى بينهما ينتقل بموجبه ملكية المصنع إلى "ميرك" على أن يرد له الملكية بمجرد انتهاء الحرب المتوقعة، حيث أخبره بالمكان الذى سيتواجد به في بولندا من أجل إرسال المكاسب له بشكل نصف سنوي.

أما عن الإدارة فسيكون "ميرك" خير من يدير مصنعه ربما خيرا من "نوفاك" نفسه، وثقته في تدينه المسيحي، وضميره المشاهد من قبل الرب دائما، كل هذا جعله يرتاح لقراره بشكل كبير، فتدينه هو المؤثر الأكبر على اتخاذه لقراراته، ولطالما كان "ميرك" بمثابة المرشد له عبر كل هذه السنوات حتى اكتسب الخبرة اللازمة، شدد أيضا عليه بمكافأة العمال بشكل كاف في الأيام القادمة، بالإضافة إلى أنه أوصاه بالمكافأة المعتادة في يوم ذكرى مولد "بارا".

لم تكن الرحلة إلى البنوك في الأيام الماضية لم تكن موفقة إلى حد كبير، بسبب الظروف الاقتصادية والتأثر الكبير بعد سماع الأخبار المشئومة الأخيرة، لم يستطع تحرير العديد من أرصدته بسبب عدم وجود سيولة نقدية كافية، لكن امتلاكَه للعديد من المجوهرات كان كافيا

دخل من باب المقبرة اليهودية عابرا بشكل رأسي داخل تلك الأرض العشبية ذات العديد من الأحجار الرخامية، وأثناء مروره إلى الحجر الذي يرقد تحتَه والدُه، بدأ بتفحص الأحجار بشكل دقيق، العديد من الأسماء المكتوبة بلغتين وتواريخ عدة من الماضي، ربما كانوا أقارب أو أصدقاء لوالديه، لكن تبقى النهاية واحدة، وبدأ بالتفكير هل سيكون مرقده الأبدي في هذا المكان أم فى مكان آخر لا يعلمه بعد.

بدأت خطواته بالتباطؤ عند اقترابه من المكان الذى دفن فيه والده، ونظر إلى الحجر الرخامي الأسود وفكر هل ستكون هذه آخر الزيارات لهذا المكان، ونظر إلى اسم والده المكتوب باللغتين العبرية، والتشيكية، وتاريخ وفاته الذي تجاوز العقدين من الزمان، لقد كانت الحياة مبهجة للغاية بجانبه، بالإضافة إلى تعليمه الورع وبفضل تدين والده الممزوج بالعبقرية التجارية، فوالده ذاك الرجل العصامي القادم من إقليم "مورفيا" إلى المكان الأهم "براغ" حاملا معه أحلام الثراء، وإيمانه التام بأن الله لن يخذل متدين، وبدأ بتذكر المواعظ التي أكسبته الحياة الرغدة الآن، كثيرا ما نبهه إلى أن الحياة على هذه الأرض مرحلة مؤقتة، وأن الله منتظرنا نحن اليهود في الجنة، فرحلة كفاحه كانت طويلة من أحد الباعة المتجولين بالأقمشة، إلى أن أصبح أحد أهم أصحاب مصانع النسيج، تذكر أيضا إيمان والده التام بأن أفضل ما يقدمه الرجل في حياته هو حب زوجته ومراعاة أبنائه إنه الكمال بالنسبة له، وقد حاول جاهدا المحافظة على تعاليمه، وأحب زوجتة "فيالا" كثيرا بالرغم من معرفته عدم مبادلتها له بالحب الكامل، لكنه تفانى متجاهلا ذلك، فربما تكون قد أحبته يوما، ووضع حجرا صغيرا على قبر أبيه بعد أن قبله، وبعض الزهور وبدأ بترتيل الصلوات.

* * *

- لن أترك منزلي حتى لو طلب منى ذلك "هتلر" بنفسه.

هكذا ردَّت "استر" الجدة على ابنتها "فيالا"، مما جعل "فيالا" تتجه نحو الكرسي المتحرك الذى تجلس عليه والدتها، خاضعة على ركبتيها، ممسكة بيدها محاولة استجداء تعاطفها قائلة:

- لن يتركوننا أحياء، سوف نذهب إلى "بولندا"، وبعد الانتهاء من كل ذلك كما كنا من قبل.

هزت الأم رأسها دليلا على رفضها وقالت:

- الحياة بالنسبة لي قاربت على الانتهاء، ولا جدوى من محاولاتك معي.

فردَّت "فيالا":

- سنعيش في أرض أخرى فترة، وهذا لا يعني ابتعادنا عن وطننا.

فقالت الوالدة:

- لن أدفن إلا بجانب زوجي، ربما لا تعرفين معنى الوفاء، اذهبي أنت وأسرتك لتعيشوا في مكان آخر.

بدأت عينا "فيالا" تدمع وهي تردد:

- أخاف عليك الوحدة.

فردَّت والدتُها مبتسمة وهى تمسح الدموع المنحدرة على خد ابنتها بيدها:

- لا تقلقي ... لن أكون وحيدة... لدى العديد من الذكريات في هذا المكان.

* * *

بعد خروج "بارا" من منزلها قررت عدم الاتجاه إلى مدرستها والذهاب إلى "فرانز" في عمله لمقابلته، وتخطت شارعها شرقا إلى ما بعد وسط المدينة، وبعد الانتهاء من تخطيها جزء كبير من الطريق قررت بأن تستقل الترام الأحمر الكهربائي الذى يمر بأغلب مناطق "براغ" وأخذت تفكر في وجوب إقناع "فرانز" بالهروب سويا ليعيشا معًا، في أى مكان آخر، لكن ماذا عن والديها المحبين لها، فوالدها لا يرفض لها مطلباً، وماذا أيضا عن والدتها المنكسرة التي بالرغم من كل هذا الثراء لا تعرف السبب الحقيقي وراء نظراتها الحزينة، قد يكون السبب ما أخبرته به جدتها، هل ستكون السبب في زيادة حزنها لعدة سنوات أخرى... لكن ماذا عن نفسها، والأحلام التي كثيرا ما راودتها عن أسرة وبيت وحدها مع من تحب، هل سيؤدي إلى حزن الآخرين، وإذا تضاربت السعادتان أيهما ستختار، ربما النهاية قد اقتربت، أو البداية لحياة مختلفة لم تعتَدها من قبل، لكن ماذا عن الأماكن التي تحب؟ مسرح الموسيقى، والمعبد الذى تتردد عليه، كانت الأفكار المتتالية تهتز بداخلها مثل حركة عربة الترام التي تجلس بداخلها، وعند مكان مقصدها نزلت من العربة واتجهت إلى الجانب الشرقي من نهر "فلتافا"، نزلت إلى الشارع تتفحصه فهي لم تعتَد أن تأتي إلى هنا كثيرًا، بالرغم من مرورها في هذا المكان عدة مرات على الأقل مع "فرانز" وأشار إليها أن هذا متجر "فاربا" للصباغة الذى يعمل به.

اتجهت صوبَ المتجر الذي كان بداخله عدة أرفف عليه العديد من أنواع الأصباغ، بالإضافة إلى العديد من الكتابات باللغة العبرية التي لا تجيدها، توحي بأنها نصوص دينية، لمحت رجلاً مُسِنًّا جالسًا على المكتب الخشبي في الجانب الأيسر لها من خلف منظاره الطِبي السميك، مرتديًا بزة قديمة ذات لون رمادي، وضع عليها غطاءًا قماشيًّا أسود اللون على يده اليمنى التي يستعملها

في كتابة بعض الأشياء في العديد من الدفاتر الموجودة أمامه.

تفحص الرجل العجوز تلك الشابة الشقراء التي ترتدي زيًّا مدرسيًّا حاملة حقيبة دراسية، وقام من مكانه متجها إليها وهو يمسح من على أعلى بزته التراب، راسما ابتسامة مصطنعة بعد أن عدل من وضعية منظاره الطبي السميك وقال:

- مرحبا بك سيدتي لدينا أفضل أنواع الصباغ.

ابتسمت متداركة الموقف وقالت:

- إنما جئت أبحث عن "فرانز"

تغيرت ملامحه المصطنعة بعد أن علم أنه لن يجنيَ منها المال، ثم حاول الابتسامة مرة أخرى بودٍّ وردَّ:

- "فرانز" في عمل خارج البلدة ليصفي بعض أموره المادية، لأنه سيسافر قريبا.

وضحت على ملامح وجهها الدهشة من هول ما قال، حيث أنها قابلته بعد سماع الأخبار المشئومة، لكنه لم يخبرها بذلك فقالت مصدومة:

- يسافر إلى أين؟

فرد الرجل:

- لا أعرف بالتحديد، لكن وجهته ستكون "ليتوانيا" على ما أعتقد

وقعت حقيبتُها على الأرض من هول المفاجأة وردَّت:

- "ليتوانيا"!!

* * *

كان قد مر على وجود "نوفاك" ما يقارب من نصف ساعة في منزله، وظل واقفا أمام مكتبته يتفحصها لاختيار بعضِ الكتب التي يجب أن يأخذها معه، لو كان بيده لأخذ كل هذه الكتب العظيمة التي أمضى عمره كله يبحث عنها ويقرأها، وكان العديد منها بمثابة المرشد له طوال السنوات الماضية، بل طوال حياته، فلديه العديد من المؤلفات منها المجموعة الكاملة لـ "نيتشه"، وكان ما يفضله منها هو "السائر وظله" و "مولد التراجيديا" وبعض الكتب عن الفلسفة بشكل عام والعديد من المسرحيات الدرامية الفرنسية والإنجليزية، وكان دائم الإعجاب بالمسرحيات الفرنسية التي تجعله يرى الأشياء برؤية مختلفة ومفهوم جديد، بالإضافة إلى الكتاب الأهم الذى أثر على تفكيره في الوقت الأخير "المدينة

اليهودية" للكاتب النمساوي "تيودور هرتزل" المؤسس الحقيقي لمفهوم الصهيونية، فالصهيونية لديه هي تنفيذ دولة لليهود بالرجوع إلى تعاليم الديانة اليهودية.

دق جرس الباب فتحرك تاركا الكتاب جانبا واتجه صوب الباب مباشرة ليفتحه، وبعد أن فتحه وجد "ادينا" صديقة ابنته وهي ترتدي معطفا مبللا من الأمطار الخفيفة التي بدأت منذ فترة قصيرة فأشار لها بالدخول بعد تبادل التحية، وخلعت القبعة المبللة التي كانت ترتديها ذات اللون الأحمر، ومن بعدها المعطف المبلل وظهر فستانها الأبيض ذو الخطوط الحمراء العرضية، حاولت مسح شعرها الذى طالته بعض الماء بالرغم من ارتدائها القبعة بكلتا يديها، وهي تبتسم لوالد "بارا" وقالت:

- بدأ المطر بعد أن نزلت من منزلي

ابتسم السيد "نوفاك" وعيناه تُرَاوِدَانِه باختلاس النظر إلى جسدها وقال:

- خير ما فعل المطر هو إظهاره جمال شعرك.

ابتسمت الفتاة في خجل وقالت:

- أين "بارا"؟

فرد عليها وعيناه لا تزالان تشتهيانها:

- إن "بارا" والسيدة "فيالا" غير موجودتين بالمنزل.

أكمل حديثه :

- ربما سيكون أكثر ما أفتقده في "براغ" هو أنتِ.

ضحكت خجلاً وقالت:

- إنها مسألة وقت، ستتأخر بعض الوقت...

حاول التقرب منها، بوضع يده على كتفيها...

- ربما من تأخر كثيرا هو أنتِ يا "ادينا" ، لو كنت أصغر بعشرين عاما لما ترددت بالارتباط بك.

أحست "ادينا" بعدم الراحة لكلام "نوفاك"، وهي خائفة من تطور الموقف لعلمها أن أحدًا لن يستطيع كبح جماحها، ورجعت خطوة إلى الخلف وردَّت:

- سيد "نوفاك"... أنت في مقام الوالد بالنسبة لي

أمسكها بشكل أقوى من حول ذراعيها، لكن توقفت الكلمات في فمه، فماذا عساه أن يقول؟ "... وأنتِ في مقام الحبيبة!!"، وماذا عساه أن يفعل فهو هائم في حب جسد تلك الفتاة بالرغم من صغرها... لا يعرف لماذا تذكر الخطيئة ووجود الله، ونظر نظرة أخيرة لها... وأبعد يديه عن كتفيها، وابتعد عدة خطوات إلى الخلف محاولا التغيير من نبرة صوته ومقصد كلامه وقال:

- "...عفوا... عفوا "ادينا"... ربما أكثرت من الشراب اليوم"

قالت له: وهى لا تزال ترغب بتكملته لما قاله ، لكنها خجلة:

- سيدي... هذا ما اعتقدته... فأنا في عمر "بارا"، والسيدة "فيالا" سيدة فاضلة... ربما الشراب هو السبب.

وكم كانت ترغب في المزيد، لكن السبب هو خوفه، فلو ضغط عليها ما كانت لتمانع.

قال الرجل وهو يتجه إلى المكتبة:

- ربما تأتي "بارا" في غضون نصف الساعة يمكنك الانتظار في غرفتها.

* * *

في الساعة العاشرة مساءًا ، كانت "بارا" قد ارتدت ملابسها كاملة، بالإضافة إلى معطفها المخصص للمطر، كانت على سريرها في غرفتها المظلمة، عدا من بعض الضوء الخافت بجانب سريرها الذى ظهرت من خلاله حقائبها المغلقة.

اصطحبت معها أغلب الملابس التي تفضلها، بالإضافة إلى الأحذية المميزة، وانتظرت لفترة حتى تتأكد من أن كلاًّ من والديها قد خلد إلى نومه.

حركت الغطاء من تحت سريرها وتلمست بقدميها الأرض، وعلى الإضاءة الخافتة اتجهت إلى باب غرفتها وفتحته بشكل بسيط ونظرت إلى شقتها، حاولت الإنصات جيدا، فربما كان أحد والديها لا يزال بالخارج لأي سبب كان، بعد التأكد من أن الطريق المؤدي للمنزل فارغ، اصطحبت حذاءَها في يدها، ووضعت قبعتها على رأسها، خرجت من باب غرفتها ونظرت إلى متاع بيتها الذي تبعثر نتيجة تجميع المقتنيات ومكتبة والدها شبه الفارغة إلا من بعض الكتب، ربما لم يكن لها متسع في الحقائب التي أعدت للسفر.

بعد التأكد من إغلاق باب غرفتها اتجهت صوب الباب بشكل مباشر، وبخطوات سريعة لكن يتخللها الحذر حتى لا يسمع أحد أصوات أقدامها، ففتحت الباب وخرجت منه وأغلقته بهدوء، ووضعت الحذاء على الأرض وارتدته، ونزلت السلم، فالوقت متأخر ويجب أن تأتي مسرعة.

الهدوء كان يخيم على الشوارع بشكل عام نتيجة البرد الذي اشتد ليلا، بالرغم من عدم دخول الشتاء بعد.

كانت الشوارع مضاءة بإضاءة تميل إلى اللون الأصفر مضيفة إلى الطرق المصنوعة من قوالب سوداء صغيرة ممهدة بانتظام.

لولا علمها بقدوم "فرانز" متأخرًا من سفره لما أقدمت على هذه الخطوة أبدا، لكن الوقت لم يعد لديه قيمة في مواجهة الفراق، جال بخاطرها العديد من الأفكار، وهل ستجده في منزله بعد كل هذا التعب، فالإحساس بالتخبط شيء صعب، والإحساس بالعجز عن فعل شيء أمر مذل، فالحياة في حد ذاتها مجموعة من المحرمات التي يجب الخضوع لها والامتثال إلى قوانينها، حتى تحصل على النجاة، لكن من ماذا النجاة ؟ العذاب؟ وماذا تسمي حالتها الآن ؟ أليس فراقها لجدتها ووطنها وحبيبها هو العذاب ؟ إذا ما هو الدافع في المحافظة على عدم تعدي المحرمات، فلو لم يكن هناك حساب لكان الجميع سعداء، كان كل هذا بداخلها في طريقها عبر الشوارع التي ربما لا تمشي بها مرة أخرى.

عبرت أحد جسور النهر إلى الجانب الغربي من المدينة، ومرت بالعديد من الشوارع حتى وقفت أمام بناية متوسطة المستوى لها نفس الطراز المعماري المتشابه، إنها تعرفها جيدا، إنها البناية التي يسكن بها "فرانز" مع والدته، حيث عرفت معنى التكامل الجنسيِّ لأول مرة.

المكان الذي تفقد به الفتاة عذريتها يكون مميزًا للغاية بالنسبة لها، إنه يُشعِرُها أنها أصبحت امرأة حقيقية إذا حدث ذلك مع من أحبت، يشعرها بأنها لم تعد تلك الفتاة الصغيرة،ربما يكون المكان المميز لديها أكثر من شريكها في الفراش، حيث إنها ربما تشارك مع غيره نفس اللذة لكنه المكان الذي وجدت فيه عدة مفاهيم لحياة جديدة بها الآلام، لكن المتعة أيضا.

صعدت السلم إلى الطابق الثاني، حتى وقفت أمام البيت المكتوب عليه رقم 4 بالحروف اللاتينية طرقت عليه طرقتين متتاليتين، وكم أرادت بشدة أن يكون هو المجيب، لم يرد أحد فكررت الفعلة حتى رأت من خلال الإطار المحيط بالباب القليل من الضوء، فعرفت أن احدهم قد استيقظ ليرى من الطارق.

بدأ الضوء في التزايد بعد فتح الباب على الردهة شبه المظلمة، وبعد لحظات من عدم الرؤية نتيجة قوة الضوء المنبعث من داخل المنزل مقارنة بالموجود خارجه، رأت سيدة في العقد الخامس من عمرها ترتدي ملابس مخصصة للنوم، ظاهرة من تحت المعطف الذى ترتديه، فاستنتجت أنها والدة "فرانز"، السيدة المكافحة التي رفضت الزواج بعد موت زوجها من أجل حماية مستقبل ولدها، وأضاعت أجمل سنوات عمرها في تربيته حتى أصبح رَجُلاً يهوديًّا مُخلِصًا وصالحًا في نظرها.

ابتسمت لها السيدة محاولة عدم إظهار النعاس على وجهها، فردت "بارا" بابتسامة مماثلة في خجل من الزيارة غير المتوقعة، وبدأت في الحديث:

- آسفة سيدتي، لقد أتيت من أجل "فرانز"

حاولت السيدةُ التركيزَ في ملامح الفتاة حتى تعرفت عليها وابتسمت.

- "بارا" أليس كذلك؟

أجابتها وهي تحرك رأسها بالإيجاب:

- نعم سيدتي

تبادلتا التحية، وطلبت السيدة من "بارا" الدخول إلى المنزل، وبعد دخولها خلعت معطفها ووضعته على قدميها، بعد أن جلست على المقعد المخصص للضيوف المواجه للشمعدان السُّباعي، وتفحصت الحقائب الموجودة بجانبه، كان إحساسا غريبا بداخلها كيف تأتي فترة أعياد السنة الجديدة بكل هذا الشؤم والسواد، ربما يرتبط بأشياء لا قيمة لها لدى الآخرين، قالت السيدة وهي واقفة أمامها:

- من الغريب أن تكون هذه أول مرة نلتقي فيها.

تذكرت "بارا" أن "فرانز" كان ينتهز فرصة عدم وجودها ليختلي بها وردت:

- أرجو أن نتقابل كثيرا في المستقبل سيدتي

ظهرت على وجه والدة "فرانز" نظرة لها العديد من المعاني، فهل هي خوف من المجهول؟ أم اقتناع بأن هذا مستحيل إلا بعد انتهاء الحرب القادمة.

وردت وهي تبتسم:

- سيكون هذا مؤكدًا، لكن تعلمين أنك أجمل بكثير من الصورة التي يحملها "فرانز" ؟

شكرتها في خجل، بعدها اتجهت والدة "فرانز" إلى غرفته بعد أن أخبرتها أنه لم ينم منذ أيام لتصفية أعماله، مما أصاب "بارا" بالخوف، بعد لحظات قليلة خرج "فرانز" مُسرِعًا وهو يرتدي ملابس نومه مندهشا من قدوم "بارا" في وقت غير متوقع وسألها بلهفة:

- هل كل شيءٍ على ما يرام؟

- نعم.... لكنني أريد التحدث معك

نظرت إلى والدته التي كانت واقفة خلفه، وقال ل " بارا " مشيرا بيده إلى غرفته وقال:

- تعالى لنتحدث في غرفتي

نظرت له الأم نظرة استغراب وقال بصوت أعلى:

- اتبعيني

قامت "بارا" من كرسيها، واتجهت نحو الغرفة وهي تتبادل الابتسامات مع السيدة، وقالت الأم:

- سأخلد للنوم مرة أخرى، سعدت برؤيتك يا "بارا"

كان "فرانز" قد وصل إلى غرفته التي يغلب عليها اللون الأسود، ذات السرير وخزانة الملابس وبجانبه منضدة صغيرة موجود عليها صورة له وهو طفل مع والديه، وقف بجانب السرير، وبعدها أشار إلى "بارا" بالجلوس، فجلست وأمسكت بالصورة تتفحصها جيدا وقالت:

- تشبه والدك إلى حد كبير:

فرد عليها بالإيجاب، ثم أكملت:

- أعلم أن الظروف صعبة... لكن يمكن أن تكون وجهتنا واحدة.

فقال لها ناظرا إلى الأرض

- بالطبع ستكون واحدة، سأمرُّ على "بولندا" في طريقي إلى"ليتوانيا".

فقالت "بارا" وبدأت عينها تمتلئ بالدمع :

- لماذا لا نبقى في "بولندا" معا، إنني أريدك، ولا أتوقع الحياة من دونك؟

فأجابها وهو بائس:

- ستذهبين إلى أقاربك، وأنا أيضا حيث أجد من يوفر لي العمل، وسنعود بعد أن ينتهي كل هذا.

بدأ أنينُها في التعالي:

- أريدك معي، يجب أن نكون سويا، حتى يمكن أن نتخلى عن ديننا، ونعتنق المسيحية، أو حتى ندعي الإلحاد، لنبقى سويا.

اتجه إليها، وضمها إلى صدره وبدأت عيناه تدمعان وهو يقول:

- لن أتخلى عن ديننا، حتى لو قتلت، إنني أريد الله، أريد الجنة.

فردت وهي وسط ذراعيه:

- إذًا خذني معك في أيِّ مكان حتى لو كانت "ألمانيا" نفسها.

فرد بأسىً:

- لست أنا الرجل الذى يحرم أبًا من ابنته... متى ستغادرين؟

قالت وقد أجهشت في البكاء:

- غدًا، كم أردت أن نبقى سويا إلى الأبد

- "بارا" سنبقى، لقد خُلِقنَا لنبقى.

اقترب منها أكثر، وضمَّها إلى صدره بقوة واعتصرها بين ذراعيه ونظر إلى عينيها، وبدأ بتقبيلها قبلة بعد الأخرى، حتى شعر أنها تريده، فأغرقها في أحضانه، دفع بجسديهما اللذَيْـن أصبحا جسدًا واحدًا إلى الفراش وبدأ بخلع ملابسه بعد أن مرت بيدها على شعره الأسود.

* * *

بعد أن مضى الليل في فراش "فرانز" ملتهبا، بالرغم من برودة الجو القارسة التي تخللتها بعضُ الأمطار، كان كلاهما يعلم أنها ربما تكون الليلة الأخيرة بينهما، فكافحا من أجل النشوة التي وَصَلا إليها عدة مرات، فالجنس مكمل للحب، بينما لا يستطيع الحب أن يكون مكملا للجنس، فالرغبة الجنسية مؤقتة بالرغم من لذتها ، والإخلاصُ في الفراش هو صلاة الحب المقدسة.

رأى "فرانز" عقارب الساعة التي اقتربت من الخامسة والنصف، وهو في فراشه و "بارا" إلى جانبه، لم ينم بعد أن حاول أكثر من مرة، للمرة الأولى بجانبه تقضي معه الليل كاملا، لكنها الأخيرة أيضا، فجال بداخله إحساس غريب ومرعب، ربما لن يراها ثانية، لكنه أحبها للغاية، تذكر أول مرة كان يراها، أول مرة كلمها عن طريق "ادينا"، أول لمسة ليدها، أول قبلة، أحاسيس كم أشعرته بالسعادة، لكنها الآن مصدر للألم ، تلمست أنامله خدها الأملس وأنفها، وقرر

إيقاظها حتى ترجع قبل أن يستيقظ أحد والديها.

أول ما نظرت إليه ابتسمت، وكأنه حلم كان يراودها، لكنها سرعان ما تذكرت فتأملته وتأملت صدره العارى غزير الشعر، ومررت يدها على صدره وقبلته فقال لها:

- هيا... ارتدِ ملابسكِ حتى أوصلك إلى البيت.

أثناء سيرهما إلى منزلهما اشتبكت أيديهما سويًّا وهما يَمُرَّان على الجسر مُتَّجِهَيْن إلى منزل "بارا"، كانت خطواتهما تتباطأ لعلمهما أنها ستكون مسيرتهما الأخيرة سويا، فشروق الشمس ليس إلا رمزاً لغروب حبهما، بعد أن وصلا أمام منزلها، قبلها وصعدت إلى شقتها، ذهبت مباشرة إلى غرفتها، وبعد فترة استيقظ والداها، وحضر بعضُ العمال لحمل المتاع إلى العربة السوداء في الخارج، الصمت كان المخيم الأكبر عليها هذا الصباح.

* * *

تابع والد "بارا" إنزال المتاع إلى السيارة، وبعد التأكد من وضع كل شيءٍ في مكانه المناسب، نادى على السيدتين، نزلت "بارا" و بعدها والدتها بعد أن تأكدت من إغلاق الباب بإحكام.

وعند نزولها أمام البناية، وجدت "فرانز" جالسا أمام أحد البيوت في الجانب المواجه لمنزلها، كان العمال يضعون اللمسات النهائية على السيارة بينما كان والدها يهم بالدخول لمقعد القيادة.

اتجهت إليه وهي تجري فقام واحتضنها بقوة، وقام كل منهما بتقبيل الآخر بجنون، أمسكت برأسه بين كفيها متلمسة شعره وناظرة إلى عينيه، بينما لم يرَ هو في عينيها إلا الدموع.

كانت قد ركبت "فيالا" السيارة بجانب زوجها، أعطى "فرانز" لـ "بارا" ورقة وأخبرها بأنها تحمل عنوانه في "ليتوانيا".

لم يكن معها شيء لتعطيه إياه، فوضعت يدها في معطفها باحثة عن شيءٍ فلم تجد إلا عملة نقدية ذات لون براق فأعطتها له بعد أن احتضنها.

وبدأ الاثنان في الحركة تجاه السيارة، ونظراتهما لا ترى غيرهما، حيث توقف المكان والزمان، ما حال الدنيا، فماذا فعل كلاهما للآخر لكي يبتعدا، فتح الباب وأجلسها وأغلقه بقوة خلفها، وأحس والدها أنه الوقت المناسب للرحيل قبل

تصاعد الأمور، ورفضها المغادرة، وضعت كفها على زجاج السيارة من الداخل بينما وضع كفه من الخارج فبَدَيا كأنهما يتلامسان وسط انهيارها في البكاء، وقال لها بصوت عال كي تسمعه:

- اقرَأي الصلاة كي تصلي سالمة "بارابورا"، أنت أفضل ما حدث وما سيحدث لي، لا تخافي سنبقى للأبد معا.لقد خلقنا لنبقى .

حاولت النزول من السيارة، لكنه وقف خلف الباب واضعا يده عليه بقوة حتى لا تستطيع أن تفتحه، وانطلقت السيارة عبر قيادة والدها، وهو لا يزال واقفا في مكانه متأملا صورتها ربما للمرة الأخيرة في حياته.

كانت لا تزال تنظر له من الزجاج الخلفيِّ للسيارة حتى انتهاء الشارع، وانتهت معه رؤية "فرانز" وهي تبكي ونظرت للورقة التي أعطاها إيَّاها وقرأت:

"بارابورا" و "فرانز" سيبقيان معا إلى الأبد.

وتحتها العنوان بخط واضح في "ليتوانيا" وبعدها:

- "لتكن مشيئتك، إلهنا، ربنا ورب أجدادنا، اجعلنا نصل لوجهتنا المقصودة في الحياة، سعداء في سلام، ولتحمينا من كل خصم وكل كمين لنا على طول الطريق".

* * *

الإسكندرية 1942

الصديقة المقربة لـ "سارة" تدعى "دولت"، وعلى الرغم من انتشار اسمها وسط الطبقات الأرستقراطية إلا أنها تفضل اسمًا اختلقته هو "دودي"، وكثيرا ما تنظر بغضب لمن يناديها باسمها الحقيقي حتى أن البعض يعتبره جزءا من العقاب أو التوبيخ، ربما رفضها لواقعها هو السبب، فبالرغم من المستوى المادي والاجتماعي الجيد الذي تعيشه ، فوالدها "محمد سلام" أحد قلائل المصريين الذين عملوا في المحاكم المختلطة قبل إلغائها في عام 1936، وبعدها تم إلحاقه بالعمل في سراي الحقانية كقاضٍ، أما أمها فسيدة من صعيد مصر ، صبورة انتظرت والدها وصعدت معه خطوات التطور الاجتماعي دون الاهتمام لعامل الوقت، واضعة نصب أعينها هدفًا واحدًا هو أن تصبح في يوم من الأيام مثل الطبقة العُليا،أو على الأقل المقربين منها، إنه الهوس بالصعود الاجتماعي ومحاولة تناسي الجذور، كل هذه التخبطات كان لها تأثيرٌ على "دودي" فهي بداخلها تعلم جيدًا أنها لا تمتلك ما تدعي، لكنها وجدت ضالتها في وجود هالة حولها من الوهج يخفي ما يعتقد أنه عيوب بداخلها، فهي تعلم جيدًا أنها لا تملك العائلة الأرستقراطية التي تنتمي لها "سارة" ولا جدتها أجنبية ورثت عنها الشعر الأحمر، فجمالها متواضع للغاية أو بالأحرى شبه منعدم نتيجة امتزاج الأصول الجنوبية، فأيقنت أن كل ما تملكه من مؤهلات تجعلها مميزة هو عقلها، فهو العامل الأكثر تميزًا بالنسبة لها، فبالطبع تكون المرأة الجميلة نادرة التفكير فما الدافع للتفكير وهي حاملة للمؤهلات الأنثوية العُليا في المفهوم الذكوري فجمالها هو ما سيوفر لها الزوج المناسب الذي سيكفي احتياجتها، أما متواضعة الجمال فالأمر مختلف فمهمتها أصعب، فمن الواجب عليها أن تُقنِعَ الرجل في بداية الأمر أنها مميزة بشكل مختلف عن الجمال، وتحاول بعدها تعويض إحساس النقص الذي بداخلها عن طريق الادعاء فالهالة التي اختارتها "دودي" حولها هو تفوقها الدراسي، ومحاولة الاجتهاد لتصبح شيئًا مميزًا بالنسبة للآخرين، أما عن أسلوبها في الحياة، فقد اختارت أن تكون مثقفة، وتحاول القراءة بشكل جيد في أغلب الموضوعات الأدبية المتاحة ولا تجد ضررًا في الزج بكلمات من الإنجليزية

أثناء حديثها، دون مبرر وكأنها إحدى المُهاجِرَات لتدلل على ثقافتها الزائدة، فكل ما تتباهى به هو مجموعة افتراضية من الأفعال لتجذب المتفرج، وتشعر بالرضاء الداخلي كونها مميزة على الأقل في وجهة نظرها.

بالرغم من ادعائها الدائم أن "سارة" هي صديقتها المقربة إلا أنها داخليًّا تشعر بالغيرة منها إلى حد كبير فـ "سارة" هي الكائن الذي أرادت أن تكونه "دودي" أرستقراطيتها، جمالها... حتى عائلتها، والتقرب من "سارة" هو بمثابة تعويض معنوي عمًّا تفتقده ... ربما فاقد الشيء لا يعطيه، لكن ربما يتأمله أو حتى يحاول الاقتراب منه.

مرَّ الصيفُ سريعًا، وكان أكثر ما يميزه هو تعدد لقاء كل من "سارة" و "يوسف"، أصبح الجزء المشترك الأكبر في تفاهم كليهما هو الآخر، ربما ارتقى "يوسف" لدى "سارة" لكي يصبح صديقها المفضل، إنه يحاول تَفَهُّـمَهَا والتواصُلَ معها، بدأت الأحاديث المشتركة عن الموسيقى وتدافعت إلى كل شئ، أما هو فقد وجد بها ما لم يرَه من قبل، أصبح مفهوم الأنثى لديه مختلفا بمجرد دخول "سارة" حياته، أصبحت كاتمة أسراره، أصبحت النسمة اللطيفة التي تصطدم بندى الصباح على الأوراق الخضراء، التفاهم بينهما أصبح مذهلا، وجدا أن العلاقة بينهما تكميلية إلى حد كبير، أما والدة "سارة" السيدة "منال" فقد رأت أنه لا ضرر في ذلك فهو في النهاية يهودي وهي مسلمة ولا يمكن على أية حال أن تتطور العلاقة لأكثر مما هي عليه الآن، مجرد زميل لدروس الموسيقى والعلاقة الجيدة مع أسرة مثل أسرة "حداد" شيء مهم اجتماعيا، ربما عطفت عليه بسبب فقدانه لأمه فهو مهذب إلى حد كبير و من عائلة جيدة، ربما وجدت فيه الابن الذى كانت تطمح بإنجابه لتخليد اسم زوجها، الحياة لا تُعطي كل شيءٍ لكل الناس، كان في فكرها أن تنمو العلاقة بينهما تحت إشرافها في إطار الصداقة وأمام عينها خيراً مِمَّا لا تُحمَدُ عُقباه، فالفتاة في سنٍّ حرجة وربما تحاول استطلاع ما لا تعرف عن طريق التجربة، وهذا ما لا تعتقده مناسبا، أحيانا كانت تطلب منه بشكل مباشر أو عن طريق "سارة" أن يحضر معهم أثناء تنزههم على الشاطئ أو حتى في نادي "سبورتنج"، فبالرغم من يهوديته فإنه لا يزال من عائلة "حداد" وكان القبول التام من أسرة "يوسف" وبالأخص والده الذي كان

يعتقد أن تواجد "يوسف" مع أشخاص في نفس إطاره السنِّـيِّ مع وجود سيدة ناضجة ربما يعوضه عن حنان أمه المفتقدة، كان تواجد "دودي" و "جيمي" متفاوتًا في الأحداث ولكن ظلا قريبين من الطرفين، وبدأت النوات مرة أخرى وعاد الشتاء المميز لـ "الإسكندرية"، وقارب شهر ديسمبر على منتصفه والجو السكندريُّ لا يزال رافضا للهدوء، من الأمطار والعواصف، ربما تكف السماء عن العطاء قليلا.

أتمت "سارة" عامها الثاني عشر منذ أيام قلائل، قرر حينها "يوسف" أن يجعل يوم التاسع من ديسمبر للعام 1941 يومًا مميزًا بالنسبة لـ "سارة" فهذه هي المرة الأولى التي تمرُّ عليهما مناسبة من هذا النوع، فقد مر عيد مولده في أوائل مارس دون أن توطد العلاقة بينهما بهذا الشكل، وكما هي عادته فهو يعلم أن الإبهار للحظات يتطلب العمل الشاق لأوقات طويلة، فما كان منه إلا أن اجتمع برفيقه "جيمي" قبل الموعد بأسبوع كامل لمحاولة اختيار شيءٍ مُناسبٍ لفعله كي يعبر للصغيرة عن إعجابه بالتقرب منها، تخبطت الأفكار بينهما فلم يتوصل أحدٌ منهما لشيءٍ، أراد أن يقدم لها قلادة تحمل الحرف الأول من اسمها بالإنجليزية ، لكنه تذكر أنها دائمة ارتداء واحد، أما الزهور فهو لا يجد بها شيئًا مُقنِعًا، وإذا اختار إحدى العرائس الصغيرة سيعني ذلك أنها لا تزال طفلة، فما كان من "جيمي" الذي سئم الحديث إلا أن يطلب "يوسف" من أخته "ارينا" هدية مناسبة للفتاة الصغيرة، على أن تكون مميزة إلى حد كبير، وبعدها بلحظات كان أمام أخته الكبرى "ارينا" يطلب منها ذلك، وبعد مرور أربعة أيام أتت له "ارينا" بهدية مميزة، وحرصت على عدم لفِّها داخل الأوراق الملونة إلا قبل أن يطَّلِعَ "يوسف" عليها، ووضعت أمامه الصندوق الخشبي الصغير، فاندهش ماذا يوجد بداخله، وبعد تفحصه أقرَّ بعدم قدرته على معرفة ما بداخله، فتحته وأخرجت ما بداخله فوجد كرةً بلُّوريَّةً شفافةً تحتوي على تمثال صغير لبابا نويل مُرتديًا ملابسَه الحمراء، وبين الكرة البلورية والتمثال يوجد سائل لزج وعلى الجزء السفلي بجانب التمثال الصغير ما يشبه نشارة الخشب بيضاء اللون كالثلوج، أشارت له أن يقلب البلورة رأسًا على عقب ثم يُعيدها كما كانت، فوجد الثلوج تنهمر على البابا نويل وكأنها تمطر ثلجا وأخبرته أنها تدعى بالإنجليزية كرة الثلج.

شعر أنها مميزة للغاية وربما تكون مميزة للفتاة أيضا، لكن قرر بعدها أن يعطيها لها بشكل استعراضي كما يجب، ووجد ضالته في الخادمة "سناء" التي تعمل في منزل "سارة" وبعد فترة من مراقبتها، استوقفها في الشارع أثناء ذهابها لقضاء احتياجات المنزل وطلب منها أن تضع الصندوق الملون على سرير "سارة"

في أثناء الليل بحيث يكون أول ما تراه في الصباح عند استيقاظها يوم عيد ميلادها، رفضت في البداية مُدَّعِيَةً المسئولية، لكن بعد وعده لها بإعطائها مبلغا من المال... وافقت، لكن أخبرته بأنها ستنكر معرفتها بالأمر منذ البداية في حالة حدوث مالا يتناسب مع رومانسية الموقف من والدتها أو من "سارة" نفسها فوافق "يوسف" وبالفعل استمرت الخطة بالشكل الذي توقعه الفتى، وعند استيقاظ "سارة" من نومها يوم عيد ميلادها وجدت الصندوق الصغير المغلف بأوراق ملونة إلى جوار سريرها فاستغربت شكله وأمسكت به ورأت إلى جوار الورق الملون بالأحمر بطاقة صغيرة مكتوب فيها بخط اليد بالعربية: "أتمنى أن تعيشي مائة عام" ، وفي التوقيع كتب "يوسف"، فرحت للغاية و ابتسمت وأحست بسعادة كبيرة ووضعت البطاقة جانبًا وبدأت بفتح الصندوق بعد انتزاع الأوراق بشغف ورغبة في معرفة الهدية فوجدت كرة الثلج، كانت سعيدة للغاية بالهدية فهي تعرف دائما قرب موعد عيد ميلادها بأعياد الكريسماس، لكن أحدا ما لم يفكر في جمع الاثنين معًا، أحست يومها للمرة الأولى في حياتها أن "يوسف" ليس مجرد صديق، ربما أكثر ، لكنها لم تحدد هويتة من نشوة فرحتها... حاولت الوصول إلى "يوسف" في نفس اليوم لكنها لم تستطع بسبب اختفائه غير المبرر، ربما كان خائفا إلى حد كبير من رد فعلها، وفي المساء اتجهت مع صديقتها "دودي" إلى السيدة "ماريز" وبدأت في سرد ما حدث لها في الصباح، وكيف وجدت الهدية ولم تستطع إيجاد "يوسف" إلى الآن، ابتسمت السيدة العجوز ابتسامة ذات معانٍ فهي تعرف ما لا تعرفه الفتاة الصغيرة وخبرتها الحياتية كفيلة بإيجاد أشياء مختلفة بالنسبة لها وشعرت بكم البهجة والسعادة عند "سارة"، فالفتاة الصغيرة ربما قد خفق قلبها للمرة الأولى ذلك الحب الذي لا يُنسى مهما تعددت المحاولات في البحث عن حب آخر، لكنها تعلم أنها في مجتمع شرقي وليست الأمور بسيطة كما في أوربا، فلو كان نفس الموقف تكرر في "أثينا" أو "روما" أو حتى "برلين" لكان الجميع مساندا للصغيرين حتى يتلمسا خطواتهما الأولى على طريق العطاء، لكن الأمر هنا مختلف، لاحظت العجوز أمرا غريبا بالنسبة لها أنه كلما زادت "سارة" في التوضيح للأحداث وشرح مدى سعادتها، تزداد نظرات الحقد في "دودي" أيقنت ساعتها أنها تشعر بالغيرة

تجاه "سارة" بالرغم من محاولتها إظهار علاقتهما في إطار من الصداقة المطلقة والحب المخلص، وبعد أن أنهت كلامها عما حدث توجهت "سارة" بالسؤال إلى السيدة "ماريز":

- ما رأيك فيما حدث من "يوسف"؟

أجابت السيدة بعد لحظات من التفكير:

- يبدو أنه مجنون إلى حد كبير.

صدقت العجوز عندما وصفته بالجنون، فهو مجنون بالفاتنة ذات الشعر الأحمر.

* * *

ينقسم اليهود عِرقِـيًّا إلى طائفتين رئيسيتين الأشكيناز وهم يهود غرب ووسط وشرق أوربا، بالإضافة إلى بعض المهاجرين في العالم الجديد، والسفارديم وهم ذوو الأصول الإسبانية الذين طُرِدُوا في نهاية القرن الخامس عشر من إسبانيا جنبا إلى جنب مع المسلمين فِي حروب الاسترداد، وانتشروا في البحر المتوسط والبلقان وأصبحوا من رعايا الدولة العثمانية أو تجنسوا بجنسيات أوربية أخرى.

ربما تكون "الإسكندرية" من الأماكن القليلة على وجه الأرض التي احتوت جميع الجنسيات بتعدد أديانهم واختلاف طوائفهم، العلاقة بين السفاريم والأشكيناز كان يشوبها التوتر من القرن التاسع عشر، حيث رفضت الطائفة السفردية ذات الأغلبية الكاسحة في التعداد طلب الأشكيناز في تكوين طائفة منفصلة، مما جعل بعض الحساسية في الاختلاط بشكل عام بين الطائفتين.

كان "ايزاك" في طريقه إلى متجر البن الذي يمتلكه صديقه "ميشيل سفيانوبولو" اليوناني الجنسية المصري الهوى، فقد بدأ والده في تجارة البن في نفس المتجر الذى يوجد بالدور الأرضي لإحدى البنايات القديمة في شارع "سعد زغلول" الذي بدأ العمل في عام 1908 عن طريق الخواجة "سفيانوبولو" والد "ميشيل" الذي ترعرع بـ "الإسكندرية" ويعتبر من أكثر أماكن بيع البن على جميع أنواعه شعبيةً بسبب التفاني والإخلاص الذي يتمتع بهما "ميشيل"، إضافة إلى السمعة الطيبة التي ورثها عن والده، نظر إلى باب المتجر ذي الإطار الخشبي حول الزجاج المكتوب عليه المحل مفتوح، واتجه إلى الجانب الأيسر من المحل الذي يحتوي على المكتب الخشبي المخصص لـ "ميشيل" ومن فوقه العديد من الدفاتر الورقية التي كان منهمكا بالعمل بإحداها، ورأى الجزء الآخر الذي يحتوي على منفذ البيع الخشبي وأنواع متعددة من البن غير

المطحون داخل صناديق زجاجية ومن أمامها المطحنة الكبيرة المصنوعة من مادة صلبة ذات لون براق، قام "ميشيل" من مجلسه ، يبدو في ثلاثينياته ذو ملامح يونانية بوجهه الأبيض المائل للسمنة وشاربه المائل للون الأصفر وشعره البني ذي اللون الفاتح وعينيه البنية من مجلسة،و احتضن "ميشيل" "إيزاك" وقال له مبتسمًا:

- لم أرَكَ منذُ أسبوع "ايزاك".

فأجاب "ايزاك" وهو يتجه للجلوس على الكرسي الذي أمام المكتب بعد تبادله التحية الحارة معه قائلاً:

- مررت على المتجر منذ يومين ولم تكن موجودا.

فردَّ "ميشيل":

- الأيام الماضية كانت صعبة للغاية، وقد ارتفع ثمن البن مع جميع المنتجات الأخرى.

فقال "ايزاك":

- ربما الحرب المتوقعة هي السبب

ودار بينهما الحديث بعد ذلك عن الأوضاع السياسية الراهنة، فدول المحور بدأت ترى العالم بنظرة الملكية فبعد زحف "ألمانيا" النازية إلى "روسيا" وهجوم "اليابان" على الميناء الأمريكي "برل هاربور"، واتجاه الفيلق الأفريقي للجيش الألماني بخطوات متقدمة نحو الشرق في اتجاه عبر الأراضي الليبية، ربما الأوضاع ستزداد سوءًا في الأيام القادمة، وقد رأى "ميشيل" أن التأييد الشعبي المصري للقوات الألمانية بقيادة "روميل" لا ينم عن تأييد لمفهوم النازية، ربما كراهية في المستعمر البريطاني، وأن التأييد لقوة أخرى معادية لبريطانيا هو السبيل الوحيد نحو الخلاص والاستقلال.

استشعر "ايزاك" حينها الرعب من فكرة وجود احتلال "ألماني" في "مصر"، فهو لا يتخيل تحت أي حال من من الأحوال تطبيق قوانين محكمة "نيورمبرج" عليه داخل "الإسكندرية"، ومفهوم وجود جيتو سكندري غير وارد في قاموسه، كل ما تمناه ولم يفصح عنه من خلال حديثه هو ألا يحدث معه مثل ما حدث مع محبوبته "بارا"، ألاَّ يهاجر ولا يترك متجره والمدينة التي لا يعرف سواها، لكن التأييد الشعبي جارف للتخلص من الاحتلال البريطاني، فاستقلال وطنه الذى طالما حلم به لا يجب أن يكون على أنقاض آماله وأحلامه بل سلامته الشخصية، وسلامة أهله وطائفته... ربما الموقعة الأخيرة في خط الدفاع عن "الإسكندرية"

ستكون في "بنغازي" بعدها سيكون طريق "روميل" إلى "الإسكندرية" خاليا ، أحس وقـتَـها "ميشيل" أن الغضب ربما يعرف طريقه إلى "ايزاك" فحاول تغيير مسار الحديث وأخبره أنه حصل أمس على زجاجة من الويسكي الأسكتلندي الفاخر يرجع تاريخ تعتيقها لخمسة عشر عاما منصرمة، فضحك "ايزاك" وقال له إنه ربما سيحظى منها على كأس في وقت آخر، فاليوم مهم للغاية بالنسبة له ويجب أن يحافظ على وعيه لأقصى درجة ليكون رد فعله سريعا عن أي سؤال غير متوقع قد يصادفه، ونظر إلى الساعة المعلقة على الحائط خلف الكرسي الخاص بـ "ميشيل"، فوجد عقاربها قد قاربت الرابعة والنصف ، وعرف أنه قد يتأخر على ميعاد "بارا" في الخامسة، فاستأذن من "ميشيل" ووعده بلقاء آخر في وقت قريب، بعدها تذكر أنه قدم لتهنئته بعيد رأس السنة الميلادية الجديدة، فهنأه وانصرف إلى سيارته خارج المتجر.

* * *

بعد مرور عشرين دقيقة من ترك "ايزاك" لـ "ميشيل"، كانت "بارا" في المكان المناسب لموعدها مع حبيبها الحالي "ايزاك" في الجزء الشرقي من المدينة وعلى شاطئ البحر عند منطقة "بئر مسعود"، هذا هو المكان المفضل لديهما فقد شهد القبلة الأولى بينهما منذ ما يقارب الشهرين، وبدا أن خوف "بارا" من البحر يقل تدريجيا، ربما السبب يرجع لرؤيتها منظر الغروب بالقرب من الصخور وإلى المياه الزرقاء، أو ربما إحساسها الذى بدأ ينمو بالأمان عند تواجدها مع "ايزاك"، أو ربما إحساس داخلي في الرغبة من التخلص من هموم الماضي والبحث عن فرص جديدة لبدء حياة متزنة ليست كسابقتها... لكن ربما تتوافر بها الحاجات الرئيسية للإنسان.

الحياة في "الإسكندرية" ليست سيئة على الإطلاق، ربما أصعب ما بها هو عدم إجادتها للعربية من أجل التعامل اليومي، لكنها تجيد الفرنسية والعديد من السكندريين يجيدونها، والعمل في متجر "شيكوريل" مناسب للغاية، أما عن حياتها الترفيهية فجزء كبير منها مع "ايزاك" الذى يتفانى في إسعادها، وعن أدائها لطقوسها الدينية فالمعابد متعددة بـ "الإسكندرية"، إضافة لعدم وجود أي اضطهاد من أي نوع مثل أوربا، فهنا لا تجد ما يخيفها في الكشف عن يهوديتها، إضافة إلى إنه لا يهتم أحد بالسؤال عن الجنسيات والديانات والكلُّ يقبلُ فيها الكلَّ في تناغم، والشقة الجديدة التي تسكن بها مع عائلتها كاملة ومحببة لها للغاية، وإيجارها الشهري مناسب وأوفر بشكل كبير عن فندق "الشعب" المتواضع الذي لجأت إليه مع أسرتها منذ قدومهم إلى "الإسكندرية"، ووالدها

"نوفاك" والسيد "يوهان" يعملان الآن ببنك مصر، أما عن والدتها "فيالا" والسيدة "نستازا" فتكتفيان بالجلوس في المنزل، أما "ايفانا" فقد بدأت في تعلم الإنجليزية لكي تحظى بعمل، بالإضافة إلى تواجدها الدائم مع جماعة (الرواد المتحدين) أكبر حركة شبابية صهيونية في "الإسكندرية"، التى أقامها المجلسُ الصهيونيٌّ لوجود وحدة حزبية لفكر الجماعات الصهيونية، حيث وجدت من تتفاهم معهم ويشاطرونها أحلامها، وبعض الوقت أيضا في نادي "مكابـي"، لكن "بارا" تفضل نادي "سبورتنج"، بسبب وجود سباقات الخيل المتعددة التي بدأت أن تعشقها بمساندة "ايزاك".

أحست بالهواء البارد القادم من البحر وكأنه يحتضنها ونظرت إلى الأمواج المتلاحقة، الشمس قد قاربت على الغروب، الجو به برودة بعض الشيء وقد يكون السبب أنه شهر ديسمبر، تذكرت حينها الصيف المنصرم، إنه أول صيف تقضيه في مدينة ساحلية على الإطلاق، إضافة إلى تواجد حبيب جديد أنساها من سبقه، وجدت به الملتزم الشرقي الذي يحبها لدرجة التقديس، بالرغم من إحساسها في بعض الأحيان من تخوفه البوح بما يضمر، ربما تكون عادة شرقية فهي عرفت أن العلاقات الجنسية مع المصريين غالبا ما تكون في الإطار الشرعي لكنه في موطنها مجرد حالة من التعبير عن الإعجاب قد تصل في بعض الأحيان إلى الحب، تحت المفهوم الأكبر وهو الحاجة الجسدية، وجدت في قبلته ما لم تعتَده من قبل إنها العاطفة أو الإحساس عن التعبير، ربما مظهره الصارم لا يوحي بذلك لكنه إلى حد كبير جيد التقبيل، التفت حول خصرها يدان يحتضناها من الخلف وهي في غفلتها مع البحر، أحست بالتفاجؤ في البداية ثم أدركت أنه "ايزاك"، حركت يديها إلى رأسه الملاصقة لرأسها من الخلف ومرت يداها على خديه ثم أذنيه لتستقر على شعره وتتحسسه حتى إنها أسقطت طربوشه الأحمر، بينما كانت عيناه وفمه على شعرها الأصفر زكيِّ الرائحة، استدارات لتصبح بين ذراعيه، وشبت بقدميها لتصل لوجهه وقبلته وقالت له:

- تأخرت كثيرًا.

نظر "ايزاك" إلى الطربوش الملقي على الرمال وأعاد النظر إلى عينيها وقال:

- "بارا" لا أريد أن أترُكَكِ إلى الأبد

واحتضنها بقوة، وبدأ بالهمس في أذنها اليسرى وهو ناظر إلى البحر قائلا:

- تعلمين كم أحبك، لكني لم أعتد أن أقولها... عرفت السعادة معكِ... لكن ما سأقوله لا يُلزِمُكِ بأيِّ شيءٍ... "بارا" أعرف أنني من "سفارييم" وأنت من "الأشكيناز" لكن العيش بدونك أمر محال، أريد أن أتزوجك.

حركت من رأسها لكي تصل النظر إليه وهي في ابتسامة وقالت:

- حتى وأنت تطلب الزواج مني تتحاشى النظر إليَّ.

فأجابها وهو ينظر إلى عينيها:

- سحرهما يُخيفُني.

فاحتضنته ووضعت شفتيها بالقرب من أذنه كما فعل في السابق وقالت:

- كل ما يهمني هو أنت، عندما نُرزَقُ بأطفال ستعلمهم أنت العربية، وأنا التشكية، لكي يتفاهموا معنا بلغتنا الأم.

أحس وقتها أنه يستطيع أن يمنع الشمس التي بدأت تحتضن البحر أثناء غروبها عن تكملة مسيرتها وأن يوقفها على هذه الصورة للأبد، لتذكره بالحلم الذي كان يأمل في تحقيقه.

* * *

تزامنت إجازة نصف العام الدراسية مع بداية السنة الجديدة، الجميع يحلم أن يكون العام 1942 أفضل ولو بشكل نسبيٍّ مما سبقه، فجزء من الطبيعة الإنسانية محاولة إقناع الذات بأن القادم سيكون الأفضل، ربما رعبه منه في وجود الحلم حتى يجد ما يعمل من أجله... القادم أفضل، حتى تبرير وجود الموت بحياة أفضل في حالة النجاح في الاختبار، مكان أفضل .... أناس أفضل، أي صفة أو فعل يمكن إضافة كلمة أفضل لهما، لتجد الحلم ويتضح وجود الدافع البشري للوصول للغاية، والغريب أن الغاية غالبا ما تكون متحركة ومختلفة في بعض الأحيان، فالغاية متحركة والدافع يختلف ويظل البحث عن المطلق هو الأسمى وقليلٌ منهم من يصل.

كان البرد قارساً على الرغم من أن الشمس المشرقة في صباح ذلك اليوم من يناير، التقى "يوسف" بصديقه "جيمي" عند محطة الترام بـ"الرمل"، وانتظر فترة حتى أتى الترام الكهربائي ذو اللون الأزرق ذو العربة الواحدة، تمهل حتى توقف واتجها إليه ليستقلاه، واختار "جيمي" أن يجلس إلى المقعد القريب لمنفذ

الهواء، بدا وكأن "جيمي" قد تاه وسط الزحام وهو شارد الذهن ناظرٌ إلى اللاشيء، مجرد اتجاه للنظر دون استطاعة تفهم المنظر، كان "يوسف" يعرف جيدًا أن رحلته إلى "الشاطبي" قد تستغرق قرابة النصف ساعة في الترام وسيلة المواصلات المميزة لـ "الإسكندرية" فالاتجاه نحو الشرق سيأخذ بعض الوقت، حيث إن الترام سيتوقف في عدة محطات قبل الوصول إلى محطة "سان مارك" في "الشاطبي" عادة في الأيام الدراسية تكون هذه الرحلة جزءًا من روتينهم اليوميِّ من وإلى المدرسة، لكن الرحلة اليوم مختلفة فهو في زيارةٍ لقبر والدته، كان من عادته أن يجد والده يوم الأثنين من كل أسبوع هناك، وأن يتوجها بعدها إلى المنزل في سيارة والده، انتهت أيام الدراسة ووجوب الزيارة هو ما جعله يتجه إلى هناك، أحيانا لا يتذكر يوم الاثنين مرَّ دون تواجده هناك.

كان "جيمي" لا يزال شارد الذهن ووجد "يوسف" أن ثمة شيءٍ غير طبيعي قد حدث له، وسط شروده دفع "يوسفُ" "جيمي" بيده وكأنه يضربه لكنه لم يُرِد ذلك فاقتنع أن "جيمي" حزين للغاية أو يفكر في شيءٍ ما بشكل عميق فليس من عادته أن يكون ساكنا فبادره بسؤاله:

- تصرفاتُـك اليوم هادئة إلى حد كبير

نظر له "جيمي" وهو لا يريد أن يتكلم ولكن بعد إلحاح من "يوسف" رد عليه وهو مصاب بما يشبه الصدمة.

- أبي لن يدخل معنا الجنة .

وعند سؤاله عن السبب أجاب "جيمي" : إن هناك سببين وليس سبب واحد أولهم أنه وجد في خزانة الملابس الخاصة بوالده بمحض الصدفة زجاجة خمر نصف ممتلئة ، وأضاف أن الله لا يُدخِلُ الجنةَ من يشرب الخمر ، أما السبب الثاني إنه في الليلة قبل الماضية قبل أذان الفجر بوقت قليل وهو في اتجاهه لقضاء حاجته سمع أصواتًا منخفضة قادمة من المطبخ وبعد اقترابه منه اتضح أن والده يقبل ويداعب الفتاة الريفية التي تعمل لديهم كخادمة .

عندها بدأت العديد من الأفكار ان تتواجد في رأس "يوسف"، أترى أمه الآن في الجنة، هل سيكونان هناك معا بعد موته. ربما يكون هناك السيد "أنطوان" أيضا، إنه يريد النار إذا كان ذلك السيد معه في الجنة. ولو كانت الحياة أفضل بعد الموت لِمَ لا يخلص نفسه منها ويصل إلى ما هو أفضل، كان يعرف جيدا أن سبب حزن

"جيمي"، ليس بسبب خوفه من عدم دخول والده الجنة، ولكن لإعجابه الكبير بخادمته الريفية ذات القوام الممتلئ . قمحية اللون، الغريب أنها تكبر "جيمي" بأربعة أعوام فقط أي في السادسة عشر.

توقف الترام عند محطة "سان مارك" بـ"الشاطبي"، ويرجع اسم المحطة إلى وجود مدرسة "يوسف" العريقة "سان مارك"، ونزلا من الترام وأول ما وضح لهما ملجأ الأيتام اليوناني الذي يوجد في مبنى كبير على شكل منزل على الطراز الريفي الإنجليزي مجاورة له حديقة بها العديد من الأشجار العالية التي يستطيع "يوسف" أن يراها من فصله، عبرا في الاتجاه الأخر نحو الشارع العمومي الطويل شبه الخالي وعلى جانبيه العديد من المدافن للعديد من الطوائف واتجها نحو الباب الحديدي، الذى يتوسط سورًا عليه لافتة للتعريف بالمكان، إضافه إلى "نجمة داوود" حجرية بشكل متوسط على جانبي الباب، نظر "يوسف" إلى الكرسي الخشبي الذى غالبا ما يتواجد عليه الحارس فلم يجده. اتجه مع صديقه وسط المقابر التي توجد في أرض خضراء واسعة بها العديد من الأحجار الرخامية الموضوعة بشكل رأسي، مر بجوار نافورة المياه الرخامية وسط المقابر.

سلك الجانب الأيسر واتجه بشكل مباشر في طريق مستقيم نحو مقبرة والدته أحس حينها "جيمي" أنه من الواجب إعطاء يوسف خصوصيته ووقف بعدها يوسف أمام الحجر الرخامي ذي اللون الأبيض المنحوت عليه " منيرة عازر" بالعربية وبعض الحروف العبرية التي لا يعرفها، وبداخله يقين ككل مرة أنه السبب الرئيسي في وفاتها بسبب ميلاده، فقد ماتت أثناء ولادته، أخرج من جيبه حجرًا صغيرًا كان محتفظًا به مسبقا وقَـبَّله ووضعه على الحجر الرخامي وأخذ يرتل بعضًا مما يحفظه من التوراة.

* * *

صعدت " ارينا "درجات سلم بنسيون (روزيكا) إلى الطابق الثاني للوصول لغرفتها المعتادة مع حبيبها "أوجستين"، ربما مصطلح حبيبها لم يعد يصف الموقف كما هو عليه، في داخلها كانت تعلم أن الوصف الصحيح قد يكون عشيقها، تذكرت منذ أشهر عدة كيف فقدت عذريتها على يديه، وكم انهارت في بداية الأمر بدافع الشرف والمحافظة عليه، وتذكرت أيضا كيف انتظرت ثلاثة أيام كاملة من خوف ورعب في انتظار بدء عادتها الشهرية حتى استقبلت دماء حيضها بفرحة وسكينة مما يعني أن عمليه الحمل لم تتم بعد. بعدها فكرت مليا كيف سلبها "أوجستين" شرفها أخذت برؤية جديدة ووجدت العديد من الأسئلة

غير المجابة. هل يتلخص مفهوم العفة في بعض قطرات الدماء ؟ وهل التكامل الجسدي مع من تحب خطيئة ؟ وهل "أوجستين" أهل لذلك الشرف الوهمي وفي نهاية الأمر فهي ليست داعرة، تفسح ما بين ساقيها من أجل من يدفع... إنها سيدة مهذبة ذات خلق ومتعلمة وتتكامل مع حبيبها فقط.

بعد ذلك هداها تفكيرُها إلى حيلة شيطانية حاولت من خلالها الوصول لمعرفه مدى حب "أوجستين" لها، بعد تأكدها من عدم حملها. واجهت "أوجستين" وأخبرته أنها حامل منه فوجدت منه السعادة البالغة المحاطة ببعض الحذر وأكد لها أنه أسعد الأخبار التي سمعها في حياته، وأن الطفل ابنه وسيعترف به عند ميلاده ومن الأفضل أن يعجل بإجراءات الخطوبة والزواج لكي يبدو الطفل في إطار الشرعية .

أحست حينها أنها لم تخطئ في اختيارها فهو جدير بالثقة إضافة لمحاولة إيجاد طريقة شرعية لميلاد الطفل. لكنها تعلم مسبقا أن هذا مستحيل فلن تسمح لها أسرتها بالزواج من غير يهودي تحت أي ضغط، وربما يكون الحل الوحيد لهما هو الابتعاد. وإيجاد أرض جديدة لا يسأل بها أحدٌ الآخرَ عن ماضيه. ربما الوقت الآن غير مناسب على تلك الخطوة الجريئة، ولكنها ستبقى ضمن الخيارات المستقبلية. وبعد تأكدها من ولاء "أوجستين" تجاهها لم تجد حرجًا في تعدد اللقاءات معه. فالمتعة متناهية... واللذة نادرًا ما تُطفأ والحرص واجب وهذا ما كان يتقنه "أوجستين"، متعة كاملة دون عواقب وشعرت حينها أن الأمر ليس سيئًا إلى حد كبير، وأصبحت تدمن المتعة التي لم تعرفها من قبل، إضافة إلى أن هذا دورها في الحياة تحت أى ظرف ففي النهاية هي أنثى.

كانت تشعر أيضا بالأمان إلى حد كبير وسط أحضانه. تشعر أنها الجانب الأضعف بجواره. متعة عارمة وإحساس آمن مع من تعشق فماذا تريد أكثر من ذلك؟ ربما العائق النفسي الوحيد أمامها الذى تحاول عدم مواجهته هو خوفها من افتضاح أمرها، وماذا سيكون رد فعل والدها المحب لها، أو حتى أخيها، ومواجهتها لأسرتها كاملة بالإضافة إلى المعارف والأقرباء حتى الآنسة "هيلين". الأفضل من كل ذلك سيكون تجنب المواجهة منذ بدايتها .. إنه ليس هروبًا بالمعنى المفهوم ولكنه نوع من أنواع تجنب الواقع المؤلم والبحث عَـمَّا هو أفضل لها ولحبيبها، والحياة قصيرة على أية حال الأهم أنها تتقبل ما تفعل .

كل ذلك امتزج داخل فكرها وهي تصعد درجات السلم في طريقها إلى الغرفة القذرة، فتحت الباب بشكل مباشر لمعرفتها أن "أوجستين" لم يأت بعد، وضعت يدها على الزر المجاور للباب فتمت إضاءةُ الغرفة. وضعت حقيبة يدها على السرير واتجهت نحو خزانة ملابسها الصغيرة وفتحتها وتفحصت محتوياتها التي اعتادت تركها بداخله، لتواجده شبه الدائم في هذا المكان، وأخرجت منها قميص

نوم حريريٍّ أبيض اللون، قصير الى حد كبير. ومن المؤكد أنه سيبرز مفاتنها بشكل مثير عند ارتدائه.

بدَّلت ملابسها وارتدته وأخرجت من الجزء السفلي من الخزانة زجاجةً من الفودكا البيضاء المشروب المفضل لدى "أوجستين" كانت في البداية تكره مذاقه اللاذع الحارق إلى حد كبير ولكن بعد اعتيادها تأثيره عدة مرات بدأت تشرب القليل منه، حيث تتفادى أن تفقد جماحها بعد كؤوس قليلة.. أما "أوجستين" فيشرب أكثر منها في النهاية يكون الاثنان معا في عالم آخر من المتعة واللذة .

بعد انتهائها من إعداد المنضدة الصغيرة ووضع الزجاجة عليها إضافة إلى زجاجة الصودا وبعض الليمون و الملح وجدت أن "أوجستين" يطرق الباب، بعد سماحها له بالدخول، فتح الباب ودخل ووجدت في عينيه النظرة التي طالما أحبَّتها، نظرة الرغبة، تقدم إليها وقـبَّلها ثم احتضنها وحصلا بعد ذلك على وصلة كافية من الحب المكتمل، وبعد أن وصل "أوجستين" للنشوة مرة و "ارينا" عدة مرات.

وجد أن الحديث يجب أن يتطرق لأمر هام. بالنسبة لكليهما، إنه المستقبل.... وبعد تناثر الأحاديث عن الحلول القائمة. ضمَّها "أوجستين" بقوة إلى صدره وقال لها:

- "سنترُكُ "الإسكندرية"، عندما يكون الوقتُ مُناسبًا "

أحست وقتها "ارينا" أن الخيار قد يكون الأصعب ولكنه المتاح من أجل تكملة مشوارهما سويا .... فتنهدت وهي تفكر.

* * *

جلست "بارا" في غرفتها التي بدأت أن تعتاد عليها في المسكن ذي الثلاثة أدوار بشارع عرابي و على الجانب الأيسر من سريرها المواجه لسرير "ايفانا"، وأخذت تتأمل الغرفة وتتذكر الذكريات البسيطة التي حدثت لها، فهي لم تبقَ هنا سوى سنوات قليلة، تأملتها وكأنها تودعها فالليلة هي الليلة الأخيرة هنا، وغدا ستتجه للعيش في بيت زوجها القادم "ايزاك" الحفل غدا والرهبة تسيطر على تفكيرها، ليست الرهبة في الاختلاط الجنسي فـ "ايزاك" يعلم مفهوم الحرية الجنسية في أوربا ، لكنه الخوف من المسئولية... الخوف من تحمل أعباء أسرة.. وأطفال في المستقبل، ربما لم تكن تعتقد في أيامها الأولى في "براغ" أن زوجها سيكون عربيًّا ويكون التحدث بينهما بالفرنسية، لكن الظروف غالبـًا ما تكون أقوى مما تعتقد، أيضا "ايزاك" مُحِبٌّ لها بشكل كبير وسيتفانى في إسعادها، متقبلها كما هي، كانت تعلم مدى أهمية العذرية لدى العرب، لذا صارحته وكان رده مبهرا، فقد تفهم ما تقوله وكانت إجابته أن العتاب على أي شيءٍ يبدأ من وقت ارتباطهما ببعضهما، فهي ليست مسئولة عن عدم معرفتها بالمستقبل، فمن كان يعلم باحتمالية تقابلهما في الظروف العادية... إضافة إلى

أنه واثق في إخلاصها فماذا يدفعها للموافقة عليه في حالة رغبتها في آخر...

تذكرت أنه من الواجب عليها الآن أن تُنهي بعض الأمور المتعلقة بالماضي... وقفت واتجهت نحو خزانة ملابسها الخشبية وفتحتها وأخرجت منها صندوقا صغيرًا ذا قاعدة على شكل سُدَاسِيٍّ منتظم ومرصع بكسور أحجار على أشكال هندسية ابتاعته عند قدومها لـ "الإسكندرية" لوضع الأشياء النفيسة به، اتجهت للعودة إلى السرير وجلست كما كانت في وضعها الأول، مدت يدها إلى المنضدة الصغيرة المجاورة للسرير وأخذت حافظة سجائرها الذهبية وأخرجت منها واحدة وأشعلتها ثم فتحت الصندوق السُدَاسِيَّ وقلبته على حافة السرير لتفرغ محتوياته، بعضا من مجواهراتها إضافة إلى بعض الصور القديمة، وورقة بالية مطبقة عدة مرات عرفت مبتغاها، أخذت الورقة وبدأت في فتحها بهدوء للمحافظة عليها، الورقة أصبح لونها أصفر إلى حد كبير إضافة إلى بدء ظهور عوامل الزمن عليها فقد بدأت تتشقق، ثم نظرت لها وحينها أحست أن الوقت قد توقف بها، عادت إلى ثلوج "براغ" حيث نشأت، تذكرت جدتها و"ادينا" صديقتها المفضلة و "فرانز" وأيقنت أنها لم تذكرهم منذ فترة، فمن يعلم هل لا يزالون أحياء... أو إحداهما مثلا... أو حتى واحد منهم، ربما قد دهست ماكينة الحرب جميعهم، نظرت إلى الورقة البالية وكأنها لا تزال هناك، الصلاة التي أعطاها لها "فرانز" لتصل سالمة، عنوانه المتوقع في ليتوانيا، إضافة إلى الجملة التي لم يشأ القدر تحقيقها ("برابورا" و "فرانز" سيبقيان معا للأبد)، أحست حينها أن أحلام الصبى قد لا تتحقق دائما، أيقنت أنه الوقت المناسب للتخلص من أحلام الفتاة الصغيرة، بدأت بقطع الورقة بحيث بقيت الصلاة في جزء منفصل وما تمناه "فرانز" ولم يستطع تحقيقه في جزء آخر، وأخرجت عودَ ثقابٍ وأشعلته، ثم بدأت بإحراق الجزء المخصص بماضيها وهى تنظر إلى اللهب المتصاعد وكأن "بارا" القديمة قد انتهت معها.

سمعت طرقات الباب فأيقنت أنها تأخرت أكثر من اللازم في استعدادها لتصل للمباركة في الليلة التي تسبق العُرسَ في المعبد، أرجعت كل شيءٍ إلى عهده القديم وبعد تأكدها من تبرجها اتجهت إلى الخارج حيث كان في انتظارها والدتها "فيالا" و "ايفانا" ووالدتها "نستازا" و "ارينا" أخت "ايزاك"، وكانت بيد "ارينا" حقيبة كبيرة بها الحاجات الرئيسية لشعائر الحمام المقدس للعروس في يوم ما قبل

الزفاف، التي غالبا ما تأتي بها والدة العريس كما هي العادة في اليهودية، لكن نظرا لظروف "ايزاك" ووفاة والدته فمن ينوب عنها هي أخته، كان بالحقيبة العطور وماء الورد وصابون ولوفة جديدة وبعض الشراشف، قام الجميع بتهنئتها عند خروجها وبدأ كل من تواجد في الخروج من باب الشقة وسط الزغاريد المصرية من الجيران المهنئين بالإضافة إلى "ارينا" في اتجاههم نحو المعبد الرئيسي للطائفة اليهودية بالإسكندرية "الياهو حنابـي".

* * *

يعتبر شارع "النبي دانيال" الذى يصل بين ميدان الرمل وميدان "محطة مصر" من الأماكن ذات الطابع الأوحد، فبعد أن عهد "الإسكندر الأكبر" لمهندسه الأول "بينوقراطس" بتصميم مدينة "الإسكندرية" القديمة، اختار المهندس مكان شارع "النبي دانيال" ليكون أحد الشارعين الرئيسيين بالمدينة، فكان مركزهما الرئيسي لفترة قصيرة هذا بالنسبة للجانب التاريخي، أما على المستوى العقائدي فهو يحتوي على أحد أهم الأماكن بالنسبة للأديان الثلاث معا، فهو يحتوي على الكنيسة المرقصية التي أسسها القديس "مرقص" قبل أن تتم الميلادية خمسة عقود، إضافة إلى مسجدين مهمين للغاية بالنسبة للمسلمين وهما: "مسجد النبي دانيال" أحد أقدم مساجد "الإسكندرية" و مسجد سيدي عبد الرازق" أحد أولياء الله، بالإضافة إلى معبد "الياهو حنابي" اليهودي الذي أُنشِئَ في عام 1354، وتعرض للقصف على يد "نابليون" متزامنا مع اقتحام الخيول للجامع الأزهر فالاستعمار لا يعرف الدين، وتمت إعادةُ بنائه في عام 1850 بمساعدة "محمد علي باشا"، وكان من عادة السكندريين الاحتفال بالأعياد لجميع الأديان، فاحترام معتقدات الآخرين وتقبل الآخر كان السمة السائدة في "الإسكندرية" على مر فترات طويلة من الزمن.

* * *

كان السيد "حكيم" رافضا لزواج ابنه من أجنبية في بداية الأمر لكن مع إصرار "ايزاك" على الزواج منها وجد أنه قبل أم رفض سيكون زواجهما هو الوضع النهائي، حتى عند محاولته إقناعه بالزواج من أي فتاة يهودية سكندرية يريدها، وجد أن رفض "ايزاك" الزواج بغيرها أمراً مؤكداً لذا لم يُرِد الوقوف أمام السعادة التي يراها ابنه لنفسه، فتركه يبحث عن تجربته الحياتية وحده، ويختار ما يحب ويبعد عن الذي يكرهه، حتى لا يصل به الأمر في النهاية للعنة وهو ميت من قِبَلِ ولدِه، حيث سيكون المعتقد حينها أن والده هو السبب في السعادة الضائعة، نفس الموقف الذى يتكرر في كل بيت منذ "نوح"، فقد رفض ابنه الانضام

للسفينة بحثا عن النجاة، واختار الجبل الذى يحميه، أيقن أنه الخطأ بعد صعود الماء فوق الجبل وموته غرقا، لكنه احترم موته مدافعا عن القرارات المصيرية التي اتخذها لحياته الأولى على الأقل.

في الطابق العلوي من معبد "الياهو حنابي" تجمع العديد من المدعويين من أصدقاء الأسرة الثرية في الساحة الكبيرة للمعبد بالإضافة إلى طالبي التقرب منهم وأيضا العديد من اليهود ذوي الأصول البولندية التي تعرفت عليهم "ايفانا" والأغلبية الحاملة للفكر الصهيوني ، إضافة إلى أصدقاء "ارينا" و "يوسف" والعديد من الفتيات العاملات بـ "شيكوريل"، بالإضافة إلى أسرة "سارة"، الجميع في قمة أناقته والعطور الباريسية تفوح في أرجاء المكان، وأكثر ما كان يميز مكان التجمع بالإضافة إلى الغرفة الموسيقية هو (الحوبا) وهو عبارة عن أربعة قوائم متواجدة في مركز مربع متواجهة ومتوازية من كلا الجانبيين وفوقهما قماش ملون مغطى للسطح ، حيث تتم مراسم ارتباط العروسين وهم تحته من قِبَل رجل الدين، وقبل الحفل كانت صور الزفاف قد التُقِطت في استديو "فاهي" الأشهر في "الإسكندرية" بشارع "جيته" وكانت "بارا" في أبهى صورها وهى ترتدي الفستان الأبيض المرصع بالمشغولات اليدوية ذات التصاميم المميزة دون أكمام بالرغم من البرد القارس، وأكثر ما زاد من جمالها هو الطرحة ذات القماش الشفاف التي تحيط قماشاً رقيقاً يحتوى على العديد من التصاميم ذات التموجات، أما "ايزاك" فكان على أجمل ما يكون فقد كان يرتدي بزته السوداء من قماش يحتوي على لمعة بسيطة تظهر في الإضاءة الواضحة وقميصًا أبيض بالإضافة إلى رابطة عنق سوداء مع قفاز أبيض أضافت إليه مظهر النبيل، وأكثر ما كان حديث المدعوين بالإضافة للعقد الذى ترتديه "بارا" من حبات اللؤلؤ هو الدبوس الذهبي الذى يضعه "ايزاك" في بزته من الجانب الأيسر ، فهو عبارة عن الحرفين الأوائل من اسميهما مختلطين معا ومرصعا بالألماس البراق.

كانت الموسيقى هي المسيطرة على المكان عقب عقد الشعائر الدينية للارتباط بشكل رسمي وكانت المغنية الموجودة تغني بالعربية والعبرية التي لا يفهمها الكثيرون، أما "بارا" و "ايزاك" فكانا دائمي الرقص في وسط فرحة عارمة من الأقارب والأصدقاء وعند انتهاء المطربة من إحدى وصلاتها الغنائية اتجه "ميشيل سفيانوبولو" صديق "ايزاك" المقرب إلى الفرقة الموسيقية وهمس في أذن أحدهم بطلب ما، ثم اتجه إلى وسط المكان الراقص وبعدها بلحظات بدأ اللحن اليوناني الأشهر في العزف لحن "السيرتاكي" وسط بداية رقصة على الطريقة اليونانية مع تصاعد صيحات الجميع واتجه نحو "ايزاك" ليشاطره الرقص، بعدها اتجهت "بارا" إلى "ايفانا" وجذبتها من يدها واتجهت نحو الفرقة الموسيقية وطلبت منها الغناء، فغنت أغنيتين على لحن "البولكا" إحداهما بالتشيكية والأخرى بلغة اليديش التي كانت تعرفها منذ ولادتها... وكان الجميع

سعداء في احتساء الشراب والرقص، قمة السعادة في محاولة الحفاظ على الخليقة بتكرار التناسل، ووسط أصدقائه المقربين والمهمين أخرج السيد "حكيم" الورقة التي طلب منه ولده الاحتفاظ بها وهي عقد الزواج الذى تم توقيعه من العروسين وقرأ:

"إنه في يوم الخميس الموافق الخامس عشر من يناير إفرنجيا للعام 1942 بمدينة الإسكندرية بالدولة المصرية في حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول ... يعيش ... آمين.

بين المتعاقدين فيه الراشدين ووفق شروع وقوانين الدولة المصرية وهما بصحوهما وكامل إرادتهما وحريتهما بلا إكراه ولا إجبار ولا غش وتغرير وعلنا وحسب الشرع وهما:

أولا السيد: ايزاك ابن: حكيم بك حداد ولـه من العمر: 24 عاما

العريس العاقد لنفسه

ثانيا الآنسة: بارابورا بنت: نوفاك سيمكوفا ولها من العمر 22 عاما

العروس المعقود عليها لعريسها المذكور

قد أقرَّ العروسان المذكوران وأشهدا على نفسيهما أمام الحاخام الأكبر للطائفة، وأمام جميع الحاضرين أنه عقد على نفسه الآنسة المذكورة عقدًا علنيًّا شرعياً بمهر وكتاب وتعهد باحترامها وإكرامها والقيام بواجباته الشرعية من مسكن وملبس ونفقة وإحصان بحسب مقدرته وميسره وألا يظلمها ولا يغدر بها ولا يهينها ولا يحتقرها ولا يحرمها من شيء من حقوقها الشرعية وأن يسلك وإياها مسلك الحق والشفقة والرحمة ما دامت في طاعته الشرعية وقائمة بواجباته الزوجية مراعية الصيانة والأدب وكرم الأخلاق، وقدَّم مهرها المهر الشرعيَّ المناسب ، وحينما سمعت العروس تعهداته والتزاماته الشرعية هذه أجابته صراحةً بالقبول التامِّ والرضا الكامل مُـقِرَّةً له بالتزامها بطاعته طاعة شرعية والعمل على إكرامه واحترامه وخدمته ما استطاعت ولا سيما عند الضرورة وأن تعمل على محاسنته قولا وفعلا وسؤالا وجوابا جعله الله قرارًا سعيدًا.

آمين،،،

نظر بعدها السيد "حكيم" إلى ولده وعروسِه و تأمل سعادتهما، فشعر بأن دوره في الحياة قد قارب على نهايته، لكنه لمح في أعين "بارا" شيئًا غريبًا وكأنها ليست في المكان وتتذكر شيئًا ما، شيئًا لا يعلمه ولكنه يبدو أنه قد أثر على حياتها.

* * *

لوبلن 1939

منتصف شهر مارس كان يوم الأربعاء، لقد مر على وجود أسرة "نوفاك" في "لوبلن" بالجزء الجنوبي الشرقي من "بولندا" ما يقارب نصف العام، الحياة في هذه البلدة بالتحديد تعتبر مميزة للغاية بالنسبة لهم، وكثيرا ما فكر "نوفاك" في العودة إلى "براغ"، حيث إنها مرت فترة كافية دون اجتياح القوات الألمانية النازية قلب العاصمة "براغ"، لكنه على الأقل حاول المحافظة على أسرته، وهذا في حد ذاته عمل يجب أن يشكر عليه من قِـبَلِ "بارا" وزوجته "فيالا".

يرجع السبب الرئيسي في هذه الحياة الكريمة إلى "يوهان" ابن عمته وزوجته البولندية "نستازا جنسنبرج" تلك السيدة المحبوبة من الجميع، المثقفة إلى حد كبير كما يقول، التي أقنعت "يوهان" بالبقاء في "بولندا" والزواج منها، أقنعته أنها الجزء الأكبر من أحلامه، أقنعته أنها الحياة، لذا فضَّل تَـرْكَ "براغ" والإقامة الدائمة في "لوبلن"،و لقد تم إرساله من قِبَلِ بنك "امشن" في بداية حياته المهنية إلى فرع البنك في "لوبلن" لفترة شهر تقريبا، إلا أنه بعد فترة طالب ببقائه في "بولندا"، ولم يأتِ إلى"براغ" ما يقارب الخمسة وعشرين عاما، عدا بعض الزيارات العائلية الخاطفة، وثمرة الحب والزواج من "نستازا" تمثلت في "إيفانا" ابنتهما المحببة التي تتحدث البولندية، وتعمل الآن في مدرسة للبولندية و لغة اليادیش أحد اللغات اليهودية المستعملة في شرق أوربا، وحفاظا من والدها على أصوله، علمها التشيكية منذ الصغر، والعبرية كيهودية صهيونية متدينة، لذا أصبحت تجيد العديد من اللغات كأغلب اليهود في دول العالم.

حتى أنها تعمل كمعلمة للعبرية في إحدى المدارس الليلية التابعة للتجمعات الصهيونية مقابل أجر رمزي بعد أن انتهت من دراستها الجامعية في سن الثانية والعشرين.

الغريب أن بعد كل هذه السنوات لا تجيد "نستازا" التشيكية بالرغم من قربها للبولندية، لكن التعليم في الكبر معروف أنه أمر صعب، وقد أحست "بارا" إن "لوبلن" مكان لا بأس به للعيش لليهود على الإطلاق لكن ألمها الأعظم كان في فراقها لـ "فرانز" حبيبها بالطبع، لكنها لم تفتقد "ادينا" مثله، ربما كان السبب وجود "ايفانا" في حياتها.

لقد غيرت العديد من المفاهيم بداخلها، حيث أن تأثيرها أكبر عليها من "ادينا"، وحاولت كثيرا إخراجها من حالتها النفسية السيئة بسبب عدم وجود "فرانز".

بدأت "ايفانا" منذ وصولها محاولة تسليتها وتعليمها مفاهيمها الخاصة أيضا، واصطحبتها في أيام الأحد والاثنين والخميس من كل أسبوع لتلك المدرسة الليلية التابعة للجماعة الصهيونية التي تُعَلّـِمُ بها العبرية.

كانت "بارا" وسط أكثر من عشرين فرد في صفها من أعمار سنية مختلفة تحت إشراف "إيفانا" كمدرسة، حيث أنها تجيد السيطرة على المجموعة بشكل جيد بالرغم من وجود أعمار أكبر منها بالنسبة للطلاب.

كثيرا ما كانت تنتظر مضايقات الشباب لها بسبب جمالها الزائد عن الحد، وشعرها الأسود، منتظرة رد فعل "إيفانا" وسخريتها اللاذعة منه أمام الجميع، حتى أنه فى أغلب الأحيان يضحك الشاب على نفسه من كلامها.

لقد بدأت تحب "لوبلن" فهو مكان ريفي هادئ يتخلله نهر "بسترزيسا" الذي غالبا ما يذكرها بنهر "فلتافا" في وطنها إلا أنه لا يملك نفس العدد من الجسور المميزة للعاصمة "براغ".

وبقي النهر هو العامل المشترك في الجزء المنصرم من حياتها، لا تعلم أسبابًا مباشرة، لكنها تعشقه أيضا في "لوبلن" المساحات الخضراء أكثر وأوسع بسبب تباعد البنايات مقارنة بـ"براغ"، وما يزيد من تميزها هو تعداد اليهود بها الذي قارب على منتصف تعداد السكان، إنها لم تر ذلك من قبل، فبالرغم من أن تعداد اليهود في "براغ" قد يكون أكثر إلا أن النسبة في التعداد الكُلِّـيِّ أقل.

إنها لا تتذكر أنها قد رأت من قبل تزايد الناس في الشوارع من أجل الذهاب إلى المعبد في السبت أو في أحد المناسبات، وكم تخيلته كـ "جيتو" كبيرة في مكان رائع وتمنَّت أن يكون لكل يهود العالم مكان موحد للبقاء إلى الأبد، مثلما قرأت في الكتاب الذى أعطته إياها "إيفانا" (مدينة اليهود) .

قارب الثلج الأبيض المغطي الشوارع والمنازل على الذوبان بشكل كامل، فالربيع أوشك على القدوم، وربما هي بشرى جديدة لها للعودة إلى وطنها مرة أخرى، فربما قاربت للعودة إلى بيتها ومدرستها وجدتها و "رودلفينم".

كانت تتفحص البريد القادم بشكل يومي بعد أن بعثت العديد من الخطابات إلى العنوان الذي تركه لها "فرانز" دون جدوى، ففي البداية كانت ترسل خطابًا بشكل يوميٍّ، وبعد فترة كل أسبوع وبعدها كل أسبوعين، وتنتظر وتنتظر وتنتظر بدون جدوىً، حتى أنها بعد فترة أصبحت كتابة الرسائل بالنسبة لها أمرًا نمطيًّا فالبعد يعلم الجفاء، والانتظار هو السمة الغالبة عليها، وهو ما تعلمت التعوُّدَ عليه.

في البناية العاشرة من شارع "سولنا" العمودي على شارع "شوبانن" بالقرب من المقابر المسيحية بالجزء الجنوبي من المدينة، كانت تسكن عائلتها في البناية التي كان يغلب عليها اللون الأبيض، بالتحديد في الطابق الثالث مباشرة تحت السطح التنازلي حتى يمنع بقاء الثلوج في شتاء "لوبلن" القارس، كثيرا ما كانت تتسائل كيف لهم أن يسموا الشارع باسم "شوبان"؟ ذلك الموسيقار العالمي بولندي الأم الذى استمعت كثيرا إلى أعماله في "براغ".

بالرغم من تركه "بولندا" متجهًـا إلى باريس عاصمة النور، تاركا مسقط رأسه

ذاهبا إلى الأضواء والشهرة، وهو في سن العشرين عاما، لم يعد أبدا.

لماذا كل هذه المحبة في مقابل عدم التقدير والجفاء ؟ فالحياة لا تضمن العديد من الفرص، فهو تركها راغما أو كارها، ولم يرجع، فلماذا يتذكرونه ؟ ربما كان الأمر محاولة منها لتطبيق نفس المفهوم على "فرانز" مثلا.

ولماذا توجد المقابر دائما بجانب النهر في الأماكن التي تتواجد بها، أهي حكمة من الله ؟ محاولة لجعلها تفكر، النهر بجانب مقابر مسيحية ويهودية، النهاية واحدة بالرغم من الاختلاف.

الثالثة عصرا، غالبا ما كان يعود "يوهان" ذو المركز المرموق في بنك "امشن" في الجزء الشمالي من البلدة المطلة على نهر "بسترزيسا"، وبعد وصوله بفترة وجيزة تكون مأدبة الغداء قد أعدت بفضل السيدتين "نستازا" و "فيالا" اللتين غالبا ما تستعينان بـ "ايفانا" ذات اللغة المشتركة، ويجلس الجميع على المنضدة، ويؤدون صلاةَ ما قبلَ الطعامِ، وبعد ذللك تناول الطعام مباشرة وتحويل الترجمات للعديد من المواقف بمساعدة "ايفانا" ووالدها بسبب اختلاف اللغة، فاللغة في حد ذاتها شيء ثانوي مقارنة بالجوع.

اليوم شيء غريب فبعد دخول السيد "يوهان" إلى المنزل بطوله الفارع ولحيته المطلقة، وشعره المصفف إلى الخلف الذي يتخلله الشعر الأبيض، ونظراته المريبة، لم يتكلم وهي ليست عادته، فهو غالبا ما يثير الأحاديث الصاخبة بمجرد دخوله المنزل، تفحصته زوجته التي كانت تعرف تحليل ملامحه جيدا وتعبيراته، ووجدت أن هناك خطأ ما، فسألته بالبولندية، وردَّ عليها وظهرت بعدها ملامح الدهشة والخوف على كل من "نستازا" و ابنته "ايفينا" اللتين كانتا متواجدتين في الجزء الأماميّ من البيت أمام منتصف الطعام الذي يتشاركون في إعداده مع "فيالا" و "بارا" حتى أن أحد الكؤوس وقعت من يد "ايفانا"، وقد بدى عليها الخوف بشكل كبير مما أربكهم جميعا.

سألت "بارا" و "ايفانا" بشكل هيستيريٍّ بالتشيكية:

- ماذا حدث؟

حاولت السيدة ذات الثلاثة وعشرين عاما صاحبة الجسد الممشوق والشعر الأسود والعيون السوداء عدم إظهار التوتر وردت.

- لاشئ

فرددت "بارا" السؤال مرة أخرى، لكن بشكل مباشر إلى والد "ايفانا"

- سيد "يوهان" ماذا حدث؟

فرد الرجل وهو حزين للغاية:

- لقد سقطت "براغ" اليوم ودخلها الألمان وتم إحراق أحد المعابد بحيّ "جوسوف" بمجرد وصولهم.

أحست "بارا" أنها قد غابت عن الزمن فترة.

* * *

كانت لا تزال تنظر إلى "فرانز" من الزجاج الخلفيّ للسيارة السوداء وهو لا يزال واقفا أمام بيتها في "براغ" الشارع قد قارب على الانتهاء، وأصبحت رؤية "فرانز" أصعب ولا تزال تبكي نظرت إلى الورقة التي أعطاها لها ("بارابورا" و "فرانز" سيبقيان معا للأبد).

تذكرت الرحلة إلى "لوبلن" وكم كانت شاقة بالنسبة لها ولوالديها، حيث اتجهوا بسيارتهم نحو الشرق إلى مدينة "برونو" التشيكية، وبعد ذلك عبروا إلى الجزء السلوفاكي من جولتهم مارِّين على "كوسيس"، وبعدها للاتجاه شمالا عابرين الحدود إلى "بولندا"، بعد إهانات عدة من قِبَلِ السلطات البولندية، وفي طريقهم إلى "كوفيساكز" التي بها محطة القطار متخطين "كرينسيا" حيث مكثوا لعدة أيام في "كوفيساكز" حيث اضطر والدها لبيع سيارته بثمن بخس لأحد التجار بعد علمه بعدم مقدرته للذهاب بها إلى "لوبلن"، واتخذوا القطار في اتجاههم إلى الشرق مارين بكل من "ستروز" و "ترونوف" و "ديكا" وصولا إلى "رزسوف"، حيث بدلوا القطارات مصطحبين آخر متجها صوب الشمال إلى "أوسيس" وبعدها "ستلاوفافالا" ومنها قطارا آخر إلى الجهة النهائية إلى الرحلة البعيدة غير معلومة النهاية بعد حوالي عشرة أيام من بدايتها.

* * *

نادرا ما كانت ترى "إيفانا" خطيبها "ميرون" في الآونة الأخيرة وذلك بسبب النزاعات في الجانب الغربي من البلاد بسبب الغزو الألماني لـ"تشيكوسلوفكيا" ومن بعده احتل الجزء السلوفاكي منه عن طريق "المجر" حليفة "ألمانيا" في الحرب، بسبب عمله كضابط بالجيش البولندي، فقد تخرج حديثا ويتلمس الآن خطواته الأولى في سلم السلطة والإنجازات المدوية بالنسبة له شيء نادر، وأن يأتي في إجازة قصيرة في أيام أغسطس الحارة متواكبة مع صيام يومٍ كاملٍ حدادًا على خراب الهيكل أمر مميز بالنسبة إلى زوج المستقبل، فمنذ ما يقارب الثلاثة أيام، وهي لا تفكر سوى بلقائه والاستمتاع بفترة زمنية معه ، "إيفانا" تتغير كُلِّيًّا مع "ميرون" فهو الوحيد القادر على كبح جماح سلطتها، وغالبا ما تشعر معه بالجزء المميز من تكوينها كأنثى... بالضعف، ربما السبب جماله

الأشقر وحزمه العسكري، وأكثر ما يثيرها فيه هو زيه العسكري وغطاء رأسه حتى إنهما عندما يختليان لممارسة الحب – ونادرا ما يحدث ذلك في هذه الأيام – تطلب منه في البداية أن يكون مرتديًا لزيه العسكري ولأن يناديها بألقاب عسكرية، ربما الدافع في ذلك إحساسها المفتقد بالسلطة، كأنثى وكيهودية.

كانت تفكر في كل هذا وهي أمام المرآة في غرفتها السابقة التي أصبحت الآن ملكية مشتركة بعد قدوم "بارا" منذ ما يقارب العام، وأخذت تتفحص ملامحها وفستانها الأزرق القصير الذي يتناسب مع جو أغسطس في "لوبلن"، وتأكدت من مظهرها ومن تصفيف شعرها الأسود المنسدل للخلف، وأخذت في النظر إلى عينيها وتأكدت من وضع تبرجها، ووجدت انعكاس صورة "بارا" مواجهة لها في المرآة مشتركة مع بقية أجزاء الغرفة التي خلفها، وأحست بداخلها بسعادة كبيرة عندما رأت هذه الابتسامة على وجهها، ونظرت لها في انعكاس المرآة نظرة تحمل التساؤل، فأحست "بارا" أنها يتوجب عليها أن تقول شيئا لـ "إيفانا":

- تبدين في أجمل حال

ابتسمت "إيفانا" وقد أحست بفرحة كبيرة حيث إنها لطالما أرادت أن تكون شقراء مثل "بارا" على الرغم من عدم تصريحها بذلك، وردت بالشكر، وبعدها قررت أن تطلب من "بارا" أن تأتي معها في رحلة استقبال صديقها، أحست "بارا" داخليا أنها لا تريد ذلك، لكنها لا تحظى بمقابلة العديد من الناس منذ قدومها إلى "لوبلن"، ففكرت مرتين قبل أن ترد بالإيجاب.

بعدها استعدت وارتدت ملابسها واختارت فستانا أرجوانيا صيفيا أضاف إلى جمالها الأشقر طابعا مميزا، وخرجتا من المنزل سويا، بعد ما قارب النصف ساعة على حديثهما، واستقلتا سيارة أجرة إلى محطة القطار في الجانب الشرقي من المدينة، حتى وصلتا بعد ما يقارب نصف الساعة.

على الرصيف المواجه للقطارات كانت العديد من الأفكار تتداخل في ذهن "بارا" فبعد رحلتهما الصعبة إلى "لوبلن" وتبديلها العديد من القطارات أحست بالتشاؤم من وسيلة المواصلات هذه، فغالبا ما تأتي بهم دون أن ترجعهم، فإذا كانت الحياة عبارة عن محطات، وحياتنا الشخصية هي القطار يكون السير دائما في اتجاه واحد دون العودة للمراحل السابقة، والعكس تماما بالنسبة لـ "إيفانا"، فهي تجد متعة كبيرة في القدوم إلى محطة القطار فهو غالبا مرتبط لديها بالنهايات السعيدة للرحلات المظفرة لحبيبها، إنها نقطة التواصل المهم في حياتها... إنه اللقاء.

وغالبا ما رأت "بارا" أن كل رحلة يجب أن تكون ذات نهاية حزينة، بينما تكلل الرحلات بالسعادة لدى "إيفانا"، العديد من الأحداث والأماكن ذات الروابط بيننا

غالبا ما تكون شرطية ، مفهوم السعادة والحزن، التشاؤم والتفاؤل، الحيادية والتأييد كلهم مجرد انفعالات لتبرير ما بداخلنا، قيم افتراضية تخص مفهوم الفرد، ذكرياته وأحلامه، ولا ارتباط لها بالمفهوم الثابت الأوحد الذي يبحث عنه الجميع ولم يعثر عليه أحد بعد.

كان قد مر على انتظارهما ما يقارب نصف الساعة، وكلما مرت دقيقة أحست "إيفانا" بشوق أكبر مع زيادة رهبتها باللقاء، بينما مرور الزمن يعني الألم بالنسبة لـ"بارا" بسبب الألم في كاحلها بسبب طول فترة الوقوف، وتم الإعلان في المذياع المكبر للصوت الذي يصل صوته إلى أغلب أركان محطة القطار بأن القطار القادم من "رزبين" الواقعة في الجزء الغربي من "بولندا" على وشك دخوله المحطة، المسافة بعيدة بين "رزبين" و "لوبلن" ، حيث يقوم "ميرون" بخدمته العسكرية على الحدود الغربية، التي أصبحت الآن مع ألمانيا النازية التي تحاول الحصول على المزيد من الأراضي فغالبا ما كان الفكر الاستعماري لدى القادة المشوشين واحد.

وبعد سماعها إعلان الوصول في مكبر الصوت سعدت "إيفانا" للغاية وأحست أن ضربات قلبها قد زادت عن معدلاتها الطبيعية، إضافة إلى شعورها بالقشعريرة، ولم ترَ سوى القضبان الخالية التي تنتظر أن يظهر عليها القطار بفارغ الصبر، أدركت أن صوت القادم من بعيد يعلو كلما مر الوقت حتى شعرت بسعادة كبيرة عند رؤيتها القطار،و استقر بعدها بلحظات أمامها، وبدأ الركاب بالنزول بأمتعتهم، وبدأت في تفحصهم الواحد تلو الآخر، وبعد لحظات ظهر حبيبها "ميرون" ومعه أحد أصدقائه وهو يلوح لها بيده.

كان يرتدي الزي العسكري ذا اللون المتداخل به درجات الأخضر والرمادى للجزء العلوي من بنيته الذى يتوسطه ستة أزرار نحاسية بشكل رأسي لامعة وحول خصره حزام أسود يحيط به حزام آخر يصل ما بين الجزء العلوي من كتفه الأيمن والكتف الأيسر السفلي مكان خصره، مرتديًا قبعته العسكرية دائرية الشكل التي يدور حولها خيط أحمر رفيع للغاية من فوق مقدمتها البلاستيكية السوداء، وحذاءَه الذي يصل إلى ما تحت ركبتيه بقليل ذا اللون الأسود البراق، وبنطاله الذي يشبه بنطال الخيالة ذا جزء من الجدل الأسود ما بين فخذيه.

جرت نحوه هو وصديقه الأشقر واحتضنته بقوة بعد أن أحاطها بذراعه فحملها ودار بها دورة كاملة حول نفسه، أحست أنها غابت عن الزمن لفترة، بعدها قبلته

ثم أنزلها إلى الأرض، بعدها انتبهت لصديقه وأخذ يقدمها إليه، وعرفها به "لوبومير" الذي يرتدي نفس الزي العسكري، ومن بعدها قدمته إلى "بارا" فنظر إليها بإعجاب بالغ وهو يصافحها بعد أن قبل يديها وقال:

- جمالك أخاذ.

ولم تفهم "بارا" بالطبع لأنه كان يحدثها بالبولندية التي لا تعرفها، فترجمت لها "إيفانا" بالتشيكية، فابتسمت وسألها "لوبومير" هل هي غريبة ؟ وابتسم لـ "بارا" بإعجاب شديد.

* * *

في المساء بعد جولة في قلعة "لوبلن" والمعبد اصطحب الرجلان السيدتين لأحد المطاعم الفاخرة على النهر الذي يقدم الأطعمة الفاخرة الغالية نسبيا في "بولندا" الفقيرة للغاية، الذي يعتبر مكانا للنخبة، جلس "لوبومير" إلى جانب "بارا" بينما جلست "إيفانا" بجانب "ميرون" بشكل مواجه على المنضدة الرباعية التي تحمل غطاءًا أبيض اللون ذا خطوط حمراء، وكانت غالبا ما تترجم "إيفانا" كلمات "لوبومير" إلى "بارا" التي غالبا ما كانت تحمل كلمات الإطراء عليها وعلى جمالها، وبعد فترة قالت "إيفانا" إن "بارا" تجيد عدة لغات منها الألمانية والفرنسية وعندها سعد "لوبومير" ونظر إلى "بارا" محدثها بالفرنسية بشكل جيد وقال لها:

- كل هذا الوقت كنت أطمع أن تكلميني بشكل مباشر.

فابتسمت "بارا" ونظرت له قائلة:

- ربما الترجمة تمنحك مهلة أكبر في التفكير قبل الرد.

وضحك الإثنان، ووجدت فرنسيته متوسطة، لكنها لم تكن مهتمة بتطوير الأمور، وعند شعورها بأن الأمور قد قاربت على التطور أخذت من حقيبتها السوداء اللامعة أحد الأوراق ونظرت لها جيدا... إنها الورقة التي طالما نظرت إليها حتى إنها أصبحت شبه بالية، فسألها عن هذه الورقة فقالت:

- إنها صلاة تركها لها صديق قديم من قبل

بعدها حاول تغير الحديث قائلا للجميع:

- ربما خدمة الوطن صعبة للغاية في الغرب المشتعل.

فردت "إيفانا" بتهكم:

- الوطن يالها من كلمة عظيمة تستخدم في التفاهات عزيزي "لوبومير"، أنا وأنت و "بارا" و "ميرون" وملايين اليهود لدينا وطن واحد ، لم يعلن بشكل رسمي بعد، لكن هذا لا يمنع وجوده.

* * *

قاربت مدة وجود أسرة "بارا" في "لوبلن" على ما يقارب العام العبري، ومرة أخرى تأتي فترة الأعياد بشؤم آخر، فمنذ أيام قليلة ووالدها رافض النطق، ولا يبقى إلا في غرفته من أثر الصدمة والأخبار الحزينة التي أتت من "براغ" فقد مات "ميرك" الرجل الذي استأمنه على مصنعه وعقد معه عقد البيع والشراء الصوريَّ، وبعد موته منذ عدة أشهر وعدم وجود "نوفاك" بنفسه لقيادة مصنعه ووجود عقد البيع والشراء يكون الاستنتاج سهلا للغاية، فقد تقاسم ورثته المصنع ذلك المكان الذى كان يقضي به أجمل أيام حياته ورحلته الطويلة في صعود سلم السلطة، انهار بعدها باكيا لفترة طويلة، فقد خسر كل شيءٍ ، حتى إنه رفض أداء الصلوات بسبب الحزن الذي كان يخيم على البيت بأكمله، وبالرغم من الشموع التي تضاء من أجل الأعياد بشكل يوميٍّ، فبعد أن كان ثريا ذا مال ويحاول الجميع استرضاءَه، أصبح الآن لاجئًا في بلد غريب ولا يملك الكثير من المال بسبب نفقاته الشخصية، وأصبح ضميره يؤنبه بشكل كبير، فماذا سيكون مصير الصغيرة ابنته، التي قاربت على عامها الثامن عشر، ألا تستحق هذه الصغيرة الحياة الكريمة التي طالما عاشتها فمن الصعب الهبوط من القمة إلى القاع، لكن دائما هذا هو حال الحرب، مجموعة من المتغيرات لمجموعة من الشعوب.

أما "بارا" ووالدتها السيدة "فيالا" فكانتا لا تـهتمان سوى به في الأيام الماضية بالرغم من رفضه الكلام في أغلب الأوقات وبكائه شبه الدائم على ما أضاعه الزمن، والحسرة على ما قد يحدث فالويل كل الويل لمن يتم اضطهاده، وبعد إلحاح حاول السيد "يوهان" إقناعه بأن كل شيء سيبقي كما كان وأنه سيجد له وظيفة مرموقة في بنك "امشن" الذي يعمل به،كان الهدوء المخيم على البيت قد أصبح أكثر من اللازم وما كان يحبط "بارا" هو عدم وصول أي خطابات من "فرانز" على الإطلاق طوال العام المنصرم، وأيضا عدم علمها شيئا

عن جدتها، لماذا كل هذا يحدث لليهود ؟ كانت تعتقد أن كل ما تقوله "إيفانا" حول إنشاء وطن لليهود أمر منطقيٌّ، لكن بعد كل هذه المعاناة أصبحت مؤمنة بشيءٍ آخر، فالوطن ليس في "براغ" أو "لوبلن" لكنه في مكان آخر ينتظرهم جميعا، ولطالما أحست بالخطيئة والسخف على ما قالته لـ "فرانز" منذ عام مضى حيث إنها كانت مستعدة للتخلي عن يهوديتها مقابل البقاء معه، فلا شيء يساوي يهوديتها حتى بقاء والدها حيًّا أو ميتًا، فالقومية أصبحت لديها العامل الأهم في تكوين فكرها وتعلمها للعبرية أيضا شيء مهم وستصبح قادرة على فهم الدين بشكل أكبر، كل هذا دار في فكرها وهي على فراشها، وهي مُغمضةَ العينين محاولة التظاهر بالنوم بالقرب من فراش "ايفانا"، وشعرت بأن ضيقا بداخلها جعلها رافضة للنوم، فتحركت من على السرير بعد أن جلست عليه بشكل نصفيٍّ، وأشعلت المصباح الكهربائي الصغير الموضوع على منضدة صغيرة بجانب سريرها، عندها استشعرت "ايفانا" أنها لا تزال مستيقظة، فسألتها وهي في السرير قائلة:

- لماذا لم تنامي يا "بارا".

ردت وهي مُستاءة للغاية:

- لا أستطيع النوم على الإطلاق من التفكير.

فردت "إيفانا":

- لا تقلقي، ربما المستقبل أفضل، سيكون كل شيء على ما يرام في الغد.

فقالت لها "بارا":

- آه ... الغد كلمة يصعب أن تعتمدي عليها.

فهي تعتقد أن الغد ليست من الكلمات المطمئنة للقلب مثل الثواب أو الرحمة أو كلمة الله، فالاعتقاد أن هناك رحمة أوسع أو أن هناك خطأ دون عقاب، أو حتى مفهوم الغفران بشكل عام دافع في حد ذاته للإيمان بفكرة الله، الذي لم يحمِ اليهودَ إلى الآن، فكرت "بارا" في كل ذلك قبل أن تُطفِئَ المصباح وتقرر العودةَ للنوم، فما أجمل الهروب للنوم تفاديا للهموم اليومية.

* * *

دخلت السيدة "نستازا" إلى غرفة الشابتين مسرعة بعد شروق الشمس بفترة قصيرة، وجرت إلى ابنتها لكي توقظها في شكل هيستيري، أحست "بارا" بذلك واستيقظت بسرعة لترى والدة "إيفانا" وهي تقول بعض الكلمات للفتاة بشكل هيستيري فصرخت "إيفانا" بصوت مسموع، فسألتها "بارا" عما حدث بالتشيكية، فردَّت "إيفانا" ببعض الكلمات التي لم تفهمها "بارا"، فطلبت منها تكرار ما قالت بلغة تفهمها، فقالت:

- لقد اجتاح الألمان صباح اليوم الجزء الغربيَّ من "بولندا".

اصطدمت "بارا" بالمنضدة وهي تحاول الوقوف وعلامات الاندهاش على وجهها فتساءلت... ألن يتركها الألمان في أي مكان، وهل قتلها هو الحل المناسب لدى الرايخ الثالث مانحا حياة كريمة للمجتمع أوربيٍّ، وقالت "إيفانا" لها:

- يجب أن نجهز متاعنا الآن لأننا سنترك المدينة خلال ساعات.

فسألتها "بارا" إلى أين.

فردت "إيفانا" وهي متجهة إلى خزانة ملابسها لتخرج منها ملابسها وقالت وهي مصدومة:

- الجحيم نفسه سيكون أرحم من "هتلر"

وقف الجميع بالقرب من جانب منضدة الطعام، وبعدها اتجهوا جميعا للجلوس إليها، حتى أن السيد "نوفاك" تكلم وحاول تناسي ما حدث معه منذ عدة أيام، فالمحافظة على البقاء هي الغريزة الإنسانية الأكبر، كانت "إيفانا" بجانب والدتها لتترجم لها الحديث الذي دار بالتشيكية، فقال "يوهان":

- ربما سيهجم الاتحاد السوفيتي مثلما فعلت المجر من قبل.

فرد "نوفاك":

- "ليتوانيا" ستكون الحل المناسب، فهي على بحر البلطيق، ويمكن الفرار من خلاله.

وردت السيدة "نستازا" عبر ابنتها:

- أوربا كلها لم تعد مكانًا آمنًا بالنسبة لنا.

ورد "يوهان":

- لكن "ليتوانيا" بعيدة.

قررت "إيفانا" التدخل:

- كلاَّ ، لم تعد بعيدة عن الأطماع الاستعمارية، فآجلا أم عاجلا ستُهاجم.

فاقترحت بعدها اللجوء إلى "الاتحاد السوفيتي" نفسه، فرفض الجميع، بسبب أن الاتحاد السوفيتي أصبح حليفا للألمان بعد معاهدة عدم الاعتداء.

قال السيد "يوهان":

- لم تُظهِر "رومانيا" بعد أيَّ مطمع استعماريٍّ، ويمكن أن نتخذ من حدودها الجنوبية علَى البحر الأسود نقطة انطلاق إلى أيٍ مكان خارج أوربا.

* * *

الوصول إلى الجزء الجنوبيِّ من رومانيا وبالتحديد إلى "كونستانزا" لم يكن سهلا على الإطلاق، فمخاطر الرحلة في حد ذاتها شيء صعب، وغريزة البقاء هي الدافع الرئيسيٌّ والمحرك الرئيسيٌّ لأي كائن بشري , و قد اسغرقت الرحلة حوالي الأسبوع، ولكنه كان أحد أصعب الأسابيع التي مرت على الأسرة البولندية, ربما لعدم إجبارهم على التهجير من قبل، فقد بدأت الرحلة بمجرد اتخاذهم للسيارتين اللتين يمتلكهما السيد "يوهان" من "لوبلن" في اتجاه الجنوب إلى "لفوف" و منها إلى "تارنبول" عابرين الحدود البولندية الرومانية , و بعدها قاموا بالعبور إلى "هوتن" الرومانية و منها اتجهوا إلى الجنوب الشرقي مرة أخرى إلى مدينة "سوكيفا" التي استقروا بها يومين من الرحلة بسبب العناء الشديد الذي أصابهم لبُعد المسافة، وقاموا كالمرة السابقة ببيع السيارتين بثمن بخس، وكان رأى "يوهان" يشير إلى عدم جدوى وجود سيارة معه في البحر على أية حال، وبعد ذلك اتخذوا القطار إلى مدينة "باكاو" وبعدها "بازاو" في الجزء النهائي من قضبان القطار، وبعدها استقلوا الحافلة إلى "سلوبوزيا" ومشوا بجانب نهر "براهوفا" حتى تخطوا الجسر العابر لنهر "الدنوب" واصلين إلى "كونستانزا" على البحر الأسود، حيث تعتبر الميناء الأكبر في رومانيا، وكونها المدينة الأكبر بعد العاصمة "بوخرست" والمركز الإسلامي في رومانيا منذ أيام الدولة العثمانية.

كانت المدينة مزدحمة للغاية وتتحدث العديد من اللغات مثل أية ميناء كبير، لكن المثير فيها بالنسبة لـ"بارا" لم يكن المعبد المسلم كما كانت تسميه، ولا اللغات المختلفة، ولا حتى الجو الحار بالنسبة لها، كان المميز بالنسبة لها هو البحر فهي لم تره من قبل، فـ "براغ" في إقليم "بوهميا" الحبيس، كذلك "لوبلن"، وعند رؤيتها للبحر للمرة الأولى شعرت بالخوف، وأحست بعدم وجود أراضٍ وراء هذه المياه الغامرة، أحست أن الحياة قد تنتهى بعد هذا اللون الأزرق الشاسع، بعد استقلالها لأحد السفن المتوقع خلال أيام في اتجاه المجهول... ففي المرة السابقة لرحلة هروبها كانت تعلم أنها ذاهبة إلى "لوبلن" لدى السيد

"يوهان" وأسرته، لكن هذه المرة مختلفة إلى حد كبير، فهي ذاهبة في اتجاه المجهول، حيث إنها لا تعرف وجهة رحلتها بعد، بالإضافة إلى التأثير السلبي عند رؤيتها البحر للمرة الأولى، أصبحت مخاوفها أكبر بشكل كبير، فهي غالبا لن ترى حبيبها ولا جدتها ولا مدرستها ولا الشوارع التي نشأت بها مرة أخرى، ستفتقد "براغ" في الشتاء، فمن الصعب أن تترك جزءًا من التاريخ وترحل إلى مكان آخر، أما الحال بالنسبة لـ "إيفانا" فأصعب بكثير، فلا أحد يستطيع أن يصف الحزن الذي يخيم عليها وبكاءَها الدائم، خوفا على ما قد يصيبه من مكروه، فهو جندي ومن واجبه القتال... الحرب هي الحرب.

كان قد مر على وجودهما في أحد الفنادق المتواضعة يومان، بحث "يوهان" و "نوفاك" على مكان مناسب للجوء إليه، حيث إن مفهوم الوجود في أوربا مرفوض تماما، وبعد التشاور مع أهل الخبرة في الموانئ، وما أكثرهم، حيث أرادوا مدينة يعمها التسامح بعيدة عن الحرب، يتم تقبل الآخر بها، فكانت الإجابة متكررة وواحدة بين عدد كبير منهم.

بعد دخول "يوهان" و "نوفاك" إلى الغرفة التي تستقر بها السيدات في الفندق المتواضع حاملا بعض التذاكر الملاحية في يده، حيث وجدت "بارا" و "إيفانا" ووالدتيهما يتحدثون وقال "يوهان" والابتسامة تعلو وجهه:

- سنذهب إلى مكان بعيد يعمه السلام، ويتقبل جميع الأديان.

فقالت "بارا" في شوق ضاحكة :

- أسنذهب إلى الجنة ؟

فرد "نوفاك" وهو يبتسم:

- سنذهب إلى الإسكندرية.

* * *

الإسكندرية 1942

مر أسبوعان على زواج "ايزاك" من "بارا"، وقد كانت أسعد الفترات التي عاشها على الإطلاق، فالحياة مع "بارا" تحت سقف واحد لا تُقَدَّرُ بكنوز الدنيا، ويومًا بعد يوم يثبت بداخله إحساس أن اختياره كان الأفضل على الإطلاق، فهي مُحِبَّةٌ له بشكل كبير وتحاول دائما الحفاظ على سكينته وهو ما كان يفتقده دائما، ويكفيه من المتعة أن يستيقظ في الصباح قبلها بلحظات وينظر إلى وجهها وهي غارقة في النوم، فيتلمس خصلات شعرها الأشقر ويمرر أنامله على وجنتيها وجبينها، وينتظر بعدها الابتسامة الأولى لها بمجرد استيقاظها مهما كانت الظروف، فبداية اليوم وهي مبتسمة أمر مقدس بالنسبة لها، فمن رأى الموت من قبل يعرف جيدا كيف يستقبل نور الصباح، أما عن حياته معها في الفراش فهي اللذة القديمة التي جعل أداء "بارا" منها ذات معنى جديد، فقد عرف الجنس قبل الزواج مرات متعددة مع بعض الغانيات وبائعات الهوى، لكن "بارا" مختلفة إلى حد كبير، ففي البداية تكون هادئة كأغلب أوقاتها وبمجرد زيادة الوقت ومحاولة إثارتها بشكل أكبر يجد منها ما يزيد من رغبته بها، وتكون بداية الحديث بينهما بالفرنسية وما أن تصل اللذة إلى درجة أعلى حتى يخاطب كل منهما الآخر طالبا المزيد بلغته الأصلية، فيتفوه حينها "ايزاك" بمراده بعربيته الدارجة، أما "بارا" فتعبر عن رغبتها بالتشيكية، حتى يمسك خصلات شعرها الأشقر بيديه الاثنين كلجام خاص بمهرة جامحة ليروضها على الشكل الذي يريده وتُهَدِّئ بعدها من رغبتها العارمة، فلو كان الاثنان يتحدثان عدة لغات يكون الجنس هو اللغة المفهومة لكل البشر.

ومن الطقوس الأساسية في مخدعهما هو إشعال سيجارة واحدة بعد الوصول لمنتهى اللذة، يتقاسما دخانها معا، وابتدعت هذه العادة "بارا" فغالبا ما كانت تشعل السيجارة بمجرد انتهائها وبعدها فكرت في أنهما قد يشتركا معا في اللذة التي تحبها، فالدخان متعتها الثانية بعد حاجة التكاثر، أما عن علاقاتها بـ "ارينا" والسيد "حكيم" و "يوسف" فهي جيدة للغاية والجميع بدأ الاعتياد على وجودها بالمنزل، بالإضافة إلى تأديتها لصلوات السبت في الأسبوعين المنصرمين، مما بدأ يجعلها في منزلة خاصة عند السيد "حكيم"، فـ "ارينا" لم تفكر قبل ذلك في تأدية الصلوات المسؤولة من سيدة المنزل، أما عن "يوسف" فيحاول على قدر المستطاع التواصل معها والعمل على تلبية مطالبها، ففي بعض الأحيان كانت تطلب منه إحضار بعض الأوراق والأقلام لسبب لا يعلمه، كان من الطبيعي أن تتوقف عن العمل بعد زواجها من "ايزاك"، فهي ليست مجبرة على إيجاد قوت يومها، فأسرة زوجها من أغنى أغنياء "الإسكندرية"، وفي بعض الأحيان كانت تأتي والدتها لزيارتها مع "ايفانا" والسيدة "نستازا" وكانت تجد الترحيب الكامل، وقد قابل السيد "حكيم" والد "بارا" السيد "نوفاك" مرتين وكان

أغلب الحديث بينهما عن الأوضاع السياسية بالإضافة إلى الماضي المؤلم الذي يحمله السيد "نوفاك" معه في أي مكان يرتاده.

وكانت الأحداث السياسية العسكرية في الأيام الماضية ملتهبة للغاية، فالمعارك بين قوات المحور متمثلة في الفيلق الأفريقي في ليبيا على أشدها مع قوات الحلفاء، والمعارك تدور حول أهم النقاط الدفاعية في "بنغازي" فلو سقط سيكون الطريق ممهدًا لـ "روميل" إلى "الإسكندرية"، ليبحث بداخلها عن جيتو لليهود، ولم يكن السيد "حكيم" رجلاً قليل الخبرة، فقد احتاط لمثل هذا الأمر المتوقع ويعرف جيدًا أين يختبئ بعد أن يترك "الإسكندرية"، بالرغم من علمه التام أنها قد تكون الرحلة الأخيرة من "الإسكندرية"، لكنه يظل الأمل في مقاومة الحلفاء لـ "روميل" أطول فترة ممكنة، لكن هذا لا يبشر بخير فالقوات النازية تتجه إلى ما تريد بدون توقف.

* * *

كان "يوسف" في طريق عودته إلى منزله القريب من منزل "سارة"، ووجد حينها اختلافًا كبيرًا في الشارع الهادئ، فقد بدأ الشباب في التجمع من أجل تظاهرات مضادة للاحتلال يعرفها جيدًا، لم يهتم بهذه الأحداث، فهي غالبـًا لم تكن جزءًا من اهتمامه فهو لا يعرف ما سبب رفض وجود الإنجليز داخل مصر، ربما في حالة جلائهم سترحل معهم مربيته الآنسة "هيلين"، لكنه لاحظ أن الفرحة عارمة ونادى الجميع بسقوط الاحتلال ، وأن يعيش الملك، وأن يكمل "روميل" طريقه إلى الأمام، التوتر كان يعم الشارع، والجميع سائر في اتجاه ميدان "الرمل"، اعتقد أن الوطنيين قد يكونوا اغتالوا أحد العملاء كما يسمع دائما من والده، اقترب من منزله فوجد أن سيارتهم تحمل متاعهم، فلم يعرف السبب، ووجد "عبد العال" الذي يعمل لديهم بمتجر الذهب يشرف بنفسه على إنزال الحقائب وبعض الصناديق، بالإضافة إلى سيارة أخرى تشبه إلى حد كبير سيارتهم بدأ بها بالتحميل، اتجه نحو "عبد العال" وسأله عن سبب تواجد الأمتعة في السيارات، فأخبره أن يصعد إلى والده و "ارينا" لكي يستعد، فسأله لماذا ؟ ولم يجد منه إجابة شافية، فقرر الصعود لكي يعرف ما السبب وأثناء صعوده درجات السلم، أخذ يفكر هل سيتركون "الإسكندرية" فعلا، لكن كيف ؟ ويبدو أن الجميع سعداء في الشوارع، هل سيترك مدينتة ؟ و"سارة" ؟ كلا ليس الأمر بهذا السوء على أسوأ الأحوال، وعند وصوله إلى باب الشقة وجد أن الباب الخشبي مفتوح، فدفعه بيده واتجه نحو غرفة والده فوجد أخاه الأكبر "ايزاك" مع والده يتحدثان عن دخول الألمان إلى "الإسكندرية" أصبح أمرًا شبهَ حتميٍّ، وعند دخوله فاجأه والده بقوله وهو غاضب:

- أين كنت؟

فأجاب بهدوء:

- في درس البيانو

فأخبره والده أن يستعد للسفر في أسرع وقت ممكن، وأن أخته "ارينا" قد أعدت حقائبه ويجب أن يذهب للتأكد من أن كل احتياجاته وأغراضه الخاصة التي سيحتاجها قد أعدت بصورة جيدة، فأحس ساعتها أن كل ما كان يفكر به قد يكون صحيحا، وأنه قد لا يرى "سارة" مرة أخرى فانتظر حتى تتجمع لديه الشجاعة وهو يتخيل عدم رؤيتها مرة أخرى وقال مفاجئا الجميع:

- لن أسافر معكم.

وقعت الصدمة على مسامع والده وأخيه الأكبر ، فما كان من والده السيد "حكيم" إلا أن اتجه إليه بخطوات صارمة ومسرعة وصفعه وسط ذهول "يوسف" فهي المرة الأولى التي يصفعه فيها والده، أخذت منه بعض اللحظات لتفهم ما حدث وبعد استيعابه الكامل للموقف ما كان منه إلا البكاء وهو ينظر إلى والده، ونظر الاثنان إليه وهو يجري نحو الباب مُسرعًا تاركًا البيت ونزل درجات السلم بسرعة حتى إنه كاد أن يتعثر ويسقط، لكنه جرى وهو بالكاد يرى الطريق بسبب كثرة دموعه، لم يعرف إلى أين ستأخذه قدماه وسط زحمة الناس وانتشار الفوضى، فوجد المكان الوحيد الذي قد يستريح به، وأطلق ساقيه للريح في اتجاه منزل "سارة" وهو يتخطى العديد من الناس الثائرة الهاتفة.

اتجه عبر بوابة منزل "سارة" إلى باب شقتها وأخذ يطرقة بقوة مرات متعددة وسط بكائه الذي ينتابه صوت الألم، وأخذ يفكر في شيءٍ واحد، إنها المرة الأولى التي يصفعه فيها والده طوال حياته، لكنه لم يفعل شيئًا يستحق ذلك، فرغبته في عدم ترك المكان الذي يحب لا يجب أن يُوَاجَـهَ بمثل هذه القسوة، ماذا فعل من أجل ذلك؟ لا شيء، وكيف لن يرى "سارة" مرة أخرى، أو "جيمي" ؟ ما ذنبه في ترك ما يحب من أجل ما لا يعلم ؟

بعد انتظاره للحظات بدأ الباب في الحركة، وظهرت من خلفه "سارة" التي ذهلت من الحالة التي كان عليها "يوسف" فهي المرة الأولى التي تراه يبكي لأي سبب كان، وقفت للحظات ناظرة إلى عينيه الباكيتين، وآثار الضربة التي لا تزال ظاهرةً على خده الأيسر، وأحست حينها بالخوف لسبب لا تعرفه، فغالبا ما كانت تشعر بالأمان وهي معه، ودموعُـه المنهمرةُ جعلتها تشعر أن ثمة أمرٍ كارثيٍّ، ولم يقاطع الصمتَ الذي استمر للحظات سوى تواجد السيدة "منال" خلف

"سارة" بعد ان توجهت للباب بعد الطرقات المتعددة على الباب، اندهشت هي الأخرى من الحالة البائسة التي يظهر عليها "يوسف" ... لكنها سرعان ما سألته بلهفة:

- ماذا حدث يا "يوسف"؟

فرد وهو لا يزال يبكي:

- لا أريد أن أترك "الإسكندرية".

فطلبت منه الدخول للمنزل، واتجه جميعهم إلى الجزء الخاص باستقبال الضيوف بالمنزل، وبعد جلوسه بفترة ومحاولات "سارة" والسيدة "منال" تهدئته، فأخبرهم أن أسرته ستغادر "الإسكندرية" لمكان لا يعلمه وأن رغبته في البقاء ملحة، حيث إنه أصبح قادرًا على الاعتماد على نفسه والبقاء بمفرده، عرفت حينها السيدة "منال" أن أسرة "حكيم بك حداد" في طريقها نحو الهروب من "الإسكندرية" مثل أغلب اليهود السكندريين، واستنكرت في نفسها فكرة بقاء ولد لم يتجاوز الثالثة عشرة من عمره في مكان قد لا يرحب بوجود طائفته كثيرًا في أيام لا يعلم نهايتها أحد بعد.

فبدأت بالتخفيف عنه في محاولة منها لإقناعه أنه مجرد أمر وقتيٍّ وان العودة للحياة الطبيعية التي يحبها في وقت قريب، بينما كانت "سارة" لا تفهم السبب الرئيسي لتركه "الإسكندرية" هو وأسرته على أية حال تركت السيدة "منال" الطفلين للحظات صاعدةً إلى غرفتها لترتدي الملابس المناسبة للخروج من المنزل وإعادة الصبي إلى أسرته، مرت لحظات في صمت بين "يوسف" و "سارة" وما كان منه إلا أن نظر إليها وأكمل البكاء، أيقنت حينها أنها قد لا تراه مرة أخرى، فاتجهت إلى الكرسي الجالس عليه ووضعت يدَها على رأسه تتلمس خصلات شعره وكأنها تداعب قطها "تشا" أحس حينها "يوسف" أن كل هذه الدموع قد تهون من أجل لمس أناملها له، مرت اللحظات وكأنها زمن من السكينة والطمأنينة.

وقاطع الهدوء صوت السيدة "منال" وهي عند بوابة المنزل تطلب من الطفلين الحضور إلى الباب من أجل الذهاب لإعادة "يوسف" إلى منزله، شعر "يوسف" أنه لا يرغب في العودة ، لكنه أيقن استحالة الموقف ووجد أن التعويض الوحيد له عن ترك "الإسكندرية" هو أن يتجه إلى منزله مع السيدة "منال" وهو ممسك بيد الفتاة التي لا يعرف سبب ارتباطه النفسي والمعنوي بها، وهو ممسك بيد الفتاة التي تجعل بداخله الرغبة القوية في البقاء، وهو ممسك بيد الفتاة التي طالما وجد في استقطاب جمالها له سراً غير قادر على كشفه وهو ممسك بيد

"سارة مصطفى".

* * *

الإسكندرية 1999

لم يكن يتوقع أن يرى "يوسف" مرة أخرى في الجزء المُـتَبَـقي في حياته، وكانت قناعته تتلخص بأنه سيبقى جزءًا من الماضي، وصورته بمخيلته تمثل جزءًا من عنفوان الشباب، وظلت شاهدة على جماحه الذي لم يكبح، ورغباته الثائرة غير قابلة الإشباع، وصورة لتلك الأيام التي اعتقد أنها لن تنتهي أبدًا، حيث كان يبحث عن المعنى الحقيقي لمفهوم وجوده، وتحويل أحلامه إلى واقع ملموس، يتباهى به، أو يحرج منه، لكنه يبقى المتحمل الوحيد لعواقب قراراته، ففي النهاية كانت المحاولة تتلخص في الوصول للكمال...

نظر "جيمي" إلى البناء الضخم المكون من خمسة طوابق ذي الشرفات الخشبية البارزة التي يغلب عليها اللون الأزرق المائل إلى درجة فاتحة المتناسبة مع الطلاء الأبيض الكامل للمبنى، وتفحص الاسم المكتوب بلون ذهبي على الزجاج بالدور الأرضي، المجاور لباب الدخول الرئيسي لفندق "سيسل"، واتجه نحو الباب الرئيسي بخطوات متثاقلة وهو يتكئ على عصاه الخشبية، مرتديًا بزته ذات اللون الكحلي وقميصًا أبيض، و تخطى الباب الرئيسي للفندق، فأحس باختلاف تام في درجة حرارة البهو الرئيسي للاستقبال ذي درجة الحرارة المنخفضة نسبيًّا عن الخارج بسبب مُكَـيِّـفِ الهواء، أو قد يكون السبب قطع الرخام البيضاء التي تغطي الأرضية كاملة، واتجه بنظره إلى يمينه ليجد عدة مقاعد كلاسيكية التصميم على هيئة تجمعات منفردة متجاورة يغلب عليها اللون الأزرق، ملتفة حول عدد من المناضد الخشبية الصغيرة، أما في الجزء المواجه له فرأى موظف الاستقبال وهو يتحدث في الهاتف الموضوع على الجزء الرخامي الذي يبلغ ارتفاعه من الأرض حوالي المتر ونصف، ومن خلفه عدة ساعات متجاورة تحمل توقيتات عدد من المدن العالمية، وتشير الخاصة بـ "الإسكندرية" إلى الثالثة والنصف، اتجه إليه بشكل مباشر، حتى وقف أمامه وهو ينتظر أن ينهي مكالمته، وضع موظف الاستقبال الذي يبدو على مظهره أنه في منتصف عشرينياته على أقصى تقدير، ذو الشعر الأسود القصير مرتديا الزي الموحد لجميع العاملين بالفندق، أنهى الشاب مكالمته , نظر إلى الرجل الذي تجاوز السبعين من عمره مفرط البدانة، ذي الشعر الأبيض الممتزج مع اللحية البيضاء والشارب الكثيف الذى يحمل نفس اللون، وهو يبتسم وقال للرجل العجوز:

- سيدي، كيف يمكنني مساعدتكَ ؟

ابتسم الرجل الكبير مرحبا وقال:

- ابحث عن "يوسف حداد"، إنه نزيل لديكم منذ الأمس.

تفحص الشاب الحاسب الآليَّ الموجود بجانبه للحظات قليلة ثم اتجه إلى العجوز بالحديث:

- السيد "يوسف حداد" في غرفة 305 يمكنك التحدث إليه عبر الهاتف بطلب رقم الغرفة.

ابتسم له الرجل العجوز واتجه نحو الهاتف، وأمسك السماعة البيضاء اللون بيده اليسرى وهم بأصابع يده الأخرى بالاتصال... وتوقف للحظات وكأنه يفكر وبعدها وضع السماعة إلى مكانها الأول وعاد إلى الشاب وقال له ومبتسما وعلي ملامحة الماضي :

- ربما يمكنك إخباره أنني بانتظاره.

استغرب الشاب ولكنه تقبل الطلب وقال له مبتسما:

- اسمح لي بمعرفة اسمك لأبلغه عنه

فقال العجوز وهو يتجه مبتعدا نحو مقاعد الاستقبال:

- "جمال أحمد أبو الحسن"... "جيمي"

واستقر للجلوس إلى المقاعد بصعوبة بسبب بدانته المفرطة، اتكأ برأسه على العصى الخشبية وأغمض عينيه، فهو لم يستطع أن يأتي مبكرًا عن هذا الوقت بسبب كسوف الشمس الذي استغرق لحظات و انتهى منذ عدة ساعات بسبب التحذيرات من أشعتها أثناء الكسوف... وأخذ يفكر للحظات ووجد أنه من القلة التي شهدت مراحل اختلاف "الإسكندرية" منذ أن كانت مدينة بها العديد من جنسيات ،إلي أن هاجر من بها من أجانب، والتحول الذي حدث في شرائح المجتمع بشكل عام، ومرت بذاكرته العديد من المواقف بِـدءًا من حادث محاولة اغتيال "عبدالناصر" وتأميمه بعد ذلك بسنوات لقناة السويس من نفس المكان، حتى العدوان الثلاثي، لكن أكثر ما استوقفه هو حرب 1967 واحتلال إسرائيل لـ "سيناء"، ولا يعلم لماذا تذكر حينها "يوسف" بعد كل هذه السنوات، منذ أن ترك "الإسكندرية" دون إرسال خطاب واحد، ربما الإحساس بالهزيمة العسكرية جعل من عقله الباطن رافضا لاحتمالية أن يكون "يوسف" جزءًا من الاحتلال المغتصب، مغيرا هويته، ويتعدى على وطنه مصر... وحاول إقناع نفسه أن "يوسف" قد قصد مكانًا آخر... كان يعلم جيدًا أن السنوات كفيلة بتغيير أي شخص، فحاول حينها أن

يمحوَ جزءًا من تاريخه، كون صديقه المفضل قد يحمل جنسية العدو المغتصب للأرض... حتى بعد الانتصار العسكري لمصر عام 1973 وإحساسه التام بالعزة والكرامة المسترجعة، لم يشأ ولو للحظة بالتفكير بما كان يقتنع به في طفولته، وأيام شبابه الأولى.

وعبر سنوات الصراع التي استمرت أكثر من نصف قرن لم يشأ أن يسترجع مع أحد من أبنائه الثلاثة أوحتى مع "انطونيلا" الراحلة، ذلك الجزء من الماضي الذى كثيرا ما حاول اعتباره كحلم قد انتهى، بالإضافة إلى التعبئة النفسية التي يحمل بها كل يوم من جراء النشرات الإخبارية عن الأوضاع في فلسطين... من الاستشهاد أو عمليات تفجيرية أو حصار... كل ذلك جعله يرفض أن يتصل بـ "يوسف" في غرفته، فوضعه مشوش إلى حد كبير حيث إنه غير مؤهل نفسيًّا إلى رؤيته بشكل مباشر، كانت المفاجأة الكبرى بالنسبة له منذ ما يقارب شهر مضى، فبعد انتهائه من صلاة العشاء وهو يتلو أذكار المساء وجد حفيدته الصغيرة تأتي لغرفته وتخبره أن أحد أصدقائه القدامى يتصل به، وعند سؤاله لها عن هويته أخبرته أنها لا تعلم وعندما اتجه إلى الهاتف وبدأ بالتحدث وجد صوتا لا يعرفه على الإطلاق يحدثه بالعربية الركيكة ولم يخطر بباله ولو للحظة أن يكون "يوسف حداد"، بعدها أخبره المتحدث عن هويته، فلم يصدق نفسه أبَعدَ كل هذه السنوات التي قاربت على خمسة عقود لا يزال حيًّا ، وكيف وصل إليه ؟ وكيف يعيش ؟ ومن أين يتكلم ؟...

قاطع تسلسلَ أفكارِه صوتٌ يناديه باسمه، ففتح عينيه واتجه بنظره في اتجاه الصوت ليجد رجلا عجوزا يقف أمامه يرتدي نظارة طبية سميكة ذا شعر أبيض طويل يرتدي قميصًا ذا لون أخضر داكن وأخذ للحظات يتأمل ملامحه عينيه البنيتين من تحت حاجبيه الكثيفين اللذين تتخللهما القلة من الشعيرات السوداء والحسنة السوداء الصغيرة على خده الأيسر... لكن يبدو أن السن قد أثر على بشرته فأصبحت مترهلة قليلا عمَّا كان علية صغيرًا إنه "يوسف"، اتكأ على عصاه بشكل قوي حتى يقف من جلسته مُرتَسِمَـةً على وجهه ابتسامةٌ كبيرة فارقته كثيرًا منذ وفاة "انطونيلا" وقف أمام "يوسف" للحظات وكل منهما يتأمل الآخر... واتجه "جيمي" إلى "يوسف" واحتضنه بقوة وهو يقول له:

- اعتقدت أنني لن أراك ثانية... في هذه الحياة على الأقل.

* * *

الإسكندرية 1947

مرت عدة سنوات على محاولة دخول الألمان مصر، والتغيير غالبا ما يكون السمة الأساسية في الحقب الزمنية الهامة في تاريخ الأمم، وما حدث في تلك السنوات التي تحصى على أصابع اليد الواحدة، قد فاق ما يتخيله أو يتصوره أو حتى يطمح له البعض، والنهايات غير المتوقعة للأحداث المؤثرة كثيرًا ما تضيف إطارًا دراميًّا نادرًا ما يتوقعه أحد، فبعد أن كان الطريق خاليًا أمام الجيوش النازية لدخول "الإسكندرية"، تغير اتجاهُ دفة سفينة النصر إلى الحلفاء، والفضل يرجع إلى القائد "منتجومري" الذي أقصى الفيلق الأفريقي للجيش النازي، ما لم يكن متوقعا من هزيمته في معركة العالمين في الجزء الشمالي الغربي من مصر، مما أجبر القوات الألمانية على التقهقر في اتجاه الغرب وهكذا انتهت أحلام الغزو النازيِّ لمصر لفترة...

واستمرت الحرب ثلاث سنوات أخرى تبادل فيها الحلفاء ودول المحور دفة القيادة حتى ساد طموح الحلفاء، وبدأت النهاية المأساوية، فقبل أن ينتهي إبريل للعام 1945 كانت قوات الحلفاء على أعتاب روما، وبعدها تم القبض على "موسيليني" وهو يحاول الهروب إلى ألمانيا، وأعدم وتم تعليق جثته أمام أحد محطات الوقود في قلب العاصمة التي اعتبرها البعض أنها ستكون الأمبراطورية الرومانية الجديدة، واتجه جزء من جيوش الحلفاء نحو فرنسا لتحريرها، و ابعد الاخر إلى "برلين" داخل "ألمانيا"، وسقط "هتلر" وسقطت معه أحلام وآمال شخص اقتنع ذاتيا أنه قادر على حكم العالم بمفرده، وتم إعلان الاستسلام الألماني غير المشروط، ورسخت الولايات المتحدة الأمريكية نفسها كقوة عظمى بعد أن أخذت الثأر من اليابان بقنبلة لم يعرفها البشر من قبل واستسلمت اليابان... وراح ضحية الحرب ما يقرب من سبعين مليون شخصًا ، كل فرد من هؤلاء كانت له طموحاته وهوياته ، وأيضا حبيبٌ ينتظره لينظر إليه في لهفة... ربما بعضهم مات مدافعا عما يؤمن به، والبعض الآخر اضطر للتضحية من أجل كيان مقتنع بالتبعية له أو من أجل إنقاذ امرأة أو من أجل إنقاذ طفل أو حتى وطن, الغريب أن جميعهم أصبحوا مجرد جزءٍ من الماضي، قد يكون شابا أو كهلا، يافعًا أو عجوزًا، بطلاً أو مخادعًا، عذراء أو ثيبًا، الجميع اشترك في نفس المصير...

فما الحكمة من وجود الأسلاك الشائكة على قطع من الأرض وادعاء البعض لامتلاكه لها، وما العظمة في وجود الحواجز بين البشر واختلاف التقاليد والمواريث الشعبية والقبلية، ولو كان البعض على جانب من الحواجز وقام بطلب ملكية الجانب المقابل لأي سب كان، معتقداته الدينية أو الشخصية، ميوله العدائية، إحساسه بالذاتية، رغبة في المجد، أو حتى من أجل امرأة... أو ربما

ثروة...

أصبح مفهوم رؤيته من كلا الجانبين مختلفاً، البعض يراه بطلا أسمى من البشر، قائدًا من الظلام إلى النور الأبدي ، نصف إله، راعيًا للبشرية، والجانب الآخر وجده غازيًا أو محتلاً أو قاتلاً أو حتى داعرًا ، وفي النهاية الفرق بين الاختلافين ليس في القيم أو القيمة أو نبل الأخلاق أو رفعة الأصل أو دنوه... الفارق يتلخص في حاجز وهميّ ابتدعناه وأنشأناه وآمنا به مقتنعين بالانتماء لأحد الجانبين، وكل الصراعات الإنسانية من أجل السلطة والمال هي في النهاية من أجل الأرض وامتلاكها... تلك الأرض الطيبة التي تمنحنا ما نحتاجه، كل هذا من أجل حدود وهمية على ورقة يحيطها لون أزرق يدل على المحيطات والبحار، كل هذا من أجل شيءٍ وهميّ وسيادة على الأشخاص، يدلل المعتقد الغالب أنهم متساوون، العالم يتغير بشكل دوريٍّ.

* * *

كانت الأيام الأولى من ديسمبر شديدة البرودة في "الإسكندرية" بالإضافة إلى الأمطار التي نادرًا ما تتوقف، وبالرغم من أن الساعة قد قاربت على التاسعة صباحًا، إلا أن الشمس قد أبت أن تظهر بكامل نورها، وفي الجزء الغربيِّ من "الإسكندرية" الجميلة بالقرب من قلعة "قايتباي" نسبة إلى السطان المملوكي، والتي يقال إنها شُـيِّـدَت على أنقاض فنار "الإسكندرية" الشهير على جزيرة "فاروس"، كان شابان في مُقتَبَلِ العمر في أحد قوارب الصيد الصغيرة على بُعد ما يقرب كيلومترين في عرض البحر، نظر "يوسف" الجالس في الجانب الخلفي من قارب الصيد الصغير حاملا صنارة صيده الملقاة خيطها إلى البحر، وهو يتابع صديقه "جيمي" الجالسَ في الجانب الآخر من المركب الصغير ويحمل هو أيضا صنارته، تأمل وجهه ورأى كم اختلف منذ طفولتهما إلى الآن... فهو لا يزال أبيض البشرة ذا شعر بني طويل وممتلئ الوجه، لكن ما تغير هو لحيته الخفيفة التي ظهرت علي وجههة وجسده الذى اشتد وأصبح على هيئة رجل... كان يرتدي معطفًا جلديًّا بالإضافة إلى قبعة مضادة للمطر، تحمل نفس اللون تقريبًا، ويبدو هو الآخر أنه يفكر بشكل عميق، ربما يعلم "يوسف" السبب في كل ذلك.

لقد مرت خمسُ سنوات على معرفته بـ "سارة" وكونه في "الإسكندرية" الآن مرة أخرى، لم يكن سهلا على الإطلاق، إنه يتذكر يوم ترك "الإسكندرية" وكأنه البارحة، رفض السفر وصفعه والده وهروبه إلى منزلها... تلاحقت الأحداث في ذاكرته وكأنها فيلم سينمائي، عودته إلى منزله وسط الزحام مُمسِـكًا يدَها، الرغبة في البقاء، لكن كل ذلك كان مستحيلا في ذلك الوقت، لكنه يحمد الله على استمرار وجوده هنا على أية حال... فالقدرة الإلهية أقوى من الدوافع

البشرية في أغلب الأحيان.

لكن توالي الأحداث في الفترة التالية وكثرتها ربما لم يكن غير مقنع إلى حد كبير، فالجميع لم يغادر "الإسكندرية"، فاليوم السابق للسفر كان آخر يوم يرى فيه أخته الكبرى "ارينا" مما اضطر والده للبقاء في "الإسكندرية" ليوم إضافيٍّ لكي يبحث فيه عن ابنته الوحيدة، أيقن بعد فترة بسيطة أن الفتاة الطائشة قد هربت مع الفتى ذي الأصول الإسبانية، أحس وقتها أن الفتاة بالرغم من خطيئتها فهي ضحية إلى حد كبير، فما ذنبها في أن تحب شخصًا غير قادرة على الارتباط به بسبب ديانته، ولم يعلم أحدٌ إلى اليوم هل ما تزال حية أم لا؟ أسعيدة أم تعسة؟ وما المدينة التي يَقطنَانِ بها مع إيمان تام بكونهما خارج البلاد، ربما "إسبانيا" أو إحدى الدول المتوسطية... لا أحد يعلم.

وبعد ذلك اتجه والده إلى القاهرة المكان الذي أصبح ملاذهم لفترة من الزمن، فقد كانت خطة هروبهم مبنية على فكرة الاحتمالات إلى حد كبير، حيث إن والده يحاول بشتى الطرق المحافظة على وجوده داخل مصر، ولم يفعل مثل أغلب اليهود ذوي الأصول الأجنبية بالذهاب إلى الخارج هروبًا من النازية، ففي بداية الأمر قرر ترك "الإسكندرية" بشكل مؤقت نازحًا إلى القاهرة حتى تتضح الرؤية بشكل كامل أمام تفكيره، فلو أتم الجيش الألماني الدخول إلى مصر كان اللجوء إلى الجنوب هو خطوته التالية، ولو بقي الحلفاء على موقفهم بالمحافظة على "الإسكندرية" لكان الوضع مختلفا، وعادت المياه إلى سابق مجراها المعتاد ، وعاد إلى "الإسكندرية" تلك البلدة المفضلة إلى قلبه مع من تبقى من أسرته.

لقد كان هناك دورٌ مميزٌ لـ "عبد العال" العامل المخلص لهم، فهو من وفر لهم الإقامة بـ "حارة اليهود" بالقرب من "الموسكي"... الغريب في الأمر أنه تعرف حينها على طوائف أخرى من اليهود، فيهود القاهرة هم من جماعة اليهود القرائين، وعرف أنهم يؤمنون أن كل التوراة قد كُتِبَت في حياة النبي "موسى" ولا يؤمنون سوى بالعهد القديم فقط، هذا بالإضافة إلى الاختلاف في الصلاة.

كانت الأيام في القاهرة يحدوها الترقب والحذر في أوقات كثيرة، والتفكير المستمر في "سارة" في أوقات أخرى بالنسبة لـ "يوسف"... بالإضافة إلى حزن والده الشديد على هروب ابنته، أما "ايزاك" و "بارا" فقد كان أغلب الوقت تحدِّيًا لإنجاح علاقتهما وزيادة التفاهم بينهما ، كثيرًا ما وجه "ايزاك" اللوم لوالده بأنه السبب الرئيسي لهروب "ارينا" بسبب تدليله الزائد عن الحد لها... وامضي

"ايزاك" وقته متعمقًا في القراءة بمراجع أغلبها بالفرنسية عن الصهيونية... لم تكن القاهرة محببة إلى "يوسف" بالرغم من جمالها، ويرجع السبب في ذلك لمفهوم الافتقاد... فقد افتقد كل ما يحب دون سبب، حتى أخته التي كان يحبها هربت من أجل آخر لا يعرفه... مرت الشهور ببطئ شديد دون تحديد المصير، فالانتظار أمر مهين وممل إلى حد كبير... تتابعت الأمور من سيئٍ إلى أسوأ، حيث اشتد بعد ذلك المرض على والده لسبب غير معروف إلى الآن، حتى أصابته الحمى وبدأ في الانهيار، وخلال وقت قصير للغاية افتقده هو الآخر... لم يكن يتوقع أن يفقد اثنين من أسرته الصغيرة في غضون بضعة أشهر... انهار بعدها لفترة فوالده كان الجزء الأقوى المتبقي لديه في الأسرة، وكانت العودة لمرحلة شبه الاتزان بعد هزيمة الحلفاء للنازيين في معركة "العالمين"، وشبه استقرار الأمور والعودة إلى "الإسكندرية" عاد هو وأخوه وزوجة أخيه فقط، بعد أن كان من المفترض وجود أخته ووالده معه، قاطع استمرارَ تفكيره صوتُ "جيمي" وهو يسأله:

- أتعتقد أنني مخطئ؟

فنظر إليه "يوسف" مبتسمًا متناسيًا همومه التي يحملها، وحرك رأسه في إشارة تدل على النفي وبعدها قال له:

- لا أعتقد أن ارتباطك بـ "أنطونيلا" سيؤثر على أحد.

كان يعلم أن الفارق الطبقيَّ بين "جيمي" و "انطونيلا" كبيرٌ إلى حد كبير، فمركز والده الاجتماعي والمالي لا يتناسب مع كون "انطونيلا" ابنة لخياطهم الخاص، لكنه أحبها بشكل كبير، كان في بداية الأمر يعتقد أن علاقتهما قد تبدأ وتنتهي في مكان واحد هو الفراش، لكن بعد ذلك اكتشف بها ما كان يطمح له، ويحاول البحث عنه، على الرغم من تعدد علاقاته ورغباته الشديدة المتشابكة، وجد بها ما يحبه مما جعلة يرتبط بها نفسيًّا وعاطفيًّا، ولم يكن من المقنع رفض والده ذي التاريخ الأسود في الرغبات، والعلاقات المشينة بالرغم من تظاهره بالتقوى ، فالمتعة والإيمان أجزاء مختلفة غير مرتبطة في وجدانه، فما المانع من وجود الاختلافات الطبقية أو الجنسية حتى في ذلك.

مر الوقت المتبقي في هدوء وكلاهما يتأمل ماضيه، ويحاول التنبؤ بمستقبله، ربما لن تسير الأمور لما يطمح إليه كلاهما... لكن الصورة الوردية للمستقبل قد تكون مشرقة، إنها العامل المشترك في أحلامهما التي قد تحاول أن تقترب، وهنا تذكر "جيمي" أن يسأل "يوسف" عن شيءٍ مهم للغاية فقال له:

- ماذا أعددت لعيد ميلاد "سارة"؟

أخذ يفكر "يوسف" لفترة، فهو لم يحضر شيئًا مُحددًا بعد، واكتفى بالنظر له وهو يفكر، ربما سينتهي الحال بأحد فعلاتهم الجنونية التي اعتادا على فعلها منذ طفولتهما، وعندها سأله "جيمي" عن الميعاد المحدد لعيد ميلادها، فرد وكأنه يتذكر مولدها عن ظهر قلب وأجاب وابتسامتُه تعلو وجهَه:

- في التاسع من ديسمبر ستكملُ عامها الثامن عشر.

* * *

في بداية مهد الصهيونية وبعد وعد "بلفور" لم تكن تتعارض الصهيونية مع العمل الوطني المصري على الإطلاق، وكان أساس عملها هو الأنشطة الخيرية، وتوفير الدعم المادي اللازم لإنشاء الجامعة العبرية في فلسطين، مع تزياد تدفق الهجرة اليهودية لأرض فلسطين، حتى اندلاع الثورة العربية الكبرى في فلسطين في عام 1936. بدأت نظرة التعاطف المصرية مع الصهيونية أن تأخذ منعطفًا آخر، ففي البداية كانت أوضاع اليهود الاقتصادية والاجتماعية مميزة للغاية، بالإضافة لكون الصهيونية تهتم بإنشاء وطن قوميٍّ لليهود على أرض إسرائيل والاهتمام باللغة العبرية، وهو ما كان يتنافى مع اليهود المصريين الذين كان اهتمامهم الأول بالديانة اليهودية وشعائرها دون الاهتمام بإقامة وطن قومي أو تعلم العبرية.

ووصولا لمرحلة الثورة العبرية الكبرى، مرت الصهيونية بمراحل متعددة، فالبداية في مؤتمر "بازل" تلك المدينة السويسرية وأصبح حينها "تيودور هرتزل" الصحفيُّ النمساويُّ ومؤسسُ الصهيونيةِ رئيسَ الحركةِ الصهيونيةِ، وقبل وعد "بلفور" بسنوات عدة كانت أفكار إنشاء وطن قومي لليهود تتركز في إقامة أماكن أخرى غير فلسطين، منها "الأرجنتين" و "كينيا"، وبعد بداية الحرب العالمية الأولى كان من المنطقي اللعب بالأوراق السياسية لضمان تعاطف الجميع، وهذا ما أتقنته الإمبراطورية البريطانية، وتم التصريح بوعد "بلفور" في عام 1917، وبعد هزيمة الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى في العام التالي، وبفرض الانتداب "البريطاني" على فلسطين في عام 1922 كان تفعيلُ هجرةِ اليهودِ أمرًا

حتميًّا، وزادت نسبةُ هجرة اليهود لفلسطين بشكل ملحوظ، وبدأ مفهوم آخر للظهور هو الهجرة اليهودية المنظمة لأراض فلسطين، وبدأ اكتساب الأرض في البداية من خلال بيع الفلسطينيين لأراضيهم، ثم الإجبار على البيع، ثم الإجبار على البيع أو الطرد، ثم الطرد بشكل مباشر، وقد زاد مقدار الغضب العربي من تلك الظاهرة، بالإضافة إلى ما يشبه تواطؤ الانتداب "البريطاني" مع اليهود، وكانت الثورة العربية الكبرى عام 1936، وواجه اليهود الثورة العربية بتأسيس ميلشيات يهودية مسلحة بهدف القضاء على الثورة العربية ومنها الأرجون والهجانة.

مع زيادة الاضطهاد النازي لليهود الأوربيين زاد التعاطف العربي مع اليهود بشكل عام مع زيادة أخرى في أعداد اليهود المهاجرين لفلسطين مرة أخرى ، وزاد الصراع العربي الصهيوني على الأرض بعد إعلان نية الانتداب "البريطاني" الانسحاب من فلسطين حتى وصل النزاع إلى الساحات الدولية، وقبل انتهاء نوفمبر للعام 1947 كانت قد وافقت الجمعية العامة التابعة للأمم المتحدة على القرار بتقسيم فلسطين لدولة عربية وأخرى يهودية.

* * *

كانت السعادة الغامرة تعم "ايزاك" بعد معرفته بخبر التقسيم، وأيقن بداخله أن الله لن يتخلى عن اليهود مرة أخرى، فهذه بمثابة المكافأة الأولى لهم بعد فترة الاضطهاد في أوربا ، الله قد اختارهم مرة أخرى ليكونوا الدافع المؤثر في هداية البشرية، فجهوده في السنوات الماضية بالانضمام إلى حركة (الرواد المتحدين)، التي قام بتكوينها المجلس الصهيوني العالمي لتوحيد صفوف الصهيونية في "مصر"، ولتجنب التوترات الحزبية، ودماء الآلاف من شهداء النضال اليهودي لم تضِع هباءًا ، المستقبل إذًا في فلسطين والقرارات الحكيمة التي اتخذت من قبل الحركة كانت غالبا صائبة، ربما الفضل يرجع بالإضافة لـ "بارا" إلى"ايفانا"، وكم اشتاق إلى تعاليمها بالرغم من صغر سنها، لقد تركت مصر إلى فلسطين مع أول دفعة مهاجرة في بدايات 1945 لتنشيء المستوطنة المصرية الأولى بفلسطين بمصاحبة والديها بالضافة الي والدي "بارا" التي قررت ان تبقي فترة غير معلومة من الزمن بجانب زوجها, فهي تخلص لمن تحب , كما اعتادت

إن "ارينا" ومثيلاتها السبب الرئيسي للوصول لما اصبحوا علية اليهود الان ،

أرض واحدة، ووطن يستحق أن يولد ليبقى، كل هذه الأخبار السارة في الأيام الماضية جعلت "ايزاك" يتناسى آلامه الشخصية والعائلية، فقد زادت الأعباء عليه في العمل بشكل كبير بعد وفاة والده، بالإضافة لإيمانه العميق بأنه قد يكون السبب الرئيسي وراء هروب أخته الصغيرة "ارينا" و"يوسف" الذي لا يهتم بشيءٍ سوى حياة الرفاهية التي يحياها، وكان من الصواب ما فعله بعدم إجباره على اختيار دراسته الجامعية، على الرغم من رغبته الداخلية بمساعدته له في أمور العمل، لكن الصغير "يوسف" اختار الدراسة الهندسية، يجب أن يمنحه الحرية لاختيار قراراته حتى يتمكن من تحمل مسؤوليتها في المستقبل، فهو يعتقد أن اختياره للدراسة الهندسية سيكون بالنسبة له العامل الأهم في مسيرته الشخصية، ربما على كل الأحوال أفضل من رغبة "يوسف" الحقيقية بالعمل بالسينما، فأسرته لن تسامحه مهما طال الزمن لو ساهم في تلطيخً اسم الأسرة بمثل هذا العبث، فالسينما عمل الفاشلين والداعرات، وهكذا كان اعتقاد غالبية الشعب المصري ، حتى أن أغلب السينمائيين من الجاليات الأجنبية من إيطاليين وفرنسيين، وحتى من بلاد الشام، كثيرا ما حاول "يوسف" مصارحته بأنه مؤمن بالعمل كمخرج أو حتى كاتب سيناريو إذا كان ظهوره أمام الكاميرا سيسبب العار للأسرة كاملة.

لكنه وجد الرفض التام والتهديد بالحرمان المطلق من مدخراته، فلن يكون ذلك التعس هو سبب تشويه السمعة العظيمة للأسرة التي تم المحافظة عليها جيلا بعد جيل، حتى عندما حاول "يوسف" استمالة قلب أخيه الأكبر من خلال توسيط "بارا"، التي كانت تعتقد أنه لا مانع من العمل بالفنون بشكل عام، لكنها وجدت رفضا مطلقا وهو أمر لم تعتده من "ايزاك".

كانت عقارب الساعة قد قاربت التاسعة والنصف، ووجود "ايزاك" في منزله بالقرب من المدفأة أمر منطقي في ظل الظروف الحالية، فبرد الليل القارس بـ"الإسكندرية" في هذا الوقت من السنة الذي لا يتوازى أبدًا مع سخونة الأحداث الجارية في الفترة الماضية، وقد تكون القادمة أيضا، فمنذ بداية العام والمظاهرات والإضرابات أصبحت السمة السائدة في أغلب المهن، بداية من مُدَرِّسي التعليم، ومرورًا بالأطباء والممرضين، وحتى موظفي التلغراف أما الفاجعة الكبرى فكانت في إضراب ضباط البوليس الذي ابتدأ مع منتصف أكتوبر، حيث امتنع أربعة آلاف من رجال البوليس والجنود عن تأدية عملهم، فما كان من الحكمدارية إلا الاستعانة بفرق الجيش لاحتلال أقسام البوليس، وانتشرت بعد

ذلك المظاهرات التي تتضامن مع القوة الشعبية لتثور عما بلغه الحال الاقتصادي من سوء، حينها تم أعلان حظر التجوال في "الإسكندرية" للمرة الأولى منذ فترة ليست بالقصيرة، ففي النهاية الحاجة والرغبة الملحة تؤدي إلى الاستنكار فالرفض فالاحتجاج فالثورة.

نظر "ايزاك" إلى ألسنة اللهب المتصاعدة من المدفأة التي أعطت المكان شعورًا نسبيًّا بالدفء، ووقام من الكرسي الكبير ذي طراز القرون الوسطى، واتجه نحو المدفأة بخطوات بطيئة وهو واضع يديه معا بسبب شعوره النسبيِّ بالبرودة، وعندما كانت المسافة بينه وبين ألسنة اللهب أقل من قدمين، اتجه بيديه إلى الجزء العلوي من المدفأة التي يوجد عليها الشمعدان سُباعي الأذرُع، وأخذ القضبان الحديدية الطويلة المخصصة لضبط وضع الخشب المشتعل داخل النيران، وأخذ من الجانب الأيسر بعضا من القطع الخشبية وألقى بها داخل النيران مما زاد على اشتعالها، مع زيادة صوتها غير القابل للترويض، وأخذ يحرك العصى داخل النيران مما زاد من اشتعالها مرة أخرى، وبعد شعوره أن النيران قد اشتعلت بشكل مناسب تأكد أن مهمته قد انتهت بصورة جيدة، وعاد إلى مجلسه كما كان في البداية وأخذ ينظر إلي السنة اللهب.

قطع شرود تأملاته صوتُ خطوات "بارا" القادمة بهدوء كعادتها وشعر بيديها تتحسس كتفيه من الخلف ثم مرت على شعره وأخذ صوتها يقول:

- الجو بارد إلى حد كبير في غرفة النوم، ربما يمكنك المساعدة.

ابتسم ابتسامة تدل على فهمه مرادها، فما من شيء أخطر من أن تكون المرأة في حاجة إلى الدفء، اتجه بيده اليمنى إلى كتفه الأيسر حيث يدها، وأمسك بها وقربها من شفتيه ليقبلها ثم جذبها نحوه وتحركت "بارا" من الجانب الخلفي للكرسي لكي تكون في مقابلته مع اتجاه حركة يدها، وقفت أمامه وأخذ بتفحص ما ترِتديه، كانت مصففة لشعرها الأشقر بشكل مجعد، وترتدي قميصَ نومٍ مكشوفَ الصدرِ، أخضرَ اللونِ أضاف إلى جمالها البوهيمي بُعدًا آخرًا، جذبها تجاهه بقوة حتى أجلسها في حجره، واحتضنها وكأنه يحتضن الألم بأسره، كان يعلم بداخله أنها تحاول أن ترضيه بأي شكل كان، فقد مرت خمسُ سنوات من الزواج دون حدوث حمل... هذا الأمر كان يؤرقه بشكل كبير، ففي النهاية يجب أن يكون هناك وريث لكل هذه الثروة، ويجب أن يظل اسمه مُخلدًا كما فعل والده وأجداده من قبله، لكنها تتفانى لكي تسعده على أية حال، بالإضافة إلى أنه في البداية يجب أن يكون هناك وطن لذلك الطفل مع ملايين مثله يدينون بنفس الدين، ربما تكمن الأهمية في أن يكون مولد الطفل داخل وطنه الذي قَرُبَ إعلانُـه أن يكون بشكل رسمي، المستقبل دائما سيكون أفضل لأطفاله

وأبنائهم في جميع الأحوال، ربما لقناعته بكل ذلك قام في العام الماضي بشراء العملة اليهودية الجديدة المسماة بـ "الشيكل"، وبعد فترة ربما قد يحول كل أمواله لها ويبقى الجزء المتبقي من عمره لزوجته المخلصة وأبنائه القادمين، حيث السعادة الأبدية والسكينة الدائمة في أرضه مع شعبه ذي الطموح الواحد، والرغبة الملحة في إيجاد دور مؤثر لهم على صفحات التاريخ كجماعة واحدة، فقد كان الشتات منذ آلاف السنوات كافيًا.

* * *

كان "يوسف" في طريقه إلى فيلا رقم 21 بشارع القائد "جوهر" عند صديقه الذي يكبره بأربعين عاما، فعلى الرغم من اختلاف الأجيال والجنسية والديانة إلا أن ثمة نقاط مشتركة في حياتهما، فصديقه إيطالي الجنسية "الفيزى ماركو " مهووس هو الآخر بنفس الحب، ذلك المتنفس العظيم للعقل، ومزج الفنون معا في قالب واحد ليأتي بما تقتنع به وتجعله جزءًا من الواقع ولو لبعض الوقت، تخلق فيه الآلام والطموحات، السعادة والحزن، القدرة الكامنة في مشاركة الشعور والوجدان ولو لفترة قصيرة مع اختلاف نوعية المتلقى، الجنة ذات اللونين، إنه عشق السينما.

كان "الفيزى" في الأصل مصوراً عشق الصورة بمعاملاتها وتفاصيلها، وجد بالصور ما يقنعه ويحاول إرضاء طموحه ويعبر عن معتقداته ومشاهداته، وجد الحياة الكاملة في لقطة استغرقت جزءًا من الثانية، وكأنه سرق الزمن واختلس مما يمتلك محافظا عليه داخل إطار قد يستمر للأبد، ربما يعبر عن سعادة أو ألم أو حتى رعب، لكن المتعة الكاملة أن الإطار سيظل لفترة أخرى أطول مما كان يعتقده البعض، ومع بداية انتشار السينما في بدايات القرن العشرين، وجد بُعدًا آخرًا من المتعة، فقد أصبح قادرًا على أن يسرق أجزاءً من الزمن، ويجعل من بداخلها يفتعل ما يريد، لذة متناهية الآفاق، الحرية المطلقة في أن تكون ربا لبعض الأشخاص وتجعلهم لما هو متطابق مع رؤيتك الشخصية، مُعَبِّرًا عن الواقع أو مُختَلِقًا لواقع آخر، لا فرق المهم أن تكون الصورة قابلة للرؤية.

في بداية حياته المهنية كان يعمل كمصور للجالية الإيطالية بـ "الإسكندرية" وبعد إيمانه التام بفكرة السينما، قام بشراء كاميرات وآلات الطبع، وقام بإنشاء استديو، وقد قام بإخراج بعض الأفلام في نهاية الثلاثينيات منها "ثمن السعادة"و "تحت السلاح" التي لاقت نجاحا مقنعا فى وقتها، وبعد إحساس "يوسف" أنه يمتلك الموهبة اللازمة للعمل بالسينما، كان اللقاء الأول بينهما عن طريق "انزو" صديق والده القديم، لقد كان يحمل العديد من الأفكار لعدة أفلام ويتذكر "يوسف" دائمًا النظرة التي ارتسمت على وجه "الفيزى" أول مرة قابله، فقد اندهش من

صغر سنه بشكل كبير، واعتقد أن "انزو" قد أضاع جزءًا من وقته بمقابلة فتى صغير لا يفقه شيئًا عن الحياة، لكن بعد الحديث معه لفترة قصيرة وعرض الشاب بعض أفكار مما يحمل، وجد به موهبةً نادرةً قد لا تتوازى مع عمره، وبالتعمق في الحديث معه، وجد بداخله ثقافة قد تكون مبهرة في بعض الأحيان يحمل نظرة تأملية وكأنه في الثمانين من عمره، وتذكر السؤال الذى دل على مدى عبقرية الفتى اليافع، فقد سأله "الفيزى" بلكنته العربية الركيكة عما يفعله في حياته، وقد كانت إجابة الفتى مصدرا لدهشته بما يوازى السؤال نفسه، فما كان منه إلا أن رد مبتسما:

- متعتي الكبرى في متابعة السلوك الإنساني

وعرف حينها "الفيزى" أن الفتى الصغير جدير بما يطمح إليه، فهو ليس ذلك الفتى المدلل ذا الأصول الراقية الذي يحاول العبث واهما بأن السينما هي التي ستوفر له الشهرة التي يحلم بها، ذكره أيضا بنفسه وهو صغير، الذكاء المبالغ فيه بالنسبة لعمره، وتعددت اللقاءات بينهما بعد ذلك، وقد كان "يوسف" يطلب دائما أن يكون اللقاء في الاستوديو حتى يبتعد عن أعين أخيه أولا، ثم للتمتع بمشاهدة الكاميرات والآلات الطابعة، العالم الخيالي الذي يرغب بأن يكون جزءًا منه، وتعمقت الأحاديث بينهما عن كل شيءٍ بداية من مولد "الفيزى" بإيطاليا حتى شكل جسد الفتاة التى حلم بها "يوسف" قبل مقابلته له، وجد كلاهما نفسه في الآخر، والتجربة الزاخرة لحياة "الفيزى" كانت دائمًا مصدر إلهام لـ "يوسف"، والسينما والموسيقى العاملان المشتركان الأكبر في حديثهما.

وقف "يوسف" أمام الباب الرئيسي للفيلا المقام داخلها الاستديو ووضع يده على الزر المخصص للجرس الكهربائي في الجانب الأيسر من الباب، حتى سمع الصوت الخاص بالتنبيه يهز أرجاء البناء وبعدها بلحظات فتح الباب ليكشف عن رجل قد جاوز الستين من عمره ذي شعر أبيض طويل للغاية على هيئة ذيل حصان وعيون زرقاء ولحية بيضاء مرتديا قميصا يغلب عليه اللون الزهري وبنطالا أسود وبدأت ابتسامة على وجهه بشكل كبير وأشار له بعد تحيته بالتوجه إلى الداخل.

ودخل "يوسف" إلى البهو، وأخذ يتفحص المكان وكأنها المرة الأولى له بالرغم من حفظه لإحداثيات المكان عن ظهر قلب، البهو الرئيسي شبه الخالي عدا من عدة كراسي جلدية مخصصة للاستقبال إضافة إلى الفوضى العارمة المحاطة بها العديد من الصناديق الخشبية وفي الجزء المقابل للبهو الغرفة المخصصة

لمكتب "الفيزى"، اتجه "يوسف" نحو الغرفة بشكل مباشر عابراً الصناديق الخشبية، وعند دخوله لمكتب "الفيزى" المتناثر الأرجاء الذى يوجد عليه صورة له مع "الفيزى" في إطار معدني وفي خلفيتهما البحر على الرمال الصفراء، قاطع الصمت دخول "الفيزى" وهو يحمل زجاجة نبيذ من نوع "أمارون" في يده اليسرى وكأسين فارغين في يده الأخرى، مع طبق صغير به بعض الجبن التركي، واتجه ليجلس على كرسيه في الجانب المواجه للأريكة ووضع الزجاجة والكأسين على المكتب، واعتذر عن عدم وجود الخادم، وبعدها بدأ بمديح الزجاجة المعتقة وقال:

- مذاقه قوي للغاية، يحتاج بعض الجبن ليظهر طعمه المميز.

فرد عليه "يوسف":

- تعلم أنني أقلعت عن الشراب من فترة.

أمال "الفيزى" رأسه إلى الأمام بشكل مستنكرًا ورد عليه:

- "يوسف" تعلم كم أحبك، لا تجعل نفسك ترى الحياة كلها من وجهة نظر واحدة، والإيمان التام أن الله قد منحك "سارة" لتكون أفضل.ففي النهاية هي جزء من معتقداتك الشخصية .

وبعدها احتسى كأسًا واحدًا من النبيذ الأحمر المميز ثم اتجه نحو مكتبة الاسطوانات الخاصة به على الجانب الأيسر من مكتبه، واختار إحدى الاسطوانات وتفحصها بعناية، ثم اتجه إلى الجرامفون ووضع الاسطوانة في المكان المخصص لها، وأخذت تدور بعدها، أمسك الجزء المعدني ووضعه عليها فبدأ الصوت في التصاعد لتصفيق حاد بعده بدأت الموسيقى في الارتفاع، إنها الموسيقى التي يعرفها "يوسف" جيدًا، إنها الفصل الأول من رائعة المخلد "بيتر تشايكوفسكي" "كسارة البندق"، كاد أن ينسى أنها المفضلة لدى "الفيزى" في فترات نهاية العام فهي تذكره بصباه في "إيطاليا" والثلوج المنهمرة والبرد القارس وأجراس الكنائس.

عاد "الفيزى" إلى مجلسه وأخذ في الاسترخاء وهو يستمع إلى الموسيقى الجالبة للرؤية الواضحة والتأمل الكامل، استرخى أيضا "يوسف" على الأريكة،

وظل ينصت باهتمام وانفعال وتأثر وأخذ يسترجع ما بداخله، كيف وصل لذلك الحب الجم للسينما، يبدو أن انفعالاته قد بدأت منذ اليوم الذي يتذكره جيدًا منذ ما يقارب الثلاثَ سنوات تقريبا، ربما قبل انتهاء الحرب، لقد كانوا معا في سينمافون "عزيز ودوريس" بمحطة الرمل، كان مع "سارة" ووالدتها و "جيمي" و "دودي" ، كان الجميع في صف واحد وكان جالسًا إلى جوار "سارة" وأحس أن المتعة كاملة، فالصورة قد شدته بشكل كبير والموسيقى ممتعة والملابس رائعة والمدينة التي تدور بها الأحداث يوجد بها العديد من الجنسيات بشكل متعدد مثل "الإسكندرية" عدا من الجنود الألمان وقادتهم، واستغرب كثيرا عندما تم سؤال البطل عن جنسيته، فأجاب "ريك" إنه سكير كثير الشراب، فكان الرد أنه مواطن عالمي، وكان من السائد أن يتفاعل الجمهور مع الفيلم بصيحات عالية مؤيدة أو مستهجنة في بعض الأحيان، لكن "يوسف" كان في مكان آخر، مكان حيث هو وحده في صالة العرض يستمتع بكل لقطة من الفيلم، هائماً وسط العالم الآخر من الصراع بين الأبيض والأسود.

تذكر البطل "ريك" وجوده مع "ايسا" في باريس وكان "سام" يغني على البيانو المتحرك نفس الأغنية (كلما يمر الوقت) لماذا لا يريد سماعها منه إذًا ...

أعادته إلى أرض الواقع لمساتُ أنامل "سارة" ليده، واتجه بنظره إليها ليجدها كما كانت أول يوم، مطلقة الجمال ربما مشاهدتها للفيلم قد أثرت على تفكيرها وبالرغم من أن جمالها الأصهب متألق كما هو معتاد، إلا أنه وجد في عينيها شيئًا لم يعرفه منها من قبل، فابتسامتها كانت تحاول أن تداري شيئًا ما، ربما هي بحاجة لحالة حب مثل "اريك" و "ايسا"، بعدها اتجهت يداها نحو يديه وتعانقت أصابعهما سويا، عرف حينها أنه ليس وحده من يحبها، فتأكد من تبادلها للمشاعر معه، ربما ليس كصديق بل كأكثر، ربما تحلم به مثلما يحلم بها، ربما تتذكره كل يوم مثلما يفعل هو، ربما كانت بداخلها الرغبة في مصارحة العالم أجمع مثله، ربما تتنفس هي "يوسف" مثلما يتنفس هو "سارة"، إنه الحب العذري الأول الخالي من الرغبة العارمة، مجرد السكينة والهدوء النفسي.

قاطع تسلسل ذكرياته صوتُ "الفيزى" الذي بدأ بالاندماج مع الموسيقى وبدأ في الغناء، ونظر إلى الزجاجة الخضراء اللون فوجد أن كثرة النبيذ قد تكون بدأت

مفعول الثمالة بالنسبة إلى "الفيزى"، بعد ذلك وضع الكأس على مكتبه بشكل قوي وبدأ بالحديث إلى "يوسف" قائلا له:

- ستكون في يوم من الأيام أفضل من كتب للسينما فالموهبة ملكك والعمر مديد، ستخلد في التاريخ يا فتى.

ابتسم "يوسف" وعرف أن النبيذ قد يكون من نوع جيد فعلا، لكنه كان يعلم دائما بفضل خبرته أنه حينما يصل الإنسان لدرجة من الثمالة يفصح عن الذى بداخله بشكل واضح وعفويّ، كثيرًا ما عَـنَّـفه "الفيزي"، لكن يبدو إنه كان يعنفه من أجل الأفضل، وتذكر ما كان يقوله له دائمـًا؛ حياتك هي فيلمك وأنت المخرج الأول له، تختار الأشخاص والأماكن والأصوات، ربما لا تختار الأحداث ، لكنك تحاول التفاعل معها بشكل يناسب القصة كاملة، وقف بعدها العجوز مُـتَـرَنِّـحًا من على كُرسِيِّـه وبدأ بترديد بعض الأجزاء التي يعشقها من "كسارة البندق".

- قد تكون السماء تنتحب حزنًا على البشر ....

تصرخ ثم تنهار باكية ....

أهذا هو المطر؟....

أيها العدمي... إنني أهيم بك.

* * *

الأمطار لم تتوقف منذ صباح يوم الثامن من ديسمبر حتى دخول الساعات الأولى من الليل، والبرد القارس كان هو السائد في غالبية الوقت على الرغم من كل ذلك لم تستطع "سارة" عدم الاستعداد للخروج، فاليوم مميز إلى حد كبير بالنسبة لها، فالأمور الهامة غالبا ما تصحبها المتاعب.

كانت عقارب الساعة قد قاربت السابعة والنصف، وكانت "سارة" تضع اللمسات النهائية على استعدادها من أجل الأناقة المتناهية، وأخذت تنظر إلى نفسها في المرآة المتواجدة في غرفتها، إنها لم تعد تلك الفتاة الصغيرة التي كادت أن تفقد قطها في اليوم الأول من لقائها بـ "يوسف"، لقد أصبحت شابة مفعمة الجمال والأنوثة، الجمال الأصهب غير قابل الرفض المزيج المختلف من الثقافات والأعراق، وانة الرغبة العظمى في الإحساس بالذاتية، وبالرغم من أن السمة المميزة لها وهو شعرها الأحمر الغجري، إلا أنها قد غيرت من طريقة تصفيفه فلم يعد ذلك الشعر الطويل الذى قارب منتصف خصرها، بل أصبح أقصر بشكل ملحوظ يصل إلى كتفيها، وحرصت على أن تصفف الجزء الأمامي منه بشكل قطرى من الجزء الأيسر إلى الأيمن مغطيا جزءا من جبهتها، أما عيناها

ذات اللون غير المفهوم بين الأخضر والبني فقد ارتسمت بها السعادة تحت حاجبيها المزججين بشكل أنيق، فبهما بُعدٌ عميقٌ لم يعد يستطيع فهم ما بهما، فالبراءة لا تزال بهما، لكن ربما هناك بعض الأوصاف الأخرى قد تنضم اليهم.

تأكدت من أنها قد وضعت مساحيق التبرج بالشكل المناسب على وجنتيها الحمراء، ثم بدأت بإلقاء نظرة عامة على صورتها المنعكسة في المرآة، وتأكدت من أن الفستان الأسود الذي ترتديه متناغمٌ مع خصرها النحيل كما أنه يحمل بعض الألوان المُـتلألئة ذا أكمام طويلة، وأحاطت عنقها بعقد دائري يحتوي على حبات اللؤلؤ الأبيض، مما جعلها تتخلى عن رابطة عنقها الذهبية المميزة التي تحمل أول حرف من اسمها بالحروف الإنجليزية، و كان نادرًا ما يحدث ذلك ولكن الهوى غير قابل الرفض، أضافت بعضًا من العطر إلى جسدها، ثم اتجهت نحو سريرها وأخذت من عليه المعطف المصنوع من الفراء الأبيض، واتجهت نحو باب غرفتها وهي تتجه إلى البهو الرئيسي، حيث كانت في انتظارها صديقتها "دودي"، كانت تجلس في البهو الرئيسي بالقرب من البيانو، وكانت في قمة أناقتها مرتدية فستانا يحمل اللون الأصفر في أغلبه، وشعرها الأسود مصفف بشكل مجعد على جانبيه، وعلى الرغم من عدم جمال ملامحها إلا أن العطر الذى وضعته يحمل عبق الرغبة العارمة، والأنوثة الكاملة وكأنها تحاول أن ترضي الرغبة الكامنة بداخلها بمؤثرات خارجية، اتجهت إليها "سارة" واستقبلتها "دودي" بحرارة وهي تثني على جمالها وعلى فستانها، على الرغم من إحساسها الداخلي غير القابل للإعلان بالغيرة، فلماذا هي التي خلقت سمراء ذات ملامح مصرية، بينما "سارة" ذات شعر أحمر وأصول أرستقراطية، فما أخطر من غيرة الأنثى مع ادعاء الصداقة، و بعد ذلك اتجهنا إلى سيارة "دودي" الواقفة امام البناية عبر الطريق خارج المنزل وكلاهما قد أمسكت الشمسية المضادة للمطر، وعلى الرغم من اتجاه "سارة" بشكل مباشر نحو باب السيارة الخلفي فتحته بنفسها لتهرب من الأمطار، إلا أن "دودي" فضلت الوقوف بجوار الباب الخلفي منتظرة أن ينزل السائق الأسمر من مقعد قيادته لكي يفتح لها الباب، ربما فضلت الأمطار على أن تتساوى مع "سارة".

الطريقُ المؤدي إلى مقهى "كستال" كان شبهَ خالٍ من الأشخاص، فالجميع

يتحاشى الاقتراب من الجهة الشمالية عند البحر أثناء الأمطار، فغالبا ما تكون الأمطار أقوى، وأثناء الطريق الذي يستغرق خمسَ عشرة دقيقة من منزل "سارة" إلى المقهى، دار الحديث بينهما عن تفاني "يوسف" في الإخلاص لـ "سارة" وحبه المطلق لها، وبرهن على ذلك بإقلاعه عن الشراب بسبب رغبة "سارة"، لكن "دودي" لم تستطع أن تداري غيرتها عندما قالت لـ "سارة" بشكل مبتسم بخبث:

- ربما يكون أفضل يهودي أخلص لمسلمة على الإطلاق.

وكأنها تحاول أن تجعلها تتوقع النهاية المؤلمة لقصة حبهما الطفولية، وما كان من "سارة" إلا أن توقفت عن الكلام، وأخذت تفكر بعمق، إن مشاعرها فياضة تجاه "يوسف"، فهو أفضل من عاملها على الإطلاق بالرغم من اختلافه، فهو بالنسبة لها الراحة المطلقة والسعادة الدائمة، أكثر من حاول فهم من هي، حاول مساعدتها بشكل دائم، ما الفائدة إذا من أن ترتبط عاطفـيًّا على أساس ديني، فالحياة مجموعة من الخيارات، وهي قررت أن تختار ما تراه صحيحًا، ربما حاول أن يفعل كل شيءٍ من أجلها تقريبا، حتى إنه يهنئها في أعيادها الإسلامية، لكن ما هي النهاية المتوقعة أو المقنعة لكل ذلك قطعَ تسلسلَ تفكيرها صوتُ "دودي" وهي تنبهها إلى وصولهما، كانت الأمطار حينها قد توقفت لهدنة تعاود بها تجمعها، ونظرت "سارة" من خلف زجاج السيارة الجانبي الذي يعلوه بعض ما تبقى من الأمطار المتوقفة، فرأت المكان المفضل لها وهو مقهى "كستال" في الجهة المقابلة لنادي "سبورتنج" في الجزء الغربي من المدينة، إنه مكان تجمعها بأصدقائها وفي أغلب الأحيان بـ "يوسف" أيضا، المكان ذو طابع إيطالي يمتلكه أحد كبار الجالية الإيطالية ، بالإضافة إلى أن أغلب العاملين به من الإيطاليين والإسبان، ودائما ما تحمل الموسيقى التي تعمل بداخله طابعًا مُتَوَسِّـطِـيًّا مميزًا مما أضاف له شهرة عارمة بين الطبقة الراقية وصفوة المجتمع السكندري ، فوق الجزء العلوي من الباب المؤدي إلى المقهى لافتة تحمل اسم المقهى مصنوعة من اللمبات الملونة التي تحمل الحروف اللاتينية لاسمه.

وقفت الشابتان أمام الباب الزجاجي ذي الإطار المعدني تنظران إلى اللافتة المكتوبة بالعربية والإيطالية بأنه (مغلق)، وتقدمت "دودي" إلى الباب الزجاجي وطرقت ثلاثَ مرات متتالية على الرغم من الأضواء الخافتة في الداخل، وبعد مرور لحظات قليلة بدأ في الظهور من بعيد عبر الباب الزجاجي النادل الإيطالي "باولو" الذي تجاوز ربما الستين من عمره بجسده البدين وبزته البيضاء الناصعة وابتسامته المعهودة وشعره الأبيض المصفف للخلف ونظارته الطبية دائرية الشكل، وعند اقترابه من الباب غير وجه اللافتة المعلقة بإغلاق المقهى إلى

الجانب الآخر لتبتسم "سارة" بشدة بعد قراءتها الجانب الآخر منها، حيث أنها كانت تهنئة لها بسبب عيد ميلادها، فخفة ظل "باولو" غالبا ما جعلتهم يفضلونه على جميع العاملين بالمقهى.

فتح لهما "باولو" الباب وتقدمت الشابتان بالدخول وهنّأ "سارة" بعيد ميلادها، وهو يحني رأسه لهما في احترام واستبقهما نحو المنضدة المفضلة لـ "سارة" في الجزء الأيسر من المقهى الذي يحمل ألوانًا مُريحةً نفسيًّا لها بين البني الفاتح واللون الأحمر الداكن المتماشي مع المفارش المخصصة للمناضد التي تحمل نفس اللونين، وبعد جلوسهما إلى المنضدة بعد مساعدة "باولو" لـ "سارة" لكي تخلع معطفها ذا الفراء الأبيض، وسط الفراغ المطلق للمقهى الذي نادرًا ما يحدث.

بدأت الإضاءة في الزيادة النسبية مع تصاعد الموسيقى التي بدأت لتوها، لكنها غير معتادة عليها، فهي ليست مثل الموسيقى الدائمة المتصاعدة من الجرامفون، لكنها تقترب وكان أحد الأشخاص يعزفها، إنها نغمة عيد ميلاد سعيد الشهيرة، وعندها علا صوت "يوسف" في الغناء نظرت إلى الجزء الأيمن المظلم تمامًا، لتجد بعدها أن الإضاءة بدأت بالعمل لتجد "يوسف" وهو يرتدي بزة سوداء أنيقة للغاية ورابطة عنق سوداء، وهو ينظر لها مبتسما حتى أنهى أنشودته السماوية على البيانو الأسود الذى يحمل صندوقًا ذا حجم متوسط، داخل أوراق ملونة ، واتجه إليها بشكل مباشر وهو يحمل الهدية ويتحاشى النظر لدون عينيها، فما كان منها إلا أن وقفت وهي تنظر إليه أثناء قدومه وهي تحمل في عينيها السعادة الأبدية، واتجه لكي يُقَـبِّلَ يدَها وأعطاها الهدية وهو يهنئها بمولدها وسط نظرات الحقد من "دودي" قائلا لها:

- " سارة" أتمنى أن تعيشي معيَ مائة عام.

بعدها جلس إلى جوارها ودار الحديث بينهما عن قدرته على حجز المكان المميز، بالإضافة إلى اصطحابه البيانو الخاص به إلى هنا، ومرت نصف الساعة حتى أتى "جيمي" في بزة أنيقة مع صديقته الإيطالية "انطونيلا" ذات الشعر الأسود والعيون الزرقاء مرتدية فستانًا أبيض بسيطًا متناسبًا مع جمالها، وبعد التأسف للجميع عن تأخره وتقديمه لـ "انطونيلا" للجميع، أحست "دودي" بغيرة مضاعفة فعلى الرغم من ارتدائها فستانا غاليَ الثمن للغاية إلا أن "انطونيلا" أيضا تبدو أكثر أناقة منها في فستانها البسيط، وعند قدوم "باولو" ومعرفة "انطونيلا" بجنسيته ما كان منها إلا أن بدأت بالحديث معه بالإيطالية، وطلبت منه

أن يشغل اغنية "قَـبِّلني كثيرًا" لكى ترقص عليها مع حبيبها "جيمي"، وبعدها بدأت الموسيقى في العمل واتجهت إلى الرقص والتمايل مع حبيبها في الجزء الخالي المقابلِ للمناضد ذات الأرضية الخشبية، وبعد الانتهاء من الرقص قام جميعهم بالتصفيق بمن فيهم "باولو" الذي بدأ بوضع العشاء على المنضدة بالإضافة إلى زجاجة من النبيذ الأبيض، وعند عودة "جيمي" إلى المنضدة قام بإهداء تحياته إلى "سارة" وقام بفتح الزجاجة وبدأ بوضع النبيذ في كأسه والكأس الخاص بـ "انطونيلا"، وعند اقترابه من ملء الكأس الخالية أمام "يوسف" ما كان منه إلا أن وضع يده على فوهة الكأس كاملة في إشارة منه أنه لا يريد النبيذ، أحست "سارة" بسعادة وقتها لقدرتها على محاولة تغييره، وطلب "يوسف" من "باولو" لحنه المفضل لكي يرقص على نغماته مع "سارة" وقال له:

- "باولو" فلنستمع إلى أغنية "برفيديا"... من فضلك.

ابتسم "باولو" حينها وأجابه بالطاعة، وقبل ذهابه لتغيير الاسطوانة عند الجرمافون سألته "سارة" عن معنى اسم الأغنية بالعربية، فاكتفى بالابتسام وردَّ بقول غير مقنع قائلا:

- يكفى أن تستمتعي بالرقص على ألحانها ففي بعض الأحيان تكون معاني الأسماءِ غيرَ ضروريةٍ.

واصطحب "يوسف" حبيبته "سارة" إلى الأرضية ذات الطابع الخشبي وهو يستمع إلى لحنه المفضل "بيرفديا" وهو ناظر إلى عينيها غير عابئ بما تعنيه الكلمة، المهم إنها لا تزال معه وسيعمل محاولا على بقائه معها إلى الأبد، وسط نظرات الغيرة من "دودي" تجاههما، لكن بعد ذلك تحولت إلى ابتسامة متشفية لمعرفتها ما تخطط له، ابتسامة تحمل الرغبة المطلقة والغيرة المطلقة، فليس هناك أخطر من أن تكون المرأة وحيدة.

* * *

كان الهواء يتخلل خصلات شعر "سارة" الأحمر عبر النافذة المجاورة لها وهي تقود سيارتها الحمراء من طراز "موريس 8"، اتجهت بيدها اليسرى لتحرك اليد المخصصة لإغلاق جزء من زجاج النافذة، ثم مررتها على خصلات شعرها لكي تعدل من تصفيفه، نور الشمس كان مشرقًا إلى حد كبير على الطريق الإسفلتِـيِّ المجاور لشاطئ البحر المؤدّي إلى الجزء الغربي خارج "الإسكندرية"، وبالتحديد إلى الأرض شبه الخالية التي تُدعى "العجمي"، المسافة بين "العجمي" تلك الضاحية الصغيرة و "الإسكندرية" لا تتجاوز عدة كيلومترات.

على الرغم من أن يوم الأربعاء غالبًا ما يكون يومًـا دراسيًّا في أيام شهر ديسمبر، إلا أن "سارة" فضلت التخلي عن محاضرتها اليوم من أجل تلك المقابلة

الهامة، ربما تجبر الظروفُ الإنسانَ أو رغباتُه الجامحةُ عن التخلي عن الأشياء الهامة من أجل الأشياء الأهم.

لقد مرت "سارة" بعدة معارك خلال السنة الماضية ضد تقاليد المجتمع الشرقي وفي النهاية كان لها ما أرادته، فبعد انتهائها من دراستها الثانوية وحصولها على "البكلوريا" بمجموع جيد كانت تقاليد الأسرة تنص على كون الفتاة قد أنهت تعليمها ويجب أن تبقى في منزلها حتى يأتي الفارس المغوار على حصانه الأبيض ليختَطِفَها لتبقى معه إلى الأبد في مكان بعيد أو قريب، لكنها رفضت وجهة نظر المجتمع بشكل كبير، وأصرت على أن تكمل تعليمها ليس هذا فقط بل اختارت الانضمام لكلية الطب بالرغم من صعوبتها لإحساسها بقدرتها الدائمة على مساعدة الآخرين، وبعد الشد والجذب بين والدها من جهة ووالدتها من جهة أخرى وجدتها الإنجليزية من جهة ثالثة، ونظرًا للمحاولة للوصول للأفضل في حياتها ومراعاة امتزاج الثقافات، تم إقناع والدها بتقبل الأمر وتمت الموافقة.

اليوم الأول لها في الجامعة كان صعبًا للغاية، فوجود البنات في الكليات نادر الوجود، أما بالنسبة لكلية الطب الأصعب على الإطلاق فوجود البنات يُعَدُّ مُنعَدِمًا، وجودها وحيدة مرة أخرى في مكان اختارته كان صعبًا للغاية والدراسة معقدة إلى حد كبير، وجميع العقبات لا توازي دخولها إلى المشرحة، وتتذكر دائمًا رؤيتها للجثث للمرة الأولى في حياتها، حيث وقفت للحظات وهي تدمع لتفقد بعدها الوعي لفترة، وأصبحت الطبيبة الفاتنة ذات الشعر الأحمر حديث الكلية كاملة لفترة ليست بالقصيرة، لكن بعد فترة انضمت لمحاضرتها وبداخلها رغبة جامحة لكي تكون مميزة، ليس من دافع حبها للدراسة المقززة، لكن لتدافع عن قراراتها الخاصة، ربما كان لها من الأفضل أن تستقر بالمنزل مثل صديقتها "دودي" ربما كان اعتقاد ما بداخلها هو المحرك لها، نحو الوصول لهدف رغبته منذ البداية، لكنها وجدت الطريق المؤدي له صعبا تتخلله المتعرجات، أصرت أن تدافع عن ذاتيتها وحلمها الشخصي لكي تبقى، أيضا كونها تقود سيارتها الخاصة بنفسها لم يكن سهلا على الإطلاق فغالبا ما كان السائد وجود سائق خاص للسيدات وهذا ما كان لها في البداية، لكن بعد فترة ليست بالطويلة اكتشفت تواطؤَ السائق مع ابن خالتها "عاصم" لينقل إليه كل أخبارها وتحركاتها، فما كان منها إلا أن طلبت من والدها استبداله بسائق آخر، فكان لها ما أرادت، وبعدها طلبت من السائق أن يعلمها القيادة، وبعد فترة تعلمتها لكنها إلى حد بعيد لم تتقنها، لكنها وجدت السبيل للخلاص والحرية المطلقة، ووجدت

في الطريق مجالات الحياة وصعابها التي تحاول المرور منها وصولا لما تريد دون قائد يحدد سرعتها أو طرقها بل هي وهي وحدها التي ستختار وتحدد وتحاول الاستماتة في سبيل الوصول للنهاية التي أرادتها أو حتى اقتنعت بكونها مناسبة.

وبسبب قيادتها السريعة وعدم إتقانها التام، كادت العواقب المفزعة ان تكون متوقعة وبالنسبة لـ "يوسف" فهي أهم كائن بقي له على وجه الأرض، ربما لن يستطيع أن يكمل الطريق بدونها مهما كانت الصعاب أو الضغوط، فما كان منه إلا أن عَـنَّـفها بسبب سرعتها المفزعة، وتركها وحيدة بسبب رفضها الرضوخ لما يعتقد أنه الأفضل من أجل حياتها التي تمثل حياته، وبعد هدوء نار ثورته، وجد أن الحياة بأكملها لا تساوي لحظة تحزن فيها تلك الحسناء، ربما أخطأ عندما نهرها، لكن كان ذلك واجبًا عليه من أجل المحافظة عليها.

وبعد عقد ما يُسمى بـ "مجلس الحرب" ذلك الاجتماع الثلاثي بينه وبين "جيمي" و صديقه "الفيزي" الذى غالبًا ما يُعقَدُ في المواقف الحاسمة أو الصعبة في حياتهم، كان رأيُ "جيمي" أن يبعث بباقة زهور إلى منزلها، أما العجوز فكان رأيه أن يختار إحدى صديقاتها ليرسل معها خطابا يعتذر فيه، فلم يقتنع "يوسف" بذلك، بل وجد أن كل ذلك لن يؤدي إلى النتيجة المطلوبة، وهو كبح جماح سرعتها، واقتنع أن الاعتذار المناسب والمبهر قد يقنعها بالتحول عن سرعتها الجنونية، وبعد أيام من التفكير العميق والتركيز على فكرة واحدة في جميع الأوقات من اليوم ألا وهو كيف يجعلها تقود بأمان؟ ووجد ضالته في السؤال نفسه.... وبعد مرور عدة أيام على اختلافهما، وهي في طريقها من كليتها إلى منزلها وجدت مالم تكن تتوقعه على الإطلاق على الجسر العلوي الذي يقطع الطريق بجهة عمودية، كان هناك ثلاثة ألواح خشبية متجاورة على الحافة الخارجية، يبلغ عرض اللوح منهم حوالي الثلاث مترات، ويبلغ الارتفاع نصف العرض تقريبًا ومكتوب على اللوحتين الأولين منهم بحروف خضراء إنجليزية متناسبة مع ضخامة الألواح الخشبية السوداء "Drive" و "safe"، أما على اللوح الخشبي الثالث فاسمها بحروف تميل إلى اللون الزهري لكن بحجم أحرف أكبر، نظرت إلى الألواح الخشبية وانتابتها العديد من المشاعر المختلطة، حيث إن شعورها بالسعادة المطلقة، والإحساس بقوتها الداخلية العارمة، وإحساس آخر بأن ما فعله ربما يكون أفضل ما حدث لها على الإطلاق، بالرغم من كونها لا تزال حزينة مما فعله، إلا أنه مبهر إلى حد كبير، محب لها لدرجة العبادة، حالم بها إنها الجنة بالنسبة له... اللعنة... كيف استطاع أن يتخيلها ليصنعها وكيف أصبح جريئًا إلى هذه الدرجة لوضعها أمام الناس جميعًا، وكم كانت تفضل أن يضع لها "أحبك" مثلا.. كلا ... كلا، إنه ليس ذلك الشخص الذي يعبر عن مشاعره أمام الجميع،

وهي تعلم ذلك بشكل مقنع... وتذكرت الأيام التالية لما فعل، وانتشار الإشاعات بـ "الإسكندرية" فمن ذلك المميز، ومن تلك الـ"سارة"، وقال البعض إن حبيبًا خسر حبيبته منذ زمن وقد انتهت حياتها في حادث سيارة تحت الجسر، وقال البعض إنها معجزة تنسب للراهبة التي كان اسمها العلماني "سارة" التي كانت متواجدة في الكنيسة الإنجيلية في الشهر السابق، وقال البعض إن صانعها هو رجل عسكري إنجليزي واختار "سارة" كاسم مستعار لتبادله الحب مع زوجة أحد الباشاوات، الغريب أن أحدًا لم يتقدم من أجل نزعها ففي الغالب إن بعض المجتمعات تحتاج لوجود بعض الإشاعات حتى تجد ما يحدث تغيرا في حياتهم الرتيبة المملة، فليس المهم معرفة "سارة" الحقيقية أو العاشق الحقيقي، المهم هو أن العلاقة بينهما مميزة للغاية.

قاربت سيارة "سارة" على اجتياز قصر عائلة "هانو" في الجانب الغربي من "العجمي"، وعلى الرغم من الطريق الضيق المُـوازي للبحر، وبعد اجتيازها القصر بمسافة كيلو مترين، وقفت بالسيارة إلى الجانب الأيمن من الطريق وهي تنظر إلى "يوسف" وهو جالس على الرمال الصفراء ناظرًا إلى المياه الزرقاء المتلاطمة لعله لم يلحظ وجودها إنه هو الآخر قد أخل بدراسته وفضل أن يرى "سارة" على أن يذهب إلى كليته فحبه للهندسة جم، لكن مقابلته لـ"سارة" لا توازي أية متعة أخرى في الحياة، ربما لا توازي حبه للسينما، إنه يعشقها بكل ما بداخلها من أحاسيس، ورغبات وتصنعات ورحمة وتكبر، يعشق تفاصيل ملامحها وتعبيراتها، يعشق نظارتها وخصلات شعرها الأحمر، إنه يعشق حتى معاطفها البيضاء التي تستعين بها في دراستها، ويعلم الاختلافات البسيطة بينهما، فعندها ثلاثة ، يعلم أنه عند رؤيتها غالبا ما يرى الصورة للحياة أوضح, الألوان أزهى، والموسيقى التصويرية لتلك الصورة غالبا ما تكون عذبة، إنه يشاطرها أحلامها وهى تلهمه الإبداع الدافع المحفز للوصول إلى الفضيلة أو الكمال، حتى شطحاتها الفكرية وأحلامها الصعبة يراها متناسبة مع وجودها... فطالما وافقها على رغبتها الملحة في إنجاب أربعة عشر طفلا، بالرغم من عدم معرفته السبب الرئيسي وراء هذا الرقم، إنه لم يفكر مطلقا في مناقشتها في ذلك العدد... أراؤها وأحلامها جزءٌ من الواقع المستقبلي لحياتهما المشتركة... يصبح مغيباً عند رؤيته الحسناء ذات الشعر الأحمر...

وأثناء وحدته وصمته وهو يشاهد تلاطم الأمواج... وأصواتها المتلاحقة القوية مثل الرغبات البشرية متلاطمة متخالطة غير معروفة البداية أو النهاية... مجرد قشور متحركة على سطح لا يعلم أحد ما في أعماقه... سمع صوت محرك سيارة مما نبهه حتى توقف الصوت فنظر إلى ساعة يده فوجدها العاشرة، إنها "سارة" بالتأكيد ونظر إلى الجهة الخلفية من البحر حيث الطريق فوجدها بدأت في الاقتراب منه بعد تركها لسيارتها الحمراء حاملةً في يدها اليسرى حذاءَها الأسود، وقدماها حافيتان تتلمس الرمال الصفراء، مرتدية فستانًا يميل إلى اللون

الأخضر الزاهي، والهواء يتخلل شعرها الأحمر، وعلى وجهها ابتسامتها المميزة ذات الطابع الخاص، إنها صورة الجمال المطلق بالنسبة له... والحياة الرغدة الوردية في الفضاء الكوني.

اتجه إلى حقيبته الجلدية السوداء الموضوعة على الرمال إلى جواره وأخرج منها حبيبته الثانية، إنها كاميرته الشخصية من طراز "ارجوس" التي تعتبر الأحدث في العالم، وجهها إلى "سارة" واختلس من الزمن عدة صور لها كما هي عادته، إنها في كل الأماكن وكل الأزمنة كما يؤمن دائما.

وعند اقترابها منه بشكل كبير أمسك بيدها بقوة وجذبها بشدة نحو الأرض حتى تجلس إلى جواره وهو يبتسم لها، فما كان منها إلا الابتسام وقال لها:

- أعرف أن تغيبك عن محاضرتك أمر خاطئ، لكن رؤيتي لابتسامتك في الصباح لا يوازي الخطأ.

فضحكت وهي تقول:

- ربما رؤيتي لك أفضل من رؤية الجثث بالمشرحة.

فقال لها وهو لا يبالي ناظرًا في الشيء :

- "سارة" أفهم ما تحاولين التظاهر به... لكنني أعشق تَـمَـنُّعَـكِ.

بالرغم من أنه يعلم تماما أنه قد يكون الشخص الأكثر تميزًا في حياتها والأحرص على مشاعرها إلا أنها أحيانا... تعرض الجانب الآخر من أرستقراطيتها التي تظهر على أنها غرور وتمنع، إنه يعشقها كما هي ودار بينهما الحديث عَمَّـا حدث في حفلة عيد ميلادها الرسمية بين أهلها وأقاربها، وكانت إجابتها أنها لم تستمتع بها كما استمتعت بحفلتهم الخاصة، وأخذا ينظران إلى البحر كما لو أنه المستقبل غير المعروف والنهاية غير المعلومة.

تذكر حينها "يوسف" تلك العرافة الغجرية التي مرت بهما في لقائهما السابق في نفس المنطقة التي ادعت قدرتها على معرفة مستقبلهما مقابل أموال زهيدة وقالت بعد إلحاح إلى "سارة ":

- ستبقيان سويا حتى نهاية عمركما المديد.

* * *

يضم نادي "سبورتنج" في الجزء الشرقي من "الإسكندرية" بين أعضائه صفوة المجتمع السكندري، الامتزاج بين أصحاب السلطة والمال، بالإضافة للمميزين من الأجانب بالرغم من ترددهم على الأماكن الخاصة بهم مثل النادي اليوناني والإيطالي، عدا أن الظهور بنادي "سبورتنج" يمنح بُعدًا اجتماعـيًّا أفضل من التغلغل في الذاتية القومية ، النادي راقٍ إلى حد كبير يضم العديد من الأماكن

المميزة لممارسة الرياضة مثل ملاعب التنس والكروكيه وأيضا صالات للبلياردو وملاعب لكرة القدم والكرة الطائرة بالإضافة إلى ما يميزه بشدة بالنسبة للمغامرين والمقامرين أنه مضمار تسابق الخيل، ربما قناعة المقامرين تتلخص في إيمانهم التام بقدرتهم الدائمة على الربح، أو التنبؤ بالنتائج المتوقعة، ترتجف قلوبهم مع كل حركة لقدم الخيل نحو الأمام متمنين فوز الجواد ذي القناعة الأكبر بداخلهم، يفضل إحداهما على الآخر، وقد يفضل آخر في يوم مختلف، المهم في النهاية ألا يضارب بأحلامه من أجل الأسرع، ربما يتطفل بعض القلائل من الطبقات الأدنى من أجل ربح المال، وأحلام الثراء السريع، لكن الغالبية من الصفوة غير المهتمين بالأمور المادية بمقدار اهتمامهم بمفهوم الفوز والعظمة الشخصية والقدرة على التنبؤ أو الإيمان بوقوف الحظ إلى جوارهم بشكل دائم، فالحظ جزءٌ من المعادلة السحرية للنجاح، حتى لو تفاوت مقداره فلا يزال جزءًا رئيسيًّا من المعادلة الهامة.

قد يري البعض الآخر مضمار السباق كالحياة كاملة، الجميع يمتطي أحصنة متفاوتة السرعة والقوة تجري في اتجاه واحد دون سبب محدد للوجهة نفسها، وخط نهاية، وهو لا وجود له في الواقع، مجرد خط وهمي يحاول الجميع الوصول إليه بأقصى سرعة وطاقة، ففي النهاية لا شيء سوى العودة في سباق آخر في وقت لاحق، والبداية من جديد، ربما كان خط النهاية هو الأحلام والآمال، الرغبات... حتى إنه قد يكون الموت نفسه تتخطى لتجد بداية جديدة، والجميع يتوقع والقلة تكسب والغالبية العظمى تخسر دون سبب مقنع أيضا، فالجميع قد أتى إلى السباق دون وجهة محددة أو مقصد سوى الرغبة المتوطنة في إثبات جدارة الذات، لكن ما يصعب فهمه هو إثبات الجدارة لمن وعلى حساب من، لا أحد يعلم على وجه التحديد.

أغلب مالكي الخيول يكون مقصدهم نادي "سبورتنج" بشكل دوري بسبب سباقه الشهير، ربما يكون الأشهر في "الإسكندرية" بأكملها، أجود الخيول تأتي لتبرر وجودا لتربيتها، تتبارى من أجل البحث عن الأفضل لتوضيح المربى الأفضل تلك العادة القديمة للعرب بشكل عام التي تنامت في أغلب أماكن العالم.

اعتاد "يوسف" منذ صغره القدوم إلى هذا المكان مع والده الراحل، فقد كان الرجل مولعًا بالخيل مما جعله يعتاد حبها في بداية الأمر حتى وصلت إلى مرحلة العشق المطلق، وبمجرد عودته إلى الإسكندرية"، أصبح دائم التواجد في السباقات الشهرية، يقامر بما يملك من مال من أجل إرضاء انفعالاته الحادة، وكان من المنطقي أن تكون "سارة" معه فيما يحب من أجل توحيد الشعور بالسعادة أو الحزن، مجرد تواصل بالنسبة لها على المستوى العاطفي لتشبع رغبته الجامحة في المقامرة.

بحلول الساعة التاسعة من الصباح، بدأ المضمار يمتلئ بالخيول المتبارية التي

تستعد للتسابق، أما المدرجات فكانت ممتلئة بالتوقعات والطموحات، الجميع يحاول التنبؤَ بالحصان الرابح والغريب أن "سارة" لم تظهر في الأفق إلى الآن بالرغم من تأكيد ميعادها لـ "يوسف" في اليوم السابق، حاول "يوسف" جاهدا البحث عنها منذ قدومه إلى النادي إلا أنه لم يستطع أن يعثر عليها، مرت عيناه على آلاف الأوجه، لكنه لم يرَ عينيها، لماذا لم تخبره مسبقا في حال نيتها عدم القدوم، ربما أمر ما قد استجد على موقفها،حتى أنه قرر ترك المدرجات والذهاب إلى ساحة انتظار السيارات ليرى سيارتها الحمراء، لكنه لم يجدها وظن أنها قد تكون قد أتت مع صديقتها "دودي"، لكنه لم يجد أيا منهما، لم يجد مفرا حينها سوى الذهاب إلى الاستعلامات لكى يستعلموا عنها في مكبر الصوت طالبين قدومها إلى الساحة الخلفية للسباق، وبعد تكرار نداء اسمها عدة مرات على مسمع من آلاف المتابعين لم يجد ما يقنعه بالبقاء في الساحة الخلفية أكثر من ذلك... استنتج حينها مالا يرضيه وهو أن الفتاة ذات الشعر الأحمر لم تأت اليوم، وأحس حينها أن السبب قد يكون قهريًّا أو قد كان يأمل ذلك.

تحرك نحو النوافذ الخاصة بالمراهنة في الجزء السفلي من المدرجات واتجه نحو النافذة الرابعة من الجهة اليسرى وسط العشر نوافذ لمنع التكدس الجماهيري، كان قد اتفق مسبقا مع "سارة" على الرهان على الجواد الذي يحمل اسم "أربعة وتسعون" لصاحبه مالك الخيول "انسي فراج" الذي ابتدع تسمية جواده برقم يتفاءَل به، أمر غريب لكن الجواد أثبت أنه يستحق التميز بفضل أدائه، فقد فاز في أكثر من ثلاثين سباق منذ إدخاله مجال التسابق، ربما اسمه الذي يحمل رقمًا كان تميمة حظه ، وأيضا ربما كان سببًا في لفت الانتباه له، لقد راهن عليه من قبل هو و "سارة" عدة مرات وكان الفوز دائمًا حليفهما، حتى إن "سارة" أخبرته أنها دائما تتذكره عند رؤيتها للرقم 94 في أى مكان و بمجرد ارتباط شرطي بين الرقم والفوز و "يوسف".

قابلته السيدة الجالسة على المكتب الخشبي من خلف النافذة المخصصة للرهان بابتسامة يبدو أنها مصطنعة بسب معرفتها بيوسف وتردده على المكان وبعد تحيته سألته:

- ما هو الجواد الذي ستختاره اليوم سيد "يوسف"؟

فأجاب وهو يخرج حافظة أمواله الجلدية بنية اللون وهو يرد عليها مبتسمًا:

- دائما ما أختار الجواد الرابح.

ظهرت عليها ابتسامة حزينة وهي تتأمل أحلام الشاب وفي داخلها القناعة بفضل عمرها الذي تجاوز نصفه، وعملها الدائم بالمقامرة وهي تعلم جيدًا أن كل مقامر بداخله إيمانٌ مطلقٌ بالفوز في كل مرة، ولولا ذلك ما كان ليقامر فالاعتقاد هو المحرك الرئيسي لردود الأفعال الإنسانية, ردت علية قائلة:

- ليتك تصيب اليوم.

أخرج مبلغ أربعين جنيهًا ليراهن به، وأخذ من السيدة الإيصال الخاص بمراهنته على الجواد، بعد أن أخبرها أنه سيراهن على "أربعة وتسعين"، واتجه نحو المدرج بخطوات ثابتة تحمل الوثوق التام من الفوز، بينما بقي عقله منشغلاً بعدم قدوم "سارة" إلى الآن، إنه يتذكر آخر مرة رآها بها أمام البوابة الرئيسية لنادي "سبورتنج" وهو يتجه معها إلى ساحة انتظار السيارات الخارجية منذ يومين تقريبًا، لكنها لم تكن في حالة جيدة، كانت ترتدي السواد حدادًا على وفاة والدة إحدى صديقاتها وكانت عيناها ممتلئتين بالدموع، مثل أول مرة رآها بها وهي تحاول إنقاذ قطها وقد كانت الدموع بعينيها متراكمة حتى مالت لدرجة كبيرة من الاحمرار، لقد نضجت كثيرًا منذ أول لقاء، لكنها لا تزال تبكي وغالبا ما يكون السبب هو الافتقاد أو الخوف من الافتقاد، إننا كما نحن، فالبشر من الصعب تغيير طباعهم، وربما آمالهم أيضا، حاول حينها أن يهديء من روعها لكن دون استجابة، رفض بأن تقود سيارتها وهي في هذه الحالة حتى تحسنت قليلا وحاولت التماسك، وبالرغم من أن والدة صديقتها قد تكون مؤثرة في حياتها أو محبة لها إلى حد كبير، إلا أنه وجد في بكائها مُتنفس آخرًا عن شيءٍ يجهله، ربما بداخلها حزن أكبر أو افتقاد لشيء ما لا يعلمه، ويذهب ذلك الإحساس بالافتقاد على هيئة البكاء الانفعالي ، كيف لم يفكر في ذلك من قبل... على أية حال يجب معالجة ذلك في أول مرة يلتقي بها من جديد ويسألها عن السبب في ذلك البكاء، حتى يحاول الوصول إلى حل مشترك عن حالة الافتقاد.

وقف ينظر إلى المضمار عبر مدرجاته وهو يتفحص أرضيته المبللة بعض الشيء ، ربما تؤثر على السباق، وأخذ من حقيبته الجلدية السوداء التي يحملها على كتفه الأيسر المنظار المكبر ذا العدستين ، ونظر إلى الأبواب المعدنية المخصصة لاستعداد الخيول لبدء السباق الذي يصل إلى ميل ونصف الميل، وعلم من مكبر الصوت بأن جواده (أربعة وتسعون) سيتسابق عبر الرواق السادس وتابع بعينيه عبر المنظار المكبر دخول الجواد إلى الرواق وإغلاق الباب خلفه واستعداده التام

لبدء السباق.

قاطع متابعته للجواد لمس أحد ما كتفه الأيسر وكأنه ينبهه لتواجده لعلها "سارة" فاتجه بعينيه بعد ترك المنظار إلى الجانب الأيسر ليجد مالم يكن يتوقعه... إنها "دودي" وتفحص ما حولها ليجدها منفردة فنظر لها وهي تبدو في قمة أناقتها مرتدية فستانًا ربيعيًّا يتماشى مع القبعة الدائرية على رأسها منبعثة منها رائحة عطر أنثويٍّ ممتلئ بالرغبة التامة ، وابتسمت له ورأى بأنها المرة الأولى التي تبدو فيها في غاية الجمال، وبعد تبادل التحية وسؤاله عن "سارة" أخبرته أنه من الأفضل لكليهما التركيز في السباق الذي سيبدأ في خلال لحظات، كما أخبرته أنها فضلت الجواد "برادیسو" اليوم لقناعتها بفوزه ثم انطلقت رصاصة بدء السباق في الهواء، وفتحت أبواب الأروقة لتعلن عن بداية التنافس وتزاحمت أرجل الخيل وهي تتجه نحو النهاية بأقصى ما تملك من قوة وسط صيحات المتابعين بالمدرجات... الجميع يأمل ويحلم بأن يفوز جواده.

بدأت ملامح السباق تتضح لقد بدأ "برادیسو" و (أربعة وتسعون) وجواد آخر يحمل رقم 5 في الانفراد بالمقدمة بفارق طول كامل عن بقية الخيول، وبعد لحظات فقد الجواد رقم 5 المقدمة لصالح (أربعة وتسعون) وسط مزاحمة من "برادیسو" وبدا "اربعة وتسعون" في الانفراد بالمقدمة بفارق نصف طول على حساب "برادیسو"، وبدأت ابتسامة الفوز تظهر على شفتي "يوسف" فغالبا ما يراهن على الجواد الفائز، الجميع يعتقد أن "برادیسو" في حاجة إلى معجزة من أجل الفوز، تبقى على نهاية السباق أقل من ربع الميل و (أربعة وتسعون) انفرد بالمقدمة بفارق طول كامل وهو يسير نحو النهاية بخطى ثابتة... وفجأة انزلقت قدم الجواد أربعة وتسعون على الأرض المبللة دون تدخل من أحد ليسقط على الأرض وفارسه معه، ويستكمل "برادیسو" السير نحو خط النهاية دونما التفات نحو الجواد المنزلق ليربح السباق ويحاول بقية المتسابقين من بعده تجاوزه ليتخطوا النهاية... لقد خسر أربعة وتسعون السباق، أو بمعنى آخر لم يستطع إكماله.

أحس "يوسف" حينها بخيبة أمل كبيرة بسبب خسارته غير المتوقعة للسباق، ونظر إلى "دودي" وهي سعيدة بشكل كبير وقالت له:

- لعل الحظ بجانبي في الفترة الأخيرة بشكل كبير.

* * *

كان "يوسف" و "دودي" يسيران جنبًا إلى جنب في اتجاه الخروج من باب المدرج وكان "يوسف" لا يزال حزينًا بشأن خسارته للسباق، بينما حاولت "دودي" أن تهون عليه، لكنه بعد لحظات حاول التغيير من حالته ففي النهاية قد يكسب سباقًا آخرًا بعد أسبوعين على الأكثر، تذكر حينها عدم قدوم "سارة" فسالها:

- لماذا لم تأتِ سارة اليوم ؟

بدت ملامح "دودي" بالتغيير إلى ادعاء الحزن المصطنع وردَّت عليه وتعلو صوتَها نبرةٌ حزينةٌ:

- "يوسف" أنا اليوم في مهمة لإخبارك بأمر هام

أحس "يوسف" حينها بأمر غامض، فرد عليها مُسرعًا:

- ماذا حدث؟

أجابت الفتاة وقد ازدادت نبرةُ حزنِها:

- التفاصيل لما حدث ليست هامة، كل ما أريد أن أبلغه لك ، أنك لن تستطيع رؤية "سارة" بعد اليوم.

وقع الخبر كالصاعقة عليه من هول المفاجأة ولم يستطع التفكير، فوجدت "دودي" أن الفرصة سانحة لكي تكمل ما تبقى:

يبدو أن والدها قد منعها من رؤيتك، وستتم خطبتها على ابن خالتها "عاصم" في خلال الأيام القادمة.

وجد الحروف متثاقلة على لسانه، ولم يجد ما يقوله... ومرت بجسده قشعريرة خوف لم يعتَدها من قبل، ورد عليها وقد بدأت الدموع تملأ عينيه قائلا:

- لكني... أحبها

فردَّت "دودي" وقد ظهرت بعض الصرامة على ملامحها وهي تقول:

- كن واقعيًّا... ففي النهاية هي مسلمة، وأنت يهودي.

* * *

الإسكندرية 1999

وقفت السيارة الرمادية ألمانية الصنع من طراز منتصف التسعينات أمام مدرسة "سان مارك" ونزل من المقاعد الخلفية للسيارة كل من الصديقين اللذين تجاوزا السبعين عاما، ربما قاربت رحلة حياة كل منهما على النهاية، لكن تظل الأحلام قابلة للتحقيق حتى اللحظة، ربما بسبب مفهوم الأمل أو الرغبة الأساسية في البقاء أطول فترة ممكنة فالغريزة الأساسية للإنسان هي محاولته البقاء، قد يكون السبب البحث عن استرجاع الهوية أو العودة للأصول، لكن تظل النهايات شبه واحدة دون وجود سبب مقنع لتفعيلها والرجوع لها.

أشار "جيمي" للسائق الموجود بمقعد القيادة بيده اليسرى فيما يعني الانتظار وعدل "يوسف" من الحقيبة الجلدية السوداء على كتفه وهو ينظر إلى المبنى الضخم الذي يقارب عرضه الكيلو متر، بارتفاع ثلاثة أدوار تتخللها العديد من الأشكال نصف الدائرية يغلب عليها اللون الطوبي عند سقف الدور الثاني، الذي يتماثل مع الثلاثة أشكال نصف الدائرية الموجودة في منتصف المبنى، من تحت القبة العالية الدائرية الشكل ذات اللون الأبيض الذي تشوبه الصُّفرة نتيجة العوامل الجوية، ومن تحتها ثلاثة أبواب مغلقة سوداء ضخمة يصل إليها عدد من درج السلم المقابل لها، وهو غير مصدق لما يرى، فبسبب رحلته الطويلة خيل له أنه لن يستطيع أن يرى مدرسته التي تعلم بها بعد كل هذه السنين، لا يعرف لماذا شعر أن كل ذلك قد يكون جزءًا من حلم... تأمل تفاصيلها وكأن الرحلة على وشك البداية، عاد إلى ما كان عليه عندما كان عمره لم يتجاوز الثانية عشرة ... رأى حياته كلها على هيئة صور متلاحقة وكأنها فيلم مما عشق... السيد "انطوان"... رحلة العودة من المدرسة... شتاء "الإسكندرية"... البزات الموحدة كحلية اللون... رابطة عنقه وكأن الحياة كلها تبدأ من جديد... شعر برعشة قوية في يده اليسرى وأصبح غير قادر على السيطرة عليها، حتى أن الحقيبة الجلدية كادت أن تسقط من على كتفه... نظر "جيمي" إليه فوجد أن عينيه قد امتلأتا بالدموع من خلف نظارته الطبية، فحدثه قائلا:

- من هنا ابتدأت الرحلة ومن هنا تنتهي أيضا.

فردَّ عليه "يوسف" وهو يحاول تفادي ظهور بكائه:

- إنها كما هي منذ أن تركتها... توقعت أن وجودها سيبقى جزءًا من ذاكرتي .

فقال له "جيمي" مبتسمًا:

- أمثالك يجعلون الذكريات واقعًا يتأمله الآخرون.

بالرغم من أن الساعة قد قاربت على الرابعة والنصف إلا أن الشوارع كانت شبه خالية نتيجة مخاوف الناس من تأثرهم بأشعة شمس الكسوف، واتجه الصديقان بخطوات متثاقلة نحو الترام الذي لا يتجاوز بعده الستمائة متر، وأعينهم على المبنى القديم في محاولة منهما لتأمل الماضي كاملاً... وبعد انتهائهما من اجتياز المبنى عبرا الشارع في اتجاه قضبان الترام ذات الاتجاه العرضي المواجه لدار الأيتام التي يعلوها العلم اليوناني ذات السقف ذي الشكل الهرميّ من جبهتين فقط، ، وظهر من بابه الأسود المغلق أنه لم يفتح لسنوات، واتجهاَ إلى الشارع الذي كان يأتي إليه بشكل أسبوعي، إنه الشارع الذي يحمل مقابر العديد من الطوائف منهم اللاتين والفرنسيون والبريطانيون البروتستانت خاصة الطائفة الإنجيلية بالإضافة إلى مقبرة والديه في الجزء الأيسر عند تقاطع شارع الترام وشارع المقابر... وتخطيا القضبان الحديدية للترام وعبرا الشارع وكان "يوسف" كله شوق ليرى قبر والديه الذي لم يزُره منذ فترة قاربت على الخمسة عقود اتجه إلى بداية الشارع مع صديقه "جيمي" الذي بدأ يلهث بسبب المسافة التي قطعها ونظر إلى الجانب الأيسر ليجد مالم يكن يتوقعه على الإطلاق، لم تعد هناك نجمتا داوُد على الجدار العلوي للمقابر، والباب الحديدي مغلق بعدة أقفال، وكأنه لم يفتح منذ سنوات، حتى اللافتة المكتوب عليها التعريف بهوية المقبرة لم تكن موجودة وكأن جزءًا من التاريخ قد تم قطعه، لم يصدق ما رآه ، واتجه نحو الباب وهو يدق الجرس وحاول فتح الأقفال المتعددة دون جدوى ، وأخذ يطرق على الباب الحديدي أسود اللون عدة طرقات ، ولكن لم يجبه أحد... وبعد لحظات ظهر الحارس الخاص بالمقبرة المجاورة ونظر إليه ثم اتجه إليه بخطوات متثاقلة وكأنه يعرف هويته، انتظره "يوسف" حتى انتهى ثم قال له:

- أريد الدخول الآن ؟

تفحصه الرجل الذي يبدو عليه أنه في منتصف الثلاثينيات ثم قال:

- أتتبع الطائفة ؟

فلم يفهم "يوسف" السؤال في البداية بسبب لغته العربية المتناساة وعند استفهامه رد الحارس:

- أأنت من الطائفة اليهودية ؟

فأجاب "يوسف":

- نعم أنا يهودي

فقال الحارس بعدم اكتراث:

- يجب أن تذهب لرئيس الطائفة فهو الوحيد الذي يملك مفاتيح الأبواب

ثم أدار له ظهره دون أن يكمل الكلام واتجه نحو باب المقبرة المجاورة التي يحرسها.

اتجه إليه "جيمي" بخطوات متباطئة وقال له بهدوء:

- لا تقلق في الغد سنذهب لرئيس الطائفة لتزور مقبرة والديك

واصطحبه عبر الشارع الطويل الذي يصل بشارع "أبو قير" الرئيسي الموازي لشارع الكورنيش على الخط الساحلي إلى مقبرة الكاثوليك حيث ترقد "انطونيلا" وبعد حوالي مائة متر دخلا عبر الباب الرئيسي للمقبرة واتجه "جيمي" إلى الجزء الأيسر عبر الأراضي التي يكسوها العشب الأخضر والعديد من الأحجار الرخامية حتى وصل أمام إحداها فوجدها مكتوب عليها اسمها وتاريخ مولدها وأيضا وفاتها الذي تجاوز العقدين من الزمن، نظر بخشوع إليه هو وصديقه، ثم نظر إلى "يوسف" وبداخل نظراته العديد من المعاني، فقد يكون دافع عن حبه تجاهها وترك والده ، لكنه تذكر أيضا قبل وفاة والده بأيام ومصالحته له ورجوعه لما كان عليه، تذكر أيضا أبناءه الثلاثة وأحفاده الخمسة... وتذكر موتها بسبب المرض، وابتسم للحظة، فقد عاش حياة طويلة ومديدة، وحاول الدفاع عما أَحَبَّ، لأجل ما آمن به، لكن "انطونيلا" كانت تستحق كل ذلك بالتأكيد.

أمسك "يوسف" حقيبته السوداء بيديه الاثنتين ثم فتحها وأخرج منها مُشَغِّلاً للأقراص المضغوطة الذي يحمل سمعات داخلية ووضعه على الحجر الأسود، ثم بحث في الحقيبة وأخرج اسطوانة تحمل عدة أسماء من المُغَنِّين ولكن لأغنية واحدة ووضعها في مُشَغِّل الأقراص الصغير للغاية، الذي لا يتجاوز مساحة اليد الواحدة، وقام بتشغيلها وبعد لحظات تعالى صوت أغنية "انطونيلا" المفضلة (قبلني كثيرًا)... نظر "يوسف" إلى "جيمي" وقال له:

- عندما قررت العودة وجدت أنها الهدية الأفضل بالنسبة لها، لكن بعد معرفتي أنها قد رحلت أردت أن تسمعها ولو للمرة الأخيرة.

* * *

الإسكندرية 1954

سبب إيمان معظم البشر بالدين بالرغم من اختلافه واختلافهم هو الحاجة للوصول إلى ملجأ أو ملاذ قويٍّ قادرٍ على تحقيق النجاة والآمال للبشر والأهم من كل ذلك الوصول للمعتقد الأسمى أو المفهوم المطلق بوجود المطلقات بشكل مجمع، الخلاص التام والأبدية السعيدة لأول مرة جالت هذه الخواطر برأس "ايزاك حداد"، إنها المرة الأولى التي يدع مجالاً لعقله بالتفكير دون حواجز، دون معوقات تمنع الوصول لما يحاول الجميع البحث عنه وهو سبب شدة الحاجة لوجود مبرر للخلاص.

لم يكن من السهل عليه الوصول لتلك الدرجة الكاملة من الرؤية الواضحة، فقد كان للتغيير غير المتوقع لمسار الأحداث في حياته دورٌ كبيرٌ في الوصول لما هو عليه الآن، لقد كانت لديه العديد من الأحلام بعيدة المنال التي حاول جاهدا السعي للوصول إليها، لكن أصعب ما يواجه الإنسان في تحقيق طموحاته، هو تحرك الهدف أو الطموح بحيث تكون رحلة الوصول بلا نهاية متوقعة، التقدم نحو الطموح ، والطموح يتجه لما هو أبعد بينما الوقت يمر، معادلة بلا ثبات، متغيرة الأطراف الناقصة لا حل مثاليَّ لها، هكذا الحياة في أغلب أوقاتها.

كلما مرت نسمات الهواء الرطبة بالغرفة الصغيرة الموجودة بالطابق العلوي من البناية المتواضعة في حي "بحري" الشعبي، أحس "ايزاك" بقشعريرة الخوف تمر بجسده بالرغم من الحرارة الشديدة لمساء هذه الليلة من بدايات أغسطس ، لم يعد "ايزاك" بعد ذلك الصبي فارع الطول ذا الشارب والشعر الأسود، لقد أثر الزمن عليه كما أثر على كل شيء آخر، تخللت الشعيرات البيضاء شعره الطويل، وارتسمت ملامح مرور العمر على جبينه وخديه، حتى قامته لم تعد مستقيمة كذي قبل، بل أصبح محنيًّا بعض الشيء للأمام بسبب طوله الفارع، ربما أكثر من سخر من هذه التطورات على جميع البشر هو الزمن.

تفحص أرجاء الغرفة الصغيرة للغاية شبه الخالية من الأثاث إلا من سرير صغير ومنضدة وثلاثة كراس متهالكة والإضاءة الخافتة القادمة من دورة المياه الصغيرة الملحقة بالجزء الأيسر من الغرفة، وقام من على كرسيه الخشبي واتجه نحو دورة المياه بخطوات يظهر من إيقاعها التعب ، مُرتَدِيًا لجلباب ذي قماش مخطط بشكل طوليٍّ بين اللونين الأبيض والرمادي وأزاح الباب بيده ودخل وبعد خطوات و

وقف أمام صنبور المياه ومن فوقه مرآة مكسور جزءها الجانبي وأخذ يحدق إلى صورته المنعكسة عليها يتفحص تفاصيل ملامحه ولحيته البارزة بشكل يوحي بعدم حلاقتها منذ ما يقارب الأسبوعين وبداخله صوت عال يصارحه أنه هارب وليس لديه الشجاعة الكافية لمواجهة ما فعله من أجل تحقيق معتقداته ، كيف لم يلحظ أنه لا يملك الشجاعة الكافية من قبل، حتى أن أغلب خياراته كانت مستوحاة من الآخر، حتى أن دوره في أغلب ما حدث له هو رد الفعل في جميع مواقفه وقناعاته المتأصلة بداخله استمدت من خلال الآخرين أيضا، دراسته، عمله، حتى معتقداته السياسية، أو إيمانه العقائدي ، حتى قرارته الحاسمة في البحث عن رجولته، رد فعل لأفعال والده، رد فعل لمعتقدات "بارا"، رد فعل لكبح جماح "ارينا"... مجرد ردود أفعال.

فتح بيده اليسرى صنبور المياه وأخذ ينظر إلى المياه المتجهة مع الجاذبية، وأخذ نفسًا عميقًا وهو يحاول إقناع ذاته أنها مجرد محنة وستمر بسلام كسوابقها، لكنه داخلِـيًّا كان يعلم أن هذه المرة ليست كسابقاتها بجميع الأحوال، اتجه برأسه ليضعها تحت المياه، وشعر بعدها أن حرارة الجو قد بدأت تقل تدريجيًّا مع زيادة المياه و الوقت، وأغمض عينه للحظات متناسيًا ما به الآن لكن بعدها لم يستطع، وأخذت الصور تتلاحق بداخله، لكن كيف وصل به الأمر لهذه المرحلة، كي يكون مُطارَدًا من الشرطةِ، هاربًا من العدالة....

عادت به ذكرياته قبل هذه اللحظة بما يقارب الست سنوات بالتحديد عام ، فبعد قرار الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين لدولة يهودية وأخرى عربية، لم يكن يتخيل أحد حتى من المصريين أنفسهم أن تتدخل مصر بحرب نظامية، بل كان المعتقد السائد هو تأليف قوات غير نظامية من أهالي فلسطين ومتطوعين من الدول العربية، وأن يكتفي الدور العربي الرسمي بالتأييد المادي والمعنوي، والسماح لضباط مستقلين من الجيوش العربية بقيادة المقاومة، وتزويدها بالسلاح بالطبع، وقد ظهرت هذه السياسة على السطح قبل الموعد المحدد لانسحاب القوات البريطانية في منتصف مايو، وخلال الثلاثة أشهر الأولى من تلك السياسة، كانت تنظيمات المقاومة تمتد من ثلاثة جبهات مصرية وسورية وفلسطينية، وكبد العرب الإسرائيليين خسائر فادحة، واعتقد الجميع أن الحركة الصهيونية أصبحت نهايتها وشيكة والدولة العبرية ستكون مجرد محاولة في كتب التاريخ، حتى إن "بن جريون" أعلن أنه يجب أن تحدث معجزة من السماء حتى لا تضيع الأحلام الصهيونية، مما استنفر يهود العالم، وتدفق سيل من المتطوعين، غالبيتهم من جيوش الحلفاء ممن لهم باع في الحرب العالمية الثانية، أما الأسلحة فقد كانت من ترسانات الغرب بهدف واحد هو الاستيلاء على أكبر مساحة من الأرض قبل منتصف شهر مايو.

اتجه بعد ذلك بفترة الجيش المصري نحو الشرق لتحرير فلسطين وهو يحمل الوهج الأكبر لروح الزعامة العربية، وبعد إعلان الحرب بأيام تم اعتقال المعارضين والصهاينة والشيوعيين.

يتذكر "ايزاك" هذه الأيام، حيث كانت المرة الأولى التي يعرف بها معنى سلب الحرية والقهر في معتقل "أبو قير" وبعدها تم إصدار الأحكام العرفية، لقد تم اعتقاله بصفته من قادة الحركة الصهيونية فترة قاربت الستة أشهر بعد تحويل الحركات والتجمعات الصهيونية والشيوعية إلى جريمة في نظر القانون، كان يعلم أخبار الحرب على فترات متباعدة، وكلما سنحت له الفرصة بالرغم من عدم تأكده من صحة الأخبار إلا أنه كان بداخله دافع يدفعه نحو الإيمان بقدرة إنجاز وطن على الرغم من المذلة والقهر داخل المعتقل.

وبعد خروجه إلى النور في بدايات يناير 1949 اصطدم بما كان غير متوقع، فبفضل الأحكام العرفية تم وضع جميع أملاكه وبالتالي أملاك أسرته تحت الحراسة، وفقد متجر الذهب، بالإضافة لأمواله بالبنوك... خسر كل شيء قرر حينها أن هجرته لإسرائيل مع "بارا" و "يوسف" هي الحل الأمثل، لكن بعد ضغوط من المبعوثين الصهاينة وبإقناعه أن وجوده كمصريٍّ صهيونيٍّ قياديٍّ أمر مهم بالنسبة للحركة، بالإضافة إلى أن دوره في المعركة قد يكون بتوحيد الجهود لعدة حركات صهيونية داخل "الإسكندرية" بعد التحول للعمل السِّرِيِّ سيكون أقوى تأثيرًا من هجرته لإسرائيل، أما عن أمواله التي خسرها بسبب وضعها تحت الحراسة، وعدم قدرته على التصرف بها، فقد قررت الوكالة اليهودية أن تمنحه عملاً مرموقًا بأحد البنوك مع التعويض الماديِّ بإيداع مبلغ مناسب جدًا لجهوده غيرِ مُـقَدَّرَةِ الثمنِ باسم "بارا" في أحد البنوك الأخرى حتى لا تتمكن الحكومة من مصادرتها ، وقَبل التضحية من أجل الوطن، وبعد قرار الهدنة وانتصار إسرائيل الكاسح، وقرار وقف إطلاق النار وهزيمة العرب والعودة أحس أن تضحياته المقدرة ماليًّا لم تكن بلا داع، فالوطن قد خلق وسيظل ليبقى.

هذا كل ما شغل تفكيره في العام التالي لخروجه من السجن، العمل على جمع شمل اليهود، والبحث عن قادة المستقبل مع توخي الحذر التام بسبب متابعة السلطات المصرية القوية له، وأخذ العمل النضاليُّ مُنعَطفًا آخر أصعب هو الاتجاه للعمل السريِّ بعد أن أصبح التواجد الصهيوني جريمة في نظر القانون، فحاول التواصل مع الشباب اليهودي عبر التجمعات الشرعية في النوادي، وكان مقره نادي "سبورتنج" ونادي "مكابي" مع وقوف "بارا" الدائم بجانبه وكأنها تحاول أن تعوض ما قصرته من حياة كاملة لشريكين.

واستمرت الحياة على تلك الوتيرة ما يقارب العام، حتى تم إصدار قانون إسقاط الجنسية عَمَّن ترى الدولة معاداتهم للمصالح العليا، وكان أكبر هواجسه هو

سحب الجنسية منه حتى يتثنى له البقاء أطول فترة ممكنة في "مصر"، حيث أصبحت هجرته لإسرائيل مع "بارا" أمرًا حتميًّا، وسارت الأمور في هدوء وسط السخط العارم على الملك وتناقص شعبيته الحاد، حتى وصلت إلى أقل معدلاتها في بداية العام 1952، حيث تم إحراق القاهرة وأغلب المحال التجارية في منطقة وسط البلد وكان السؤال الشائع بين الشعب، متى سيرحل الملك؟......

اتجهت يده اليسرى نحو صنبور المياه وحركته بعكس الاتجاه الأول لتغلقه، وبدأت المياه المتساقطة على رأس "ايزاك" بأن تقل تدريجيًّا حتى توقفت، واتجهت يده اليمنى نحو الجانب الآخر من الصنبور حيث قطعة بالية من القماش يستخدمها ليجفف شعره المبلل، ووضعها على رأسه ليجفف شعره واتجه بخطوات متباطئة نحو الغرفة.

وبالرغم من وجود مصباح كهربائي ضعيف في أعلى الغرفة إلا أنه لسبب ما أحس أن الظلام الحالك قد سيطر عليه بل على حياته، لم يعد يرى السعادة مثل السابق، بالرغم من الأحوال المؤثرة السعيدة التي استجدت على حياته، فبعد انتظاره لأكثر من عقد من الزمن، حدث ما كان يحلم به، لقد أخبرته "بارا" أنها حامل منذ ما يقارب الشهرين، وصل إلى السعادة المطلقة، فهو ليس عاقرًا ولا هي، وسيرزق بأحد الأطفال وسيكون شابا يافعا في أحد الأيام وسيساعده، لكنه لم يحلم كما حلم والده من قبل، لا يريد أن يتم تكرار اسم العائلة في "الإسكندرية" بل يريد أن يتم الترديد في مكان آخر، يكونُ فيهِ جُزءًا من الأغلبية، وليس كطائفة نادرة التواجد، ولو كان يعلم أن هذا هو ما سيحدث، لما اتخذ الخيارات التي أدت به إلى هذا الحال... مجرد هارب من العدالة.

امتلأ قلبه بالرعب فجأة بعد أن سمع الطرقات المتتالية على الباب الخشبي للغرفة، وشعر أن الحياة لن تكون مثل سابقتها، في أغلب الظن... إنها الشرطة التي تبحث عنه منذ فترة... اللعنة... إنه لن يصل لما كان يطمح له من قبل وستكون نهايته خلف القضبان، لن يشعر أحدٌ بما ضحى به ولن يعرف البعض ما كان يطمح إليه، فكر في الهرب... لكن المنفذ الوحيد القابل للاستعمال هو الباب الخشبي، ما الحكمة في أن يكون الباب هو المدخل والمخرج الوحيد، الكل سيسلكه حتى لو كان مجرم، أو حتى شرطي... الجميع يسلك الطريق عبر الباب، لكن فجأة توقفت الطرقات وسمع صوتا من الخارج كأن أحدًا يعنفُ الآخر على خطيئته، وبعدها تم طرقُ الباب الخشبي حسب الطريقة المتفق عليها سابقا مع الأشخاص الذين يتولون حمايته، وبينما استنكر سذاجته، فمن المقنع

أن تهشم الشرطة الباب ولا تطلب الاستئذان... اتجه نحو الباب بخطوات مسرعة بعد أن تأكد من هوية الطارق وفتح الباب بحرص ليظهر رجل عجوز وآخر شاب يرتديان بزّات تبدو عليها مظاهر الثراء، وابتسم له الرجل العجوز ذو الشعر الأبيض وقال بعد تأسف على خطئه:

- السيارة بانتظارك في نهاية الشارع سيد "ايزاك".

* * *

أصعب ما قد يواجهه المبدعون هو غياب الدافع، حيث هو المحفز الأوحد للوصول للغايات المنشودة، المحرك نحو النهاية التي حلم بها منذ ظهور الفكرة، الحلم الذى يحاول تحقيقه من أجل ذاتيته والبقاء، فقد تولد الفكرة على يد المبدع في أجزاء من الثانية، ومع مرور الوقت تسيطر على وجدانه وأحاسيسه حتى مشاعره، وتتلخص الحياة في إتمام الفكرة والوصول لمبتغاها، هكذا يكون التطور البشري على يد المبدعين في جميع المجالات.

هذه كانت مأساة "يوسف" الكاملة، حيث خسر كل ما يتمنى من الحياة بابتعاد "سارة" عنه، لقد كانت الهالة الأكبر حول شمسه، أشعتها تحمل النجاة، والوجود بقربها هو الأمان المطلق، الرغبة الغريزية في الإيمان بالوجود... فعندما تتوقف الحياة من أجل حلم غالبًا ما تصعب المواصلة و عرف وأحس بالضعف للمرة الأولى في حياته، وظهرت دموعه أمام الجميع، لم يعد ذلك الصلب الذي يحتفظ بأحاسيسه داخله، بل أصبح الهوان والحسرة هما أصدقائه، والآلام المزمنة " الجزء الأكبر مما قدر له من تلك الحياة البائسة، لعله لم يشعر بهذه الآلام عندما تركه كل من يحب والداه وأخته الحبيبة "ارينا" و "سارة"، الجميع تركه وبقي وحيدًا، عار على القدر الذي لا يعرف الرحمة أو العدل.

إنه اليوم الرابع لـ "يوسف" داخل زنزانة الحبس الانفراديِّ، حيث تم إلقاء القبض عليه منذ ما يقارب العشرة أيام بينما هو عائد من إحدى سهراته بكازينو "لاموري" الليليِّ الذي يغلب عليه مزيج من الطابع الإيطالي والشرقي، حيث أنه أصبح من رواده بعد أن خطت قدماه إليه للمرة الأولى مع صديقه "الفيزي"، حيث المجون هو السمة الغالبة على المكان راقصات شرقيات، وإيطاليات بالإضافة إلى تواجد الداعرات بشكل مبالغ فيه وسط أنهار من الخمر وسحب من الدخان الأزرق، العديد من علية القوم بالإضافة إلى الإنجليز كان مقصدهم اليومي، فما كان يحاول أن يقنع به نفسه في تلك الفترة، أن المتعة الكبرى في الحياة هي

تساقط كؤوس الخمر تحت أقدام الداعرات.

في أحد أركان الزنزانة المظلمة تمامًا، الصامتة إلى حد كبير عدا من صوت ارتطام قطرات المياه بالأرض المتساقطة من الصنبور الصغير في الركن الآخر من الزنزانة، كان يجلس "يوسف" على الأرض متكئًا بظهره إلى الحائط وهو مغمض العينين مسترخ إلى حد كبير، تجول بداخله العديد من الذكريات والمشاعر، قرر الهروب من ذلك السجن عن طريق تفكيره بـ "سارة"، حتى لو ابتعدت عنه، وأصبح الاقتراب منها أمرًا مُحالاً، لا تزال الجزءَ الأهم من تاريخه، ربما الجزء الأهم من آلامه، حاول تجميع كل قواه العقلية باستحضار صورتها... كلا إنه لا يريد أن يراها كما رآها آخر مرة أمام ساحة انتظار نادي "سبورتنج" منذ ما يقارب الست سنوات، والدموع تملأ عينيها بسبب وفاة والدة أحد أصدقائها، إنه يريد أن يراها كما كانت أول يوم وهي تحاول إنقاذ قطها وهي طفلة صغيرة، عندما كاد أن يؤذي نفسه من اجلها، والغريب أنها كانت تبكي أيضا، كلا ... كلا.. إنه يريد أن يراها في قمة أناقتها كما هي عادتها يوم عيد ميلادها بمقهى "كستال" كم كانت جميلة... ربما أجمل ما رأى في حياته، لكن اللحظات الجميلة لا تبقى إلى الأبد... تذكر أيضا قلادتها الذهبية المميزة التي تحمل أول حروف اسمها الإنجليزي.

لا يعرف سببًا مُحددًا لعدم واقعيته في التفكير فهو في النهاية يهودي ، وهي مسلمة، والأحلام التي راودتها بإنجاب أربعة عشر طفلا مستحيلة التحقيق عمليًّا، تذكر أيضا والدتها السيدة "منال" التي طالما أحبها وهي توبخه بعد أن أرسل مجهولٌ لوالدها صورة "يوسف" معها، وأخذت تعنفه على لقائه بالفتاة، وكم هو تعطيل لدراستها الطبية، بينما يحمل الجانب الآخر استنكارًا لاهتمامه بالسينما، وأن العلاقة بينهما يجب أن تنتهي من أجل خطبتها لابنة خالتها، أحس حينها "يوسف" أن الدنيا انتهت وأصابه حزن شديد خيم عليه عدم الاتزان لما يقارب الشهرين حتى محاولاته الاتصال بها عن طريق صديقتها "دودي" انتهت بالفشل لأسباب غير منطقية، وبعد فترة من احتجازها بالمنزل قاربت الثلاثة أشهر، بدأت العودة إلى دراستها لكن هذه المرة مع سائق خاص وكأنه حارس شخصي، تتفادى الكلام مع أحد، مجرد المحاضرات والعودة إلى المنزل بعدها مباشرة، بعد إعلان خطبتها بشكل رسمي، عرف حينها "يوسف" أن النهاية التي طالما حاول الوصول لها تبقى في ذاكرته مجرد أحلام وردية لفترة المراهقة.

وعاد لعادته القديمة حيث أصبح احتساؤه كؤس الخمر بشكل يومي أمراً طبيعياً، وهو يحاول أن يطلب منها مسامحته على عودته لما نهته عنه ، لكنه يريد أن يهرب من التفكير بها، حيث لم يعد باستطاعته التفكير بغيرها، كل مكان

يذهب إليه يُذَكِّره بها، وصل إلى أنه يرى وجهها في جميع أوجه من يراه، وعند رؤيته لأي سيارة من طراز "موريس 8" يتذكرها، حتى أنه في بعض الأحيان كان يتلمس الهيكل الحديدي للسيارة العابرة وكأنه يلمس يدَها.

أصبحت الهواجس تحيط به من كل مكان، يتذكر ما قاله "جيمي" عندما أفاق من إحدى نوبات سُكرِه، لقد كنت ستنتحر لولا العناية الإلهية، فبعد احتسائه لعدة كؤوس من "المارتيني" بدأ بالبكاء كالأطفال الصغار وهو يردد لـ "جيمي" أنه لايستطيع أن يعيش بدونها، وحاول "جيمي" تهدئته، فما كان إلا أن ترك "جيمي" واتجه مُسرِعًا نحو المياه الباردة وهو يحاول إلقاء نفسه بها حتى يتخلص من آلامه.

وبعد ذلك قرر أنه يجب أن يراها دون أن تراه، ربما يكون ذلك هو الحل الأمثل لما وصل إليه، مجرد اختلاس بعض النظرات لها دون ملاحظة وجوده، وكأنه يسرق أجزاءًا من الزمن، كما يفعل عند التقاطه إحدى الصور أن ينظر للواقع بمفهوم رؤيته الشخصية، واعتاد أن يتبع خطواتها دون أن يشعر به أحد، وكان من عادته أن ينتظر داخل سيارته أمام مكان دراستها لفترات مطولة على أمل أن يراها لثوان معدودة والغريب في الأمر أنه بعد فترة فكر في أن يخاطبها وجها لوجه وبشكل مباشر ، لكنه لم يُرِد أن يكسر الحاجز النفسي الذي احتجزت بداخله فهو في النهاية لا يريد أن تصل الأمور لما وصلت إليه مع أخته "ارينا" لا يريد أن يرى تلك الصورة فيها مرة أخرى، وبالرغم من ابتعادها وعلى الرغم أيضا من ابتعاده إلا أنه كانت هناك قناعة بداخله أنها تفكر به وتحلم به كما يفعل كل يوم وليلة.

في إحدى المرات وهو مترقب ظهورها أمام كليتها وبدون وعي منه لما حوله، نظر فجأة ليجدها بجوار سيارته وهي تنظر إليه بل تحدق وآثار الصدمة لا تزال على وجهها بسبب رؤيته، أحس هو الآخر بإحساس من الخوف الشديد لم يعرفه من قبل وفكر مرتين، ووجد أن الحل المناسب هو التحرك بسيارته في طريقه، فلم يعد من المنطقي أن يتحدث إليها على الرغم من كل ما يحمله من مشاعر تجاهها... فجزءٌ من القرار الصائب هو اختيار الوقت المناسب لتفعيله، تمتزج المشاعر بداخله عند رؤيتها فعلى الرغم من حبه المطلق لها إلا أن النهاية المأساوية ستكون في انتظاره ، ربما مر بها بالفعل، لكنه بداخله يريد

الإنكار، فهو غير قادر على فعل شيءٍ آخر.

لماذا وجد هو وهي على أديان مختلفة وما فكرة الإله الأوحد في تعدد الأديان، قد تكون الرسالة واحدة، مثلما هو الجمال واحد ، ولكن الرؤية البشرية المختلفة للأمور المطلقة، جعلت للصراعات الإنسانية مبررًا مع اشتراك النهاية لجميع... الموت القادم.

اعتقد أن "دودي" تحاول الاقتراب منه من أجل التخفيف عنه، محاولة تغيير ما كان يعتقد أو يحلم، لكنه وجد أن العلاقة بها تسير إلى اتجاه مختلف ففي بداية الأمر حاول إقناع نفسه أنها الصديقة المخلصة لـ "سارة" وبفضل الذكريات المشتركة والطفولة الممتزجة تحاول تجاوز هذه الفتاة، إنه لا يراها سوى ظل لحبيبته "سارة" حتى ارتباطاته الانفعالية بها لا تخلو من وجود "سارة"، تذكره بها إلى حد كبير وهي تحاول افتعال دور الصديقة المقربة لكلا الحبيبين، وأنها المبعوثة الإلهية لإيصال الأخبار المتباعدة، لم يكن يعرف أنها تفعل كل ذلك من أجل أغراضها الشخصية، وأنها تعتبره المعادلة الأهم في تفوق "سارة" عليها والحلم الذي لطالما حاولت امتلاكه، فـ"يوسف" في حد ذاته لا يعني لها شيئًا سوى حبيب "سارة" لا تعنيها أحلامه وأماله ولا حتى تطلعاته أو ديانته المهم أنه من الممتلكات الشخصية لـ "سارة "، وحاولت امتلاك هذه الدمية المثيرة للدهشة بشكل دائم لتعوض ما بداخلها من نقص لم تكن تعلم أنها قد تستطيع أن تمتلك العالم بأسره، لكنها لا تستطيع أن تمتلك مُحِبًّا للفنون... لكن من هذا المجهول الذي بعث الصور لوالدها، من هو المتضرر من إكمال هذه القصة المؤثرة... لم تكن الإجابة سهلة على الإطلاق.

زادت تأملات "يوسف" الفكرية بشكل كبير بعد دخوله المعتقل للتحقيق معه بسبب وحدته وبعده التام عن الخمر، بالإضافة إلى أسئلة المحققين التي تنتابها بعض الإهانة للضغط عليه من أجل الاعتراف بما لا يعلم عنه شيئًا، ولاحظ أن الأسئلة قد تكون اكتشافًا لذاتيته وهويته، ووجد بداخله العديد من الأمور التي لم يكن يعلم عنها شيئًا، كالذي يستقر على قطعة أرض فوق منجم للذهب، وكل مافوقها مجرد رمال أو في بعض الأحيان صخور لا يعلم عما تحتها أحد.

قطع تسلسلَ أفكاره صوتُ خطوات متلاحقة نحو باب زنزانته وبعدها بدأت صوتُ فتح الباب الحديديِّ وظهر مع تحرك الباب شعاع من نور الشمس الذي

حرم منه في هذا الحبس المنفرد، وتزاحم مع دخول الأشعة أرجل متحركة للشاويش الريفي المكلف بحراسته، ونظر "يوسف" له ولم يستطع رؤية ملامحه بوضوح بسبب الإضاءة المنبعثة من خلفه عبر الباب المفتوح، كان يبدو الشاويش عملاقًا من وجهة رؤية "يوسف" بسبب جلوسه على الأرض وبدأ الشاويش بالتحدث ليظهر من صوته أنه ريفي ويبدو في نهاية خدمته العسكرية وقال:

- قف يا 1109 ... إنه موعد التحقيق معك

ابتسم "يوسف" وقال وهو يهم بالوقوف:

- إنها المرة الثالثة للتحقيق معي اليوم.

واتجه نحوه الشاويش ليكبل يديه ورجليه بأغلال حديدية كما هي العادة، وبعد أن أتم مهمته ساقه خارج الزنزانة، وبعد أن وطأت قدم "يوسف" اليمنى المغلولة خارج محبسه حتى إنه شعر باسترداد ولو جزءٍ بسيطٍ من حريته، فكونه قادرًا على التحرك والمشي قدما في طريق مستقيم حتى لو داخل السجن حرا في اختياراته، أما أبعاد الرواق فكانت عبارة عن ثلاثة أمتار عرضية وطول أكثر من مائة وخمسين مترًا يتقاسم على جانبيه الأبواب الحديدية للزنزانات وعليها المسلسل الرقمي لها، ويتوسط كل خمسة أبواب شاويش واقف متأهب بزيه العسكري الأسود، كان يمشي الطريق نحو نهاية الرواق في غرفة التحقيقات التي حفظ مكانها، كل خطوة من خطواته كانت تحمل الأمل، وشعر بألم في ذراعه أمام الباب الحديدي الخاص بغرفة التحقيق الذي اعتاد العبور منه ودخل إلى الغرفة التي بها مكتب خشبي وثلاثة كراس أحدهما في جهة مواجهة للمكتب وأجلسه الشاويش على الكرسي وتأكد من ربط الأغلال في قدم الكرسي المثبت على الأرض، ونظر "يوسف" إلى الكرسيين الخاليين أمامه، ربما سيتركون لفترة كما هي العادة قبل قدوم المحقق وكاتب التحقيقات وأخذ يفكر ما هي الحكمة في تحويله من شخص عاقل ذي أهل وأسرة وعمل، إلى مجرد رقم لم يرغب بإهلاك نفسه بالتأمل في أسئلة التحقيقات كفيلة بإرهاقه بالشكل الكافي وبعد قليل دخل المحقق ومعه كاتبه، حيث أيقن "يوسف" أنه محقق جديد غير من اعتاد سؤاله، يبدو في الأربعينيات من عمره ويرتدي بزة سوداء أما الكاتب فيرتدي قميصًا أبيضَ ، وبعد جلوسهما في المكان المخصص

لهما أخرج الكاتب بعض الأوراق وبدأ بالاستعداد للكتابة بينما سأله المحقق بعد أن تفحصه بنظرات ثاقبة السؤال الذي اعتاد إجابته:

- ما اسمك وسنك ومهنتك؟

فأجاب وهو يحاول الابتسام:

- "يوسف حكيم حداد"، 24 عام، مخرج سينمائي .

* * *

لم تعد تصفف شعرها الأحمر على الطريقة الغجرية المفعمة بالثورة، بل فضلت أن تصففه على هيئة ذيل حصان على الطريقة الكلاسيكية المعتادة، حتى الوهج الذي كان يشع من عينيها أصبح جزءًا من الماضي، ومُحِيَت الابتسامةُ المميزة من على شفتيها وارتسم طابع من الألم الممتزج بالحسرة، ليست هي كما كانت منذ أكثر من ستِّ سنوات سابقة، تلك الفتاة الطامحة الثائرة ، بل أصبحت امرأةً يغلب عليها الحزن بالرغم من كل ما حصلت عليه، حتى اختيارها لألوان ملابسها تغير فبعد أن كانت تعشق الألوان المثيرة مثل الأخضر والأحمر، أجبرتها نفسيتها على اختيار الألوان الداكنة التي يميل عليها الطابع المأساويُّ والحداد، لم تعد "سارة مصطفى" مثل سابق عهدها...

وتذكرت بالتفصيل ما حدث لها، لم تكن لتتوقع ذلك بالنسبة لحياتها المستقبلية عندما كانت في الثانية عشرة من عمرها وحتى الثامنة عشرة، وحتى اليوم لا تعلم على وجه التحديد من ذلك التعس الذى استطاع الحصول على نسخة من الصور التي كان يلتقطها لها "يوسف" على الرغم من أنها لا تجد بها ما يخدش الحياء على أي حال من الأحوال، وكيف كان موقف والدها بالتعامل معها بعنف... حتى أنها تذكرت أنها كانت المرة الأولى التي يصفعها... ربما تم التقديم مع خطاب يتخيل بعض الأمور... حتى منعه لها من الذهاب للدراسة لفترة وعدم خروجها من البيت... لم يكن هذا هو السبب الأكبر في العذاب بل المعاناة دون ذنب، فما هو ذنبها لتبتعد عَمَّن تحب بسبب اختلاف دينها، واستغلال ذلك التعس ابن خالتها "عاصم" الأمور والتقدم لخطبتها، ربما كان هو السبب في إيصال تلك الصور لوالدها ليهيِّئ لنفسه الأمور، فهو يعلم بداخله أن الأمور لو سارت بشكل طبيعي حتى إن كان هو آخر الرجال على الأرض سترفضه "سارة" بجميع المقاييس، لكنه اختار الوقت المناسب لاهتزاز الثقة بين الفتاة وأهلها بالإضافة إلى كونه طالباً بالمدرسة الحربية وسيكون ضابطًا مرموقًا في أحد الأيام، بالإضافة إلى ثرائه النسبيّ، وأخيرًا قرابته لها، كل ذلك جعل منه اختيارًا مُوَفَّقًا بالنسبة لوالدها، أما والدتها فَقد كانت تعلم مساوِئه بشكل كبير وحماقته المتناهية، ربما لم يكن الأمير الذي طالما حلمت به من أجل ابنتها، لكنه زوج مقنع ويجب عليهم الإسراع بزواجها حتى لا ترتبط الفتاة

عاطفيًّا بشكل أكبر بـ "يوسف".

تذكرت الضغط المطلق على والدها من قبل الجميع، والدها والسيدة "ماريز" حتى السيدة "هدى" خالتها من أجل عودتها لمواصلة الدراسة وبعد إلحاح تمت الموافقة على أن تصطحب سائقًا معها في جميع تحركاتها، وفي الفترة التالية شعرت أنها قد تكون أخطأت ربما "يوسف" كما يعتقده الناس هوائي ، انفعالي ، مجنون إلى حد كبير، إنه لم يحاول حتى التواصل معها أو محاولة مخاطبتها ، عرفت بعد ذلك أن العلاقة لا تزال متواصلة بينه وبين "دودي" وعند محاولتها السؤال عنها صارحتها "دودي" بمنتهى الهدوء:

- لم يعد يتحدث عنك على الإطلاق.

لكن بداخلها كان هناك شك أبَعدَ كل هذه السنوات لم يعد يتحدث عنها ؟ ربما كان يستمتع بوقته بصحبتها فقط، ففي النهاية ماذا تتوقع من مهرج، يهتم بالسينما، ربما قد ألمحت لها "دودي" أنه يريد أن يصل لها أنها مجرد مرحلة من حياته والقرار الصائب هو أن تتزوج من ابنة خالتها، حتى أنه بعث لها بورود مع "دودي" ، اللعنة لقد كان يستمتع بوقته معها فقط، لكنها في النهاية لم تحب غيره قط، لكن كيف تهون عليه كل تلك السنوات وهو يدعي، ربما كان يتخيلها كبطلة من بطلات الروايات الحالم بها، وانقطع عن رؤيتها حتى لم يحاول ذلك، انقطع عن نادي "سبورتنج"، ولم يعد أحدٌ يراه في مقهى "كستال"، وعندما سألت عنه "باولو" رد : إنه انقطع منذ فترة ولم يَعُد يأتي، ما أكد لها كل ذلك عندما رأته أمام كليتها ونظر لها بشكل مباشر في عينيها ثم اتجه بسيارته هاربًا بشكل مسرع و هو يحاول تفاديها أو بالأحرى قد يكون نسيها، ربما لم يعد يتذكر ملامحها على الإطلاق.

حتى "دودي" صديقتها المفضلة لم تعد تراها كما كانت ، بل شعرت أن هناك منعطفًا جديدًا من الصداقة، فقد أضافت الأيام حاجزًا بعد الآخر من الابتعاد عنها... والشعور الذى خيم عليها بشكل كامل هو إحساسها أنها مجرد ضحية... ضحية لمهرج لم يقدر حبها، وأصدقاء خونة وأب لم يفهمها وأم لم تساندها وابن خالة استغل الظروف ، الجميع وقف ضد إرادتها وأحلامها ورغبتها.

ربما يجب عليها أن تؤمن بما قدر لها، وبالرغم من كل هذه الخطايا من جميع الأطراف المشتركة في حياتها، إلا أنها لا تزال تؤمن أن "يوسف" كان الشخصية الأكثر تميزًا في حياتها، على الرغم من كذبه الذي استمر لسنوات.

وبعد ذلك كان شرطها هو إتمام مراسم الزفاف بعد إنهاء دراستها التي ستستغرق سبعَ سنوات، قررت التراجع والموافقة على الزواج بعد أن ينتهي "عاصم" من إنهاء دراسته العسكرية، أي في صيف العام 1950... حاولت أن ترى "عاصم" الزوج المناسب، لكنها لم تجد سوى الحماقة والرعونة في جميع

التصرفات حتى معاملته لها لم تتسم بالرومانسية الممزوجة بالجنون مثل "يوسف"، لقد كان يعاملها كأنها إحدى الممتلكات الشخصية، لا يحاول المحافظة على مشاعرها وأحاسيسها بل كانت همجية، وكأنها أحد الجنود في معسكر حربي مسئول عنه، وكانت جميع أحلامها بالوصول للسعادة تتذكر حلمًا بعد الأخر بهدوء حتى تكاد لا تراه.

عندما انتهى "عاصم" من دراسته العسكرية، بدأت الاستعدادات الجادة من أجل التحضير لحفل زفافها، حاولت حينها إلهاء نفسها بأنها ستكون عروسًا، وسيزف إليها زوجها بزيه العسكري، وستـتم دعوة صفوة المجتمع السكندري للحفل المهيب، هذا كل ما تطمح له أية فتاة، وكأنها تحاول أن تخفي ما بداخلها من حب نحو "يوسف"، ربما يكون قد تعرف على أخرى، وحاول الوصول معها لنفس ما كان يطمح معها، ربما أجنبية صديقة لـ "انطونيلا"، ربما إحدى اليهوديات، ربما أحد الممثلات الناشئات... لكن من المؤكد أنه كان يريد إبعادها عن حياته، وتوالت الخواطر بداخلها، أنه قد يكون هو من أرسل الصور بنفسه لوالدها حتى ينهي علاقتهما، بالرغم من كل ذلك لا تزال تشعر نحوه أنه كان الأفضل.

لم تعرف اللذة في حياتها الأسرية الجديدة مع "عاصم"، ووجدت في علاقته الحميمة أنه ساديٌّ إلى حد كبير يتلذذ بتعذيبها، حتى أنه لا يحاول إشعارها بما تطمح إليه، وبسبب عمله العسكري كان تواجده في المنزل شبه منعدم، يأتي في إجازته الأسبوعية على مدار يومين على الأكثر، ووجودها بالمنزل من عدمه لم يعد يهمه بشكل كبير، بسبب سهراته المتعددة، فهو يعتبر فترة الإجازة من العمل، كجزء مقتطع من الزمن من أجل متعته الشخصية التي افتقدها بسبب عمله الصارم، كثيرًا ما كانت تبقى في شقتها الجديدة بالقرب من حي "الإبراهيمية" مستيقظة الليل كاملا والرعب يملأ قلبها بسبب وحدتها التامة، في أغلب الأحيان كانت تضيء جميع أضواء المنزل بالإضافة للمذياع حتى تشعر بالطمأنينة في ليل "الإسكندرية" قارس البرودة، وهي تتذكر الأيام المفضلة من عمرها مع "يوسف".

وما كان غريبا أنها بعد انقضاء عام كامل على زواجها، لم تكن تتذكر صورتها وهي عروس، حيث رفضت وجودها بمخيلتها، وانكبت على دراستها محاولةً إيجادَ ما يفرغ عنها تعاستها، مجرد محاولة للهروب من واقعها المؤلم الذي لم تختَره، وكانت زيارات والدتها بالنسبة لها المذكر الأول بأيامها الجميلة الماضية، بالرغم من القناعة بداخلها أن والدتها أحد الأفراد المؤثرين في تغيير مسار حياتها مِمَّا كانت عليه إلى ما وصلت إليه... وكان يوم الاثنين هو موعد الزيارة الأسبوعية

للسيدة "ماريز" بالرغم من أن اللقاء بينهما فيما سبق كان بشكل يومي، وفي بعض الأحيان أكثر من مرة في اليوم الواحد، لكن الأمور تغيرت الآن، بعد ابتعادها إلى المسكن الجديد.

نظرت إليها السيدة "ماريز" وهي جالسة على الكرسي المفضل لديها منذ صغرها في بهو الاستقبال بمنزلها... متفحصة عينيها الممتلئة بالحزن، وأخذت نفسًا عميقًا، وهي تتحسر على وهج الفتاة الصغيرة الذي كانت تمتلكه "سارة"، وبدأت بالحديث إليها من على مقعدها المتحرك الذي أُجبِرَت على استخدامه مما يقارب الخمس سنوات ، يبدو أنها لن تعيش فترة طويلة بعد أن اجتازت حاجز الستين عاما وقالت لها:

- تبدو الهموم عليك متثاقلة.

أحست "سارة" بالخجل من أحزانها، فالتذمر من أوضاعها المأساوية لا يجب أن يكون جزءًا من النمط الأساسي لزيارتها للسيدة "ماريز" وقالت مبتسمة:

- لا عليك لقد اعتدت على ذلك.

شعرت السيدة "ماريز" أن "سارة" لا تريد التحدث عن مشاكلها الشخصية التي لا تنتهي بسبب زوجها غير المهتم، ولكنها كان بداخلها يقين أن "يوسف" قد فعل كل ذلك حتى لا يسبب لها المتاعب، كما كانت تحاول الإيضاح بشكل دائم، لكن الأمور قد اختلفت كثيرًا فـ "سارة" الآن متزوجة وأحلام الصِّـبَى غير قابلة التحقيق الآن، فكل ما أمامها مجرد صور متلاحقة للتطور الزمني لحياة "سارة" منذ أن كانت تأتي لها وهي لا تعرف الكلام ثم طفلة تتحدث بالكاد وتتلمس خطواتها الأولى وبعد ذلك الطفلة تتحول إلى فتاة وتحاول أن ترى العالم أجمع من وجهة نظرها، وبعدها مراهقة تتعالى على من تعشق من أجل إقناع نفسها بسحرها الأنثوي العارم، القادر على تحطيم قلوب الرجال، ثم الشابة المتزوجة التي تحاول إعادة الخليقة والوصول للمعجزة الكبرى بإعادة تكوين الكون وتظهر بعد ذلك صورة السيدة الحزينة الناقمة على حياتها... التطور المقنع لحياة أي أنثى، لكن "سارة" إلى حد كبير ضحية، فهي كانت تأمل بمجرد الوصول لما تطمح له، ربما منحها الله الجمال، والأصل العريق لكن في بعض

الأحيان تكون الحكمة غير مفهومة... هكذا يعتقد أغلب البشر.

أكملت السيدة "ماريز" النظر إليها وقالت بعد أن شعرت بِكَمِّ المعاناة التي تعيشها "سارة" :

- في بعض الأحيان يجبر الإنسان على بعض الظروف... لكن هذا لا يمنع أن الذِّكرى لا تزالُ ملكَه.

حاولت "سارة" تأمل الكلمات بعد سماعها لتصل للمعنى العميق والحقيقي من الحياة.

* * *

كانت نسماتُ الهواءِ العذبةُ لا تزالُ هي الأكثرَ تأثيرًا على تلك الليلةِ الحارةِ ... قد تكون الساعة تجاوزت منتصف الليل بساعة على الأكثر، الغريب هذه الساعات من اليوم غير محددة إلى حد كبير... ففي الإحصاء الشمسي تدل على البدايات الرسمية ليوم جديد... بينما تظل الجزء الأهم من مملكة الليل التي لا يعرف مداها الكثيرون... أو قد يكون مفهوم التقويم في حد ذاته نسبيًّا في عالمٍ لـَمْ يفهم العديد من البشر الجدوى من وجوده، فكان من المنطقيِّ البحث عن مبررات لسبب الوجود... ربما قد خلق اللهُ الليلَ من أجل الإحساس بالسكينة، أو قد يكون من أجل المتعة أيضا... ففي الغالب الحكمة غير مفهومةٍ.

كان "ايزاك" يراقب السكون المخيم على الشارع الجانبي بالقرب من الميناء الغربي لم يكن المكان تعمه الحركة التجارية النشطة مثل الصباح، حيث يعتبر الميناء المخصص للبضائع وتنقلاتها، حيث تمتد إليه قضبان السكك الحديدية الخاصة بنقل البضائع التجارية... نظر إلى عقارب ساعة معصم يده... فلم يستطع تحديدها فأخرج من جيب القميص البني الذي يرتديه علبة ثقاب وأشعل واحدًا منهم بالقرب من عقارب الساعة ليراها تشير إلى الواحدة والنصف... يعرف أن ظهور "بارا" الآن أصبح وشيكًا ومتوقعًا، وانتابه إحساس الرهبة من السكون وأخذ يتأمل الأضواء الصفراء التي تنير الشارع عبر أعمدة الإنارة المنتشرة على جانبي الطريق، لم يكن من السهل عليه التواجد في هذا المكان بسبب مطاردة الشرطة له... لكن الظروف تضع الإنسان في مواقف حاسمة.

تذكر ما كان عليه الحال منذ سنتين لقد اعتقد مثل آلاف اليهود حول العالم أن الصراع العربي الإسرائيلي قد يأخذ منعطفًا جديدًا، فبعد الانقلاب العسكري على

الحكم الملكي مصحوبًا بالثورة الشعبية وتوقيع الملك "فاروق" وثيقة التنازل عن العرش وتركه "مصر" إلى "إيطاليا" عبر "الإسكندرية" على متن قاربه المحروسة، ظن الجميع أن الحكم العسكري بقيادة اللواء "محمد نجيب" قد يقبل وجود إسرائيل والتعامل معها بسلام، وقد ظهرت هذه الدلالات في زيارته المعبد الرئيسي لليهود بالقاهرة بشارع "عدلي" في يوم الغفران وإعلانه أن اليهود المصريين جزءٌ لا يتجزأ من الشعب المصرى العظيم، ربما كانت نقطة أولى للتواصل والبعد عن مسار الصراع، وأيضا إرسال الحاخام الأكبر برقية تأييد للثورة الجديدة والحلم الأكبر بتحسين الأوضاع من أجل البحث عن وطن مفعم بالآمال قد يكون موجودًا بالفعل، لكنها العادة البشرية في البحث عَمَّا هو غير موجود بدافع أنه الأفضل للجميع.

ففى نهايات الحكم الملكيِّ أصبح وضع الجماعات الصهيونية غير شرعيٍّ وغادر كل المبعوثين الصهاينة "مصر"، وأصبح على الجماعات العمل السري عن طريق قيادات مصرية يهودية تحاول البحث عن الهوية المفتقدة أو المزعومة... هكذا تطورت الحياة السياسية لـ "ايزاك" فبعد أن كان عضوًا مؤثرًا في الحركة الصهيونية عن طريق جماعة (الرواد المتحدين) أصبح من القادة الاساسين للعمل السري بعد أن تفككت الحركات، وبعد أن قامت الوكالة اليهودية بتأمين وتوفير احتياجات "ايزاك" المالية، بعد خسارته متجره بعد تأميمه، لكن الوكالة وجدت ضالتها بفكرة دخول بعض القادة الأجانب إلى "مصر" عن طريق جوازات سفر مزيفة، وانتحال شخصيات بريطانية حتى لا تثير الشكوك، ففي ظل التواجد للاحتلال البريطاني يكون مفهوم وجود بريطانيين منطقيًّا إلى حد كبير وكان اللقاء الأول بـ "جون دارلنج" أو هكذا كان يطلق عليه الجميع.

كان ذكاء "ايزاك" يمنعه من تصديق هويته التي يتعامل بها على أنه بريطانيٌّ الجنسية، لكن إيمانه بتوفير الأمن له، كقياديٍّ لحركة ستولد على يديه جعله يتعامل معه على الطريقة التي أراد الجميع التعامل بها معه، وكانت أوامره واضحة له منذ البداية، العمل على إيجاد أهل الثقة من اليهود المصريين المؤمنين بالصهيونية كإيمانهم بالتوراة من أجل تزويد إسرائيل بالمعلومات الكاملة عن الوضع في "مصر"، خط المواجهة الأول للصراع، وكان العمل في البداية بشكل فرديٍّ حيث التعامل المباشر بين "دارلنج" و "ايزاك" حتى استطاع بعد عام كامل الوصول لإقناع أربعة أفراد مقربين منه للعمل المخلص لدى التنظيم.

وبعد عدة أشهر أصبح "ايزاك" هو المسئول الفعليَّ عن المجموعة المتواجدة

بـ "الإسكندرية"، أما عن التمويل فقد كان عن طريق شخص يُدعى "ماير" وعند حاجة "ايزاك" إلى التمويل الماديِّ ما كان عليه سوى الاتصال برقم يحفظه عن ظهر قلب ويقول رسالة محددة متفق عليها ليجد بعدها ما أراده... واستطاع إقناع عدة أشخاص بالعمل معه واستمرت الأوامر الرئيسية في تصوير الحالة العامة للشعب المصريِّ... استمر العمل على هذا النحو حتى مارس من العام 1945.

قطع السكون المخيم على المكان صوت محرك سيارة قادم من بعيد وازداد صوته بالوضوح من تزايد عامل الوقت، وظهرت أضواء السيارة الأمامية من على مسافة تتجاوز مائتي متر، ثم توقف صوت المحرك والإضاءة بعد أن استقرت إلى الجانب الأيسر من الطريق، وساد الهدوء مرة أخرى للحظات بعدها تم إضاءة وإطفاء نور السيارة الأمامي مرتين متتاليتين، فما كان من "ايزاك" سوى تكرار نفس الفعلة من سيارته، وبعدها تم تشغيل صوت المحرك مرة أخرى وبدأت السيارة في الاقتراب حتى استقرت أمام سيارته بشكل أمامي لتظهر "بارا" في الكرسي المجاور لمقعد القيادة وبجانبها شاب في مقتبل العمر يرتدي قميصًا أبيض اللون.

نظر إليها "ايزاك" وحدق بعينيها فوجد بداخلهما الإحساس بافتقاده ممتزجة مع لمعة براقة لم يعتَد عليها من قبل، ربما بارقة أمل أو آلام, لا يعلم إلى حد كبير ما ستسير عليه الأمور في النهاية القريبة المنتظرة... فتح باب سيارته وارتطمت قدماه بالأرض بهدوء وأغلق الباب واتجه إلى السيارة السوداء المواجهة لسيارته وعيون "بارا" تتأمل حركاته حتى فتح باب المقعد الخلفي لسيارتها وجلس بها، اتبعته بخطوات سريعة حتى استقرت بجانبه، ثم تم تشغيل المحرك مرة أخرى وانطلقت السيارة بعيدًا إلى مكان لا يعلمه أحد سواهم.

* * *

كانت أمواجُ البحرِ هادئةً بعضَ الشيءِ على الجانب المواجه لرصيف الميناء المحمل بالعديد من أنواع البضائع القادمة عبر البحر التي تنتظر التحميل على السيارات للتوزيع بالأسواق، بالإضافة إلى السيارة سوداء اللون التي تظهر من خلف ألواح الخشب الموضوعة بشكل منتظم يجاوز ارتفاعها المترين، كان يقف أمامه الشاب الذي يقود السيارة وهو يدخن في انتظار انتهاء الصلاة المقدسة التي يؤديها "ايزاك" و "بارا" في السيارة.... توقفت أنفاس "بارا" و "ايزاك" عن التصاعد من المقعد الخلفي للسيارة غير واضحة الرؤية عبر زجاجها بسبب الأنفاس الكثيفة المتلاحقة التي أدت لوجود ضباب داخليٍّ يمنع الرؤية بالرغم من

الحرارة الشديدة داخل السيارة... تحركت "بارا" من على جسد "ايزاك" ذي الصدر العاري للجانب الآخر من المقعد الخلفي وبدأت بالنظر إلى الجزء السفلي من المقعد باحثة عن صدريتها وبقية ملابسها وأنفاسها لا تزال تلهث بسبب وصلة الحب التي افتقدتها لما يقارب الأسبوعيين بسبب هروب "ايزاك"، افتقاد الشريك لفترة يضيف بُعدًا آخرًا للجنس، تلك الصلاة المقدسة التي تتوج الاتصال الروحي والجسدي والإلهي مكونة المعجزة الكبرى ، فبعد الإحساس بالنشوة يصل الذهن إلى قمة الصفاء الروحي وبعدها الوصول للحقيقة الكبرى في الحياة من الكمال والطموح بحثًا عن إعادة الخليقة.

أخذت من علبة سجائرها الذهبية إحداهنَّ وهمت بإشعالها مما أضاف الإضاءة الوحيدة للمكان للحظات معدودة، دخنت منها القليل ثم أعطتها إلى"ايزاك" كانت تعلم بشكل كبير أن التدخين قد يؤثر على حملها الذي لطالما انتظراه بعد أن كانت احتمالية كونها عاقرًا كبيرةً جدًا، لم تصدق نفسها عند حدوث التغيرات بها مما يدل على حملها ففي النهاية هي لا تزال في النصف الأول من ثلاثينياتها، وربما أراد الله أن يؤخر حملها لتضع طفلها الأول في المكان الذي طالما حلمت به، في الأرض المنتظرة المختارة للشعب اليهودي ... في إسرائيل التي أصبحت واقعـًا ملموسًا مُعتَـرفٌ به من أغلب دول العالم.... أخرج "ايزاك" دخان سيجارته من أنفه بعمق وهو لا يزال شاردَ الذهن وهو يعلم بقوة أنها قد تكون المرة الأخيرة التي يتمتع بها بجسد المرأة الوحيدة التي عشقها... يعلم أن إقناعه لها بأنه سيلاقيها في "مارسليا" بعد سفرها بأيام لتخليص أخيه مجرد وهم... ربما سيضحي بنفسه من أجل ما اقتنع به... فبعد ساعات قليلة ستكون في عرض البحر وحدها مثلما أتت إليه أول مرة... وبعد أسابيع ستكون في إسرائيل مع والديها و "ايفانا"، وأقنعها أن سفرها وحدها في البداية سيكون الأفضل لكليهما في رحلة الذهاب المقدسة إلى إسرائيل... لكنه لم يستطع أن يفصح لها عما بداخله... أحس بالحاجةِ المُلِحَّـةِ لاحتضان جسدها العاري بكل قوة وهو مغمض لعينيه ليتخلص من حواجزه النفسية ولو للحظات... احتضنها وأغمض عينيه وارتاح للحظات بعدها توالت في ذاكرته الصور لما حدث.

في شهر مارس الماضي استطاع "جمال عبد الناصر" أن يكتسح في الاستفتاء وأصبح الرئيس الرسمي للجمهورية، وتم تحديد إقامة "محمد نجيب" وكان هدفه الرئيسي هو تخليص "مصر" من الاحتلال البريطاني، وبدأ بالبحث عن طريقة ما لإقناع البريطانيين بالجلاء، ومن وجهة النظر الصهيونية ستكون "مصر" خط المواجهة لأول مرة مستقلة فكانت بمثابة الكارثة بالنسبة للجميع، فـ "عبد الناصر" لن يعترف بإسرائيل والمواجهة القادمة في ظل الغياب

البريطاني أمر حتمي ومقنع في نفس الوقت.

كانت الأوامر القادمة إلى "دارلنج" صريحة ومباشرة، إيجاد طريقة لمنع الوصول للاتفاقية المصرية البريطانية بخصوص الجلاء، واهتدى لإيجاد خطة إلى تخريب بعض المنشآت الأمريكية الموجودة في "مصر" لتجبرها على عدم التفاوض... وعلى موجات راديو إسرائيل على البرنامج الصباحي تمت إذاعة طريقة عمل "الكعكة الإنجليزية" وكانت الإشارة إلى بدء العملية التي رتب لها "ايزاك" مع "دارلنج" لفترة طويلة، بمساعدة الخلية التي يترأسها "ايزاك"، وفي يوم الأربعاء 2 يوليو انفجرت ثلاثة صناديق في مبنى البريد الرئيسي بـ "الإسكندرية" وكانت الأدوات بدائية فهي عبارة عن علبة اسطوانية تحتوي على مواد كيميائية وبعضٍ من الفسفور الأحمر... ولم تكن الخسائر عظيمة ادعت الصحافة أن السبب ماسٌ كهربائيٌّ، وغمرت "ايزاك" النشوة التي تسيطر على المنتصر وبعدها في يوم 14 يوليو انفجرت قنبلة مماثلة في وكالة الاستعلامات الأمريكية في الإسكندرية بشارع فؤاد ، وبعدها بساعات أخرى بفرع القاهرة وبدأ الرأي العام في التيقن من أنه عمل تخريبي مخطط لأسباب غير معلومةٍ، وكان للقدر دور أخر في كشف المخطط ففي الذكرى الثانوية للثورة كان من المفترض وضع متفجرات في محطة القطارات... وسينما (مترو ورويال) بـ "الإسكندرية"، إلا أن المتفجرات قد اشتعلت في جيب العميل المكلف بوضع المتفجرات، فأنقذه المارة وفي لحظات كان تواجد رجال الشرطة بالمكان وتم اصطحابه لقسم العطارين وفي أغلب الظن أنه اعترف على "ايزاك"، لذا تم القبض على "يوسف" حتى يدل على مكانه، وعلى الرغم من أنه كان يثق برجاله ... لكن يبدو أن للشرطة أساليبها في أخذ الاعترافات... سمع صوت "بارا" وهي تقول:

- متى ستلحق بي في "مارسليا؟

تنهد قبل أن يجبها:

- بعد أسبوعيين على الأكثر

كان يعلم أن كل ما يقوله مجرد أوهام... فبعد ساعات قليلة يجب عليه أن يذهب للمكان الذي يجب أن يكون به إنه يملك الشجاعة الآن ، لن يفعل مثل ذي قبل، لن يكرر المأساة مرة أخرى... سيذهب لتخليص أخيه الأصغر... ويسلم

نفسه للسلطات المسئولة ربما يبدا بالافعال بعض الوقت .

* * *

لم يكن يتخيل "يوسف" أن أحد الأيام سيكون الأخير له في "الإسكندرية":... لكن المعادلة مع السلطات كانت سهلة إلى حد كبير، فبعد أن سلم "ايزاك" نفسه للشرطة بصفة الاشتباه به كأحد المتورطين الرئيسيين في العمليات التفجيرية بـ "الإسكندرية" و "القاهرة"، أصبح وجود "يوسف" في المعتقل غير مبرر، وكأنه الطعم الذي يستقطب به الصياد فريسته، وكانت صفقة تسريحه مُذِلَّةً كما كانت سهلة إلى حد كبير... فبعد عودته من المعتقل إلى القسم الخاص "العطارين"، وارتدائه لملابسه المدنية أتى به الصاغ المسئول عن قضيته "زكي العامري" إلى مكتبه الأنيق وبعد إخلاء المكتب ممن سواهما ، كان الكلام الموجه لـ "يوسف" سهلا للغاية، أخبره أنه يعلم أنه لا علاقة له بالصهيونية على الإطلاق واهتماماته تتلخص بالفنون، لكن السياسة العليا تفرض عليه الاختيار بين أمرين، إما أن يترك "الإسكندرية" قبل انتهاء الأسبوع وستتغاضى السلطات عنه هاربًا، أو لاجئًا مضطهدًا، أما الأمر الثاني هو بقاؤه بـ "الإسكندرية" و حينها يستوجب عليه أن يتحمل تبعات اختياره، وألمح إليه الصاغ "زكي" أنه لن يكون من المستبعد تورطه في القضية التي أصبحت قضيةً تهم الرأى العام بأكمله، ويجب عليه تقدير تضحيات أخيه بتبرئته، ولم يتسع وقت الصاغ لسماع ما يريده وأخبره أن معرفته بقراره ستكون عبر فعله... هكذا يمكن للمرء أن يجبر على ترك وطنه بهذه البساطة، ألم يعرف الصاغ "زكي" أنه مصري مثله ويجب عليه المحاسبة على أخطائه الفردية، وليس سلوكاً مبنياً على أخطاء آخريين من نفس الطائفة، قد تكون الرؤية السياسية الجديدة رافضة لمفهوم وجود طابور خامس من المدافعين عن آخرين، لكنه في النهاية مصري متأثر بوطنه إلى حد كبير.

وبالرغم من النجاح الذي لطالما حاول الوصول إليه قد بدأ يراه، بعد أن تم عرض فيلمه الأول "المهنة مختلف" الذي قابل استحسانًا من الجمهور والنقاد إلا أن كل هذا سينتهي بمغادرته "الإسكندرية"، بعد أن سعى أغلب حياته العملية لكي تصل بعضٌ من أحلامه إلى الناس عبر الشاشة الفضية سيصبح مجرد جملة اعتراضية، وجودها من عدمه غير ضروري على الإطلاق مجرد فيلم واحد لمخرج مغمور لن يتذكره أحد... بعد كل هذه المعاناة مع "الفيزي" في البحث عن منتج يتقبل فكره وأوهامه التي يحولها إلى واقع... كل ذلك سيصبح جزءًا من ماضٍ لحاضر لن يعرف عنه الكثيرون، لم يكن من السهل عليه الاختيار ، فبعد تحقيق جزءٍ من الأحلام التي يعتقد المرء دورها الإيجابي في حياته، يصبح من الصعب

التخلي عنها، ففي النهاية هو غير مذنب، ولم يحاول تفجير مكان أو قتل أحد... أولويات الدولة السياسية ليست من بينها أحلامه، مجرد قرار تركه للمكان الذي لا يعرف سواه، من أجل شيءٍ لم يقم به... هذه هي الحياة، تقترب وتقترب أكثر وتحتضنها بقوة لتصبح بين صدرك وذراعيك وتغمض عينيك من فرط النشوة وتفتحهما لتجد السراب لا شيء سوى أحلام بداخلك لا تعني الكثير بالنسبة لآخرين، الأحلام كلها تتلخص في "سارة"، فـ "سارة" هي المتعة والجمال والنشوة والحب والسكينة، ظل "يوسف" يحاول التقرب منها عمره بأكمله، وعند إحساسه المتأمل في وجدانه أنها أصبحت ملكه وله وحده، تجبره الظروف على البعد عنها بسبب لا يعلمه... مجرد معاناة دون ذنب ذلك هو العذاب الأعظم هذه هي "سارة" هذه هي الحياة.

بالرغم من إجبارها على التخلي عنه منذ سنوات عدة، إلا أنه لا يزال يحاول إقناع نفسه أنها لا تزال جزءًا منه، أوحتى من ماضيه، من ثورته... من إبداعه... حتى من آلامه قد تكون صديقتها "دودي" السبب أو قد يكون ابن خالتها "عاصم" أو قد يكون أحد الحاقدين على اقترابهما أو اختلاف الدين أو اختلاف العرق، لكن في النهاية النتيجة واحدة.

- "يوسف" .... "يوسف"

لم يرد، ربما لم يسمع "جيمي" وهو يُرَدِّدُ اسمَه، لعله كان مستغرقًا في أفكاره التي أدت به للوصول لهذه النقطة وهو جالس مع "جيمي" و "انطونيلا" بمقهى "كستال" يحتسي قهوته لآخر مرة في المكان الذي اعتاد أن يرى به "سارة" منذ سنوات مضت وكأنه رفض ترك الذكرى مع المكان ستظل الذكرى ملكه إلى الأبد.

كان السكون المخيم على مجلسه مع رفيق دربه وزوجته، ليته كان بشجاعة "جيمي" الذي ضحى بكل ما يملك من أجل من يحب، حين خيره والده بين "انطونيلا" وإرثه، فاختار ما يطمح أن يكون ملكه إلى الأبد، اختار من آمنت به، دون أن يلتفت لمال... أو اختلاف دينيّ أو عرقيّ، مجرد الإيمان بمفهوم أقوى هو الصلة الروحية الأبدية، السعادة المطلقة بالنسبة له هى النظر لها قبل استيفائها بلحظات، ويتأمل نور إعادة الحياة من خلال وجودها.

شعرَ "جيمي" أن "يوسف" لا يزالُ غارقًا في سكونه فالصدمة بالنسبة للجميع عظيمة، لكنه أحس أن من واجبه التخفيف عليه فاتجه بيده إلى الجزء الأيسر من ذراع "يوسف"، لينبهه حتى يسمع ما يقول، فاتجهت عينا "يوسف" إليه مباشرة، متخلصًا من أفكاره التي طالما كانت الجزء الأكبر من حياته وقال بهدوء:

- تعرف أن كل ذلك مجرد أمر وقتي، وستعود "الإسكندرية" عندما تهدأ الأمور.

ابتسم "يوسف" ابتسامة تعبر عن معرفته أن "جيمي" يحاول مواساته ففي النهاية عودته تعد جزءًا من أحلامه المؤجلة لفترة لن يعرف مداها الكثيرون حتى وجوده في مقهى "كستال" سيبقى جزءًا من ذكرياته، حتي رائحة البن الظاهرة الممتزجة بعطور النساء المميزة.... قالت "انطونيلا" بأسى وهي توجه الكلام لـ "يوسف":

- متى ستتحرك السفينةُ ؟

ردَّ وهو يبتسم محاولا تخفيف آلامه.

- غدًا في العاشرة صباحا.

حاول التماسك للحظات، ولكن بعدها لم يستطع ووضع رأسه بين كفي يديه وبدأ بالبكاء بصوت مسموع وأخذ يردد الكلمات متقطعة وكأنه طفل صغير وهو يقول:

- لا أريد أن أتركها... لا أريد أن أترك "الإسكندرية"

وكان مُحِقًّا فليس من السهل على المرء ترك المكان الذي تربى به، عشقه الأول، قبلته الأولى، قبر والديه ... مدرسته... حلمه إنها كل شيءٍ بالنسبة له... إنها المكان.. إنه هي.

توالت بذاكرته صور كل ما يحب.. كل الصعاب... كل النجاحات التي مر بها من خلالها "برفيديا" عبر الجرمافون، واختلط رؤيته بالدموع وبجانبه "باولو" النادل وهو يرتدي بزته البيضاء، وهو يحاول الابتسام له واتجه "باولو" نحو "يوسف" بخطوات ثابتة وبدا متأثرًا للغاية بسبب مغادرة "يوسف "الإسكندرية" وقال بعربيته الركيكة:

- أعلم كم تحب هذه الأغنية، وأعلم كم من الألم سببته لك، لكن يجب أن ترى الجزء الآخر من الحياة.

نظر إليه "يوسف" و شعر مواستة هو في الآخر مواساته وبدأت ابتسامته تختلط بدموعه قائلا:

- ألن تخبرني معنى "برفيديا" بالعربية؟

رد "باولو" في أسف وهو يحاول الابتسام:

- ربما هذا الوقت المناسب سيدي "برفيديا" تعني "الغدر".

ابتسم "يوسف" وتأمل أنه كان طوال السنوات الماضية يعتقد أنها كلمة عاطفية، أو ربما تحمل معان جنسية، لكن كل هذا الحب واللحن العذب من أجل "الغدر"، ربما القدر كان يعلم ذلك فاختارها من أجلهما أو بالأخص من أجله هو..

الغدر....

كل هذه الرقصات والحب الغامر على لحن الغدر... الحياة مليئة بالمفارقات غير المحتملة العقلانية... كلا ... كلا .... إنه يكتب النهاية وأغلب مؤلفاته كما تحلو له... سيتفاعل معها كما يرى... هذه هي عادته لن يترك "الإسكندرية" دون أن يفعل ما ينبغي تجاه من يحب... لن يتركها حتى لو كان القدر ضده.

* * *

كانت عقارب الساعة تشير إلى التاسعة والنصف، نظر "يوسف" إلى الجزء الشاسع من البحر الأزرق وهو يتأمله من على السفينة الضخمة... يبدو أنه مسافر إلى اللانهاية... وليس إلى "جنواه" بإيطاليا... قارب وجوده على متنها ما يقارب الساعتين... وضع خلالهما حقائبه في غرفته الصغيرة ذات السرير الواحد، بعدها تعرف على أركان السفينة "باريترو" الإيطالية، التي ستبقى منزله المعلوم لفترة قد تصل لما يقارب الأسبوع... كانت السكينة ترتسم إلى حد كبير على ملامحه اليوم، بالرغم من تأثره بهول الموقف، لكن ربما قد خلق الله الفراق من أجل الشعور ببهجة العودة، أو ربما يحاول التخفيف عن نفسه بمجرد إيمانه بمعتقداته حتى لو لم تتماش مع مرادفات الواقع...

خطواته على سطح الأرضية الخشبية للسفينة كانت تتسم بأمر لم يعتَده بالرغم من رحلات صيده المتعددة... إلا أن وجوده على متن سفينة وهو يحمل تذكرة في اتجاه واحد لم يشعره بارتياح كبير، مع إيمانه بعدم إمكانية وجود بداية جديدة... ففي غالب قصصه الشخصية التي بدأت بالنسبة له بالفعل، لم يعرف النهاية حتى لمرة واحدة، بالرغم من وفاة والديه لا يزال يزورهما, "ارينا" لا تزال قد تأتي "ايزاك" قد ينجو عبر المحاكمة... النهايات جزءٌ غير معلوم لديه... قد يكون السبب عامل الزمن الذي لا يدرك تأثيرَه الكثيرون.

بالرغم من صوت البحر المرتفع ورياحه المؤثرة... إلا أن "يوسف" لم يكن يسمع سوى صوتين، صوت ارتطام حذائه الجلدي على الأرض الخشبية لسطح السفينة، وصوت ضربات قلبه التي بدأت بالارتفاع مع اقتراب موعد تحرك السفينة... نظر إلى إحدى مراكب الصيد الصغيرة على مرمى بصره التي يوجد بها شابَّان يمسكان بصنارتين للصيد منتظرين التقاط السمك للطعم الموضوع،

طامحين لذلك... تذكر صورته مع "جيمي"... وتذكر اليوم السابق لسفره.

كان في سيارته أمام المنزل رقم 94 بشارع "عبد الكريم الخطابي" الذي يتوسط بين شارع "أبو قير" الرئيسي وقضبان القطار المؤدي إلى الجزء الشرقي من المدينة بمنطقة "الإبراهيمية".

نظر إلى المبنى المكون من أربعة طوابق ذي الطراز الحديث نسبيًّا الذي يحمل بعضا من الطراز الإيطالي، وتفحص السيارة العسكرية الجيب الموجودة أمام المنزل وبداخلها السائق الذي يرتدي البزة العسكرية، كانت الشمس قد قاربت على المغيب... كان لتوه قادمًا من توديعه لصديقه "الفيزي" الذي ساعده على اختيار إيطاليا مقصدًا له، فهناك يستطيع البحث عَمَّا يحب من متعة، في مجتمع يتقبل ويقدر أمثاله من محبي الفنون، وقال له بعد أن ثمل مُخَفِّفًا آلامه:

- "يوسف" السينما في كل مكان.

وكانت إجابته في أسى:

- قد تكون السينما في كل مكان... لكن "الإسكندرية" ليست كذلك.

وقد كان محقًّا إلى حد كبير... ربما يكون "الفيزي" هو الوحيد ممن يعرف الذي عاش حياته كاملة على الطريقة التي طالما أراد، وحاول البحث عن هويته الذاتية دون الالتفات لما يراه الآخرون، قد تكون هذه هي الطريقة الأمثل لتحقيق الآمال المدوية.

قاطع سكوته محركُ السيارة العسكرية الذي بدأ في الدوران ونظر إليها ليجد "عاصم" بزيه العسكري بجوار السائق والسيارة وهي تتحرك... اللعنة على ذلك التعس الذي اغتصب منه من يحب... كلا... ربما الظروف هي السبب وهو مجرد أداة بيدها... ففي النهاية هو يهودي و "سارة" مسلمة... هكذا فَكَّرَ.

ربما لا تزال التصرفات الانفعالية هي المسيطرة على أفعاله كما هي عادته، لكن ماذا عساه أن يفعل لرؤيتها؟ فربما ستكون هذه المرة الأخيرة التي يراها بها طوال عمره... إحساس مريب يختلط به الخوف المطلق والرغبة الوجدانية بإيقاف الزمن... كما يحلو له دائما عند التقاط الصور... شعر أنه الوقت المناسب له لاقتحام المنزل والصعود إليها... ربما ستكون المرة الأخيرة التي ينتزع منها نظرات الإبهار... أغلق باب سيارته بهدوء بعد أن نزل منها وتخطى الشارع إلى الجهة المقابلة حيث منزل "سارة"... تفحص اللوحة المعدنية المكتوب عليها رقم 94، وتخطى الباب الحديدي ونظر إلى الدرابزين الحديدي ذي الأشكال المفرغة

المختلطة، وصعد خطوات السلم وبداخله أحاسيس مختلفة بين النشوة والحزن ، وانتابه الشعور أنه قد لا يراها، كان يعلم أنها تسكن في الطابق الثاني، وصل لنهاية السلم المقابل لشقتها... تفحص الثلاثة أبواب الخشبية.. لم يكن من الصعب عليه معرفة الشقة بسبب الاسمين الأجنبيين على أبواب الشقق الأخرى، وقف أمام بابها، وأغمض عينيه وأخذ نفسًا عميقًا... ثم فتح عينيه وهو يضغط على الزر الخاص بالجرس الكهربائي الذي سمع صوت القادم من خلف الباب إنها قد تكون "سارة"... لكن خاب ظنه بعد أن رأى فتاة قد تكون في نهاية فترة مراهقتها ترتدي زيَّ خادمة منزل أسود اللون يحيط به قطعة من القماش بيضاء على شكل شبه دائري وعلى رأسها غطاء الرأس المميز ,ا بتسمت لـ "يوسف" قائلةً له:

- أرجو أن أعرف من حضرتك؟

ردَّ "يوسف" بابتسامة وهو يقول:

- "محمد عبد الكريم شعراوي" ابن عم السيدة "سارة".

زاد ذلك من ابتسامتها وأشارت إليه بالدخول... وأرشدته إلى الغرفة المغلقة التي تحتوي على أثاث كلاسيكي بُني اللون متماش مع اللون الكامل للمكان، عبر بهو المكان الذي يحتوي على البيانو، والمكتبة التي تحتوي على العديد من الكتب...

دخل إلى الغرفة وأشارت له الخادمة أن السيدة ستأتي لمقابلته خلال لحظات وأغلقت الباب خلفها... أكثر ما شد إليه الانتباه في هذا المكان هو عدم إحساسه بلمسات "سارة" عليه وشعر وكأنها غريبة , لم يجد روحها المبهجة ولم يعلم سببًا لذلك، ربما كل هذه هواجس بداخله لا أساس لوجودها في الواقع ... لكن ربما أمنيات طالما أخبرته أن يختارا أثاث بيتهما سويًّا... جلس على المقعد المقابل للباب المغلق وهو يترقب اليد المعدنية ذهبية اللون المخصصة لفتح الباب... مرت عليه اللحظات القليلة وكأنها دهر كامل... لم يستطع أن يلتقط أنفاسه عند رؤيته اليد المعدنية وهي تتحرك ومن بعدها فتح الباب ببطء ليرى ما لم يشاهده منذ سنوات عديدة وطالما حاول أن يقترب منه دون أن يستطيع...

رأى "سارة مصطفى".

كانت ترتدي فستانًا صيفيًّا يميل إلى اللون البني الداكن عاري الكتفين، وحول عنقها قلادتها الذهبية المميزة التي تحمل أول حروف اسمها باللغة الإنجليزية... كانت مصففة شعرها الأحمر على طريقة كلاسيكية لم يعتد أن يراها بها... رأى بعينيها الفرحة الممزوجة بالفزع... حتى إنها صرخت باسمه وهي تضع يدها اليسرى على فمها من هول المفاجأة... أحس يوسف أن الخادمة قد تكتشف أمره... وتسبب لها المشاكل إذا أخبرت زوجها... فما كان منه إلا أن قام من على كرسيه وتقدم إليها مُسرِعًا وجذبها من يدها اليُمني إلى داخل الغرفة، وأغلق الباب خلفها وأجلسها علَى المقعد المقابل لمقعده وأشار إليها بيده في حركة مفادُها أن تهدأ ... انتظر لحظات حتى استجمعت أنفاسها من هول المفاجأة... بدأت بالحديث إليه وفي عيونها نظرات اللهفة:

- أهربت من السجن؟

ابتسم لها وهو يتأمل ملامحها وكأنها المرة الأولى.

- كلا... لم أهرب... لقد تم إطلاق سراحي منذ أيام.

ظهرت ابتسامة أمل على وجهها وأكملت:

- أشكر الله أنك ستعيش حرًّا

اقترب منها وحاول مسك يدها:

- وما الحرية من دونك يا "سارة"؟

أحست أنها يجب عليها الابتعاد... فوقفت و تتحرك للجزء المواجه من الغرفة بارتباك:

- سيد "يوسف" ليس من اللائق أن تتواجد هنا.

أكمل"يوسف" :

- أعرف... لكنها المرة الأخيرة التي أراك فيها... اليوم أتيت مُوَدِّعًا... لقد تم إجباري على ترك "الإسكندرية" وسأغادر غدًا إلى إيطاليا... ربما إلى الأبد.

شعرت حينها أن الكلام قد لا يعني الكثير فهي تعرف من الصحف تورطه في القضية... أمسكت بيدها خاتم زواجها وقالت بلهجة رسمية وهي تحاول تفادي النظر إليه:

- أتمنى لك التوفيق سيد "يوسف"، وأشكرك على توديع صديقة قديمة.

واتجهت نحو الباب وفتحته وهي تشير إلى عدم الترحيب بوجوده أكثر من

ذلك... لم يصدق ما فعلت... وشعر أن الموت أهون عليه من أن يكون في هذا الموقف... رفض "سارة" له... عدم ترحيبها بوجوده... اتجه نحو الباب المفتوح وهو ينظر لها وكأنها النظرات الأخيرة... بينما هي ظلت تتحاشى النظر إليه... اتجه نحو باب الشقة بشكل مباشر وهو لا يعرف ما يفعل... تأكد من إغلاقه بعد أن فتحه ومر عبره وهو لا يزال غير مصدق لما حدث، ربما البعد والزمن لهما تأثير، ربما لم تعد تحبه، ربما لم تعد تتذكره، أصبح مجرد شخص مر خلال ماضيها، وبدأ بهبوط السلم وهو يتكئ على الدرابزين الحديدي غير مصدق، وأخذت الصور تتلاحق داخل ذاكرته دون قدرة منه على استيعاب الموقف، صورتها وهي طفلة... صورة قطها... صورة والدتها... فستانها الأحمر... وهى تصلي معه أثناء الغارة الحربية... صورتها وهي أمام كليتها وهو يهرب بسيارته... معطفها الأبيض... سيارتها الحمراء.... صورة السائق الخاص بها... كل ذلك أصبح رسميا جزءًا من الماضى.

بدأ بالبكاء على كل ما كان يحاول الوصول إليه، ولم يستطع وتباطأت خطواته في اتجاه الباب الحديدي كأنه رافضٌ للزمن، وما قدر... كل ذلك أصبح جزءًا من الماضي أو ماضياً يتخيله، ويحاول إقناع نفسه بوجوده.

مرت قدمه اليُمنى عبر الباب وبدأت الأخرى بالتحرك وتوقفت عند سماعه صوتها الذي طالما أحبه وهو يصرخ باسمه... شعر أنها ربما تكون أوهامًا بداخله لكنه تأكد من حقيقتها بعد تكرارها والتفت للخلف لكي يرى ما يحدث واختلط به صوت حذاء "سارة" المتسارع للهبوط عبر السلم وظهرت بعدها وهي تبكي قائلة:

- "يوسف" لم أودعك بعد.

جرت إليه بسرعة واحتضنته للحظات... حَرَّك يديه على كتفها وهو يُبعِدُها بهدوء وهو ينظر إلى عينِها التي اختلط لونها بلون أحمر بسبب البكاء الشديد.. وقال لها:

- مثل أول مرة رأيتك بها... كُنتِ تبكين أيضا.

ظهرت ابتسامة وسط دموعها وقالت:

- لعلها الصدفة الأفضل في حياتي.

اتجهت يداها إلى عنقها لتخلع قلادتها المميزة التي تحمل اول حروف اسمها باللغة الانجليزية, وأمسكت بيد "يوسف" ووضعتها بداخلها وتعلقها عليها قائلة

له:

- حافظ عليها... سَـتُذَكِّرُكَ بي إلى الأبد.

اقترب منها "يوسف" وهمَّ بتقبيلها، بعد أن أغمضت عينيها، وتراجع في اللحظة الأخيرة... اتجهت يده إلى شعرها، نزع عنه رابطته وأخذ يصففه بيده على الشكل الذى اعتاد رؤيتها به، طريقة تصفيفه الغجرية المفعمة بالثورة كما كانت... وقال لها:

- أكثر ما يميزك هو وهج ثورتك... فلا تفقديها أبدا... ربما في يوم ما سأحاول تخليدك في التاريخ... عبر أحد أعمالي... ستكونين "ستيلا" أخرى.

فردَّت بابتسامة وسط الدموع:

- لكنك لست "دكنـز"

فردَّ عليها وهو يتأملها:

- حتى في أثناء الوداع ... ربما أكثر ما شدني إليك تلقانيتك.

احتضنها بقوة مرة أخرى... ربما للمرة الأخيرة..

أخرجه من سكونه وشروده في "سارة" الصوت الخاص بصافرة التنبيه لانطلاق المركب... أمسك بيده اليسرى القلادة الذهبية التي منحتها له "سارة"، شعر حينها أنه يجب عليه التوجه إلي الجزء المواجه من السفينة لرصيف الركاب، أطلق ساقيه للريح وهو يحاول أن يرى "الإسكندرية" من أقرب مكان ممكن... ربما للمرة الأخيرة... كان الزحام هو المسيطر على الرصيف الممتلئ بالعديد من مُوَدِّعي الركاب، تأمل النظر عبر الجميع، الأصوات تتعالى بالدعوات بوصول الرحلة بسلام... نظر وسط الجميع... هاهو "جيمي" وبجانبه "انطونيلا" يلوحان له و "الفيزي" أيضا... لوح لهم بيده وهو يبكي... فقد تكون المرة الأخيرة التي يراهم بها... لكن لا يمكن أن يكون ما يراه واقعا، مسح عينيه من الدموع للتأكد مما يرى... نعم إنها هي... إنها أبت أن يتركها دون أن تراه... إنها "سارة" وسط الزحام وهي تلوح له، إنها المتعة التي طالما حاول الوصول إليها، لكن الوقت قد مر... فالسفينة بدأت بالتحرك ، لكنه صاح بصوت عال وبكل ما يمتلك من قوة موجها الكلام إليها:

- "سارة" في يوم من الأيام سأعود لنبقى معا إلى الأبد.

لا يعلم ما إذا كانت قد سمعته أولا.. لكنه يعرف أنه سيحاول أن يخلدها للأبد.

* * *

الإسكندرية 1999

كانت تعلم أن الرغبات الحقيقية جزءٌ من الماضي في حالة توافر القدرة على تحقيقها... لكنها لم تمتلك تلك القدرة في أحد أيام رحلتها الطويلة، لم تعش الحياة التي حلمت بها في صباها، وتزاحمت الهموم في قلبها، وبقي البيانو هو المستمع الأوحد لآلامها , كثرا ما كانت المعاناة وعدم تفهم الآخرين لها هي الأسباب الرئيسية في إحساسها الدفين بأنها لم تحقق ما كانت تطمح له في حياتها، لقد خذلها الجميع في أغلب مراحل تلك الرحلة الطويلة، بداية من أهل غير متفاهمين، إلى حبيب لم يكن على قدر المسئولية، وزوج أجبرت على الارتباط به، باحثٍ عن لذاته ورغباته، ثم تصل المأساة لذروتها بعد أن يتم إجبارها على أن تحزن عليه قبل أن تتم عقدها الرابع بسبب موته في نكسة 1967، تاركا لها تربية ابنتها الوحيدة "حياة" وظلت الهواجس تراودها أن "يوسف" قد يكون السبب في ترملها وفقدان ابنتها للأب، والأصعب من كل ذلك عدم القدرة على إيجاد إجابة شافية لم تسأل عنه، وأصبحت رؤية المجتمع لزوجها كبطل قومي ضحى بنفسه من أجل الوطن قد يكون ذلك على أحد الأوجه ولكن من منطلق رؤيتها فهو الزوج الخائن أغلب الأوقات غير المتفاهم كل الأوقات، الذي لم يحترمها أو حتى يحترم أنوثتها، مجرد عذاب ولكنه ممزوج بالأمل عن طريق "حياة".

حتى بعد وفاته لم تكن كسابق عهدها وكأن الوهج الذي كان ينبعث منها قد تلاشى تدريجيا مع زيادة الوقت، حتى الإحساس بمتعة اللذات الجسدية، أصبح جزءًا من الماضي، الأيام متشابهة والساعات متساوية واللحظات المميزة معدومة الوجود، ووجدت أن السعادة تتلخص في سعادة "حياة"، حتى محاولة بعض الرجال التقرب منها باءت بالفشل نتيجة رفضها لذلك، وبعد عبور القناة وانتصار المصريين، لم تر البهجة كاملة كأغلب المصريين بسبب مخاوفها الدفينة على من تحب بالرغم من معرفتها أنه جزءٌ من الماضي غير القابل للعودة، وكثيرًا ما حاولت إقناع نفسها أن "يوسف" كان مجرد عابر سبيل في أحلامها يشعرها بالسعادة لفترة أثناء نومها، وعند استيقاظها ابتسمت لما شعرت به من متعة، لكن غير متذكرة لملامحه إلى حد كبير، حتى عندما أنجبت ابنتها "حياة" حفيدها الأول لم تحاول أن تقترح اسم "يوسف" فهي لا تزال تراه جزءًا من ممتلكاتها الخاصة التي ستبقى لها وحدها، وظل قلبها مغلقًا على سره طوال هذه

السنوات... باختصار لم تعش "سارة مصطفى شعراوي" الحياة التي كانت تحلم بها أو متوقعة لها على الأقل.

كانت عقارب الساعة تشير إلى الخامسة والنصف عندما انتهت "سارة" التي قاربت على السبعين من عمرها من ارتداء ملابسها استعدادًا للموعد المرتقب، واتجهت بخطوات هادئة إلى المرآة الموجودة في الجزء الأيسر من الغرفة متناثرة الأرجاء التي يغلب عليها اللون الأبيض المكونة من سرير يتوسطها وخزانة ملابس مواجهة للمرآة من خلف المنضدة الصغيرة المواجهة لها التي تحمل على سطحها عدة زجاجات من العطور وبعض أدوات التبرج، وإيشارب ذا لون أخضر وجلست على المقعد الصغير المواجه لها، ثم اتجهت بيدها اليمنى إلى الزر الكهربائي وبمجرد الضغط عليه زادت الإضاءة المواجهة إليها، وتأملت ملامحها في المرآة أصبح شعرها أبيضًا قصيرًا، وزادت التجاعيد على خديها ووجنتيها، حتى عند رقبتها ... لكنها لا تزال تمتلك لون عينيها وللمرة الأولى منذ عقود أحست أنها لا تزال جميلة، ربما إحساسها بالجمال ارتبط بـ "يوسف"، اتجهت بيدها نحو الإيشارب ذي اللون الأخضر ثم وضعته حول رقبتها وعقدته لتخفي تجاعيدها، وتضيف إلى أناقة الفستان ذي اللون الأخضر الداكن الذي ترتديه، وأمسكت إحدى زجاجات العطر ووضعت القليل منه حول جسدها، وتأملت ابتسامتها في المرآة التي افتقدتها كثيرًا وتذكرت ما حدث معها منذ عشرة أيام مضت عندما أتى "جيمي" إلى منزلها بعد كل هذه السنوات، وفي البداية لم تتعرف على شكله، لكن بعد إخبارها عن هويته شعرت بالسعادة الممتزجة بالتقرب، فهو أيضا جزءٌ من ماضيها الذي أحبته، واستغربت من معرفته منزلها ولكنه أخبرها أنه بحث عن مكانها فترة ليست بالقصيرة وأخبرها أن هناك أحد الأصدقاء سيأتي إلى مصر خلال فترة قصيرة ويريد أن يراها بشدة، إذا كانت ترغب هي في ذلك، فأحست وكأن الماضي هو الحاضر لفترة من الزمن.

* * *

شعر "يوسف" بالصدمة عندما علم أن عدد اليهود بـ "الإسكندرية" لا يتجاوز العشرَ أفراد من العجائز الذين رفضوا ترك وطنهم، وكم تمنى أن يكون أحدهم، لكن الظروف كانت أقوى منه إلى حد كبير، لفترة طويلة اعتقد أن "الإسكندرية" ستبقى جزءًا من ذاكرته ولكن مساراً غير متوقع حدث جعله يفكر عدة مرات، فبعد تركه "الإسكندرية" إلى "جنواه" بـ"إيطاليا" وبقائه لسنتين هائمًا على وجهه ولا يزال متأثرًا بما حدث له وإجباره على ترك "مصر" وبالرغم من توافر مقومات نجاح أي فنان بها، إلا أنه استشعر غُربته إلى حد كبير ولم يجد ما يستطيع أن يضمد به جراحه التي أثرت عليه فترةً طويلةً، فقرر أن يبحث عن مكان بعيد يحتوي آلامه، وحاول البحث مع الوكالة اليهودية لتوفير مكان آخر فاستقر قلبه على الذهاب إلى "استراليا" وأخذ من عاصمتها "سيدني" مكانًا

له، وبدأ بالعمل ككاتب مسرحيّ مغمور لا يعلم عنه أحدٌ الكثيرَ، وبعد فترة بدأ بتحقيق النجاح، وحاول المحافظة على بقائه عن طريق الزواج، وأنجب طفلين هما "بنيامين" و "ستانلي"، وانفصل عن والدتهما بعد ميلاد "ستانلي" بفترة قصيرة، وعلم أن "ايزاك" قد تم رجوعه إلى إسرائيل في إحدى الصفقات التبادليه مع أسرى مصريين، وبقي مع "بارا" وكامل أسرتها مكونين الحياة التي حلموا بها، وحاول جاهدًا لسنوات البحث عن أخته "ارينا" بمساعدة الوكالة اليهودية للهجرة بعد هربها مع عشيقها حتى وجدها في منتصف الثمانينات، بعد أن كبر أولاده، وأصبح مركزه مرموقًا ككاتب من أصول مصرية، وذهبت لزيارته مع زوجها حيث استقروا في "كتالونيا" بـ "إسبانيا"، في العام الماضي ماتت "ارينا" وتركت لأخيها ما حول اتجاه حياته، فقد تركت له خطابًا بخط يدها باللغة العربية تحثه فيه على العودة لـ "الإسكندرية" ما دام الأمر أصبح ممكنًا الآن، آسفة على تركها لوطنها باختيارها، ومنها بدأت رحلة البحث عن "جيمي" التي استغرقت عدة أشهر، وساهم فيها العديد من أصدقائه ذوي الصفات السياسية، فقد كان يعرف اسمه كاملا وعنوان سكنه القديم، ومعرفته لعنوانه ورقم الهاتف الذي يحمل نفس اسمه أمر سهل عبر مساعدات من السفارة المصرية بـ "سيدني" وبالفعل حصل على مراده بعد عدة أشهر.

كان "يوسف" جالسًا إلى المنضدة التي تحمل المفرش ذا الألوان الممتزجة بين الأبيض والأزرق، بجانب صديقه "جيمي" ونظر إلى ساعة الحائط المجاورة لمنضدته التي تواجه الزجاج المطل على البحر في المطعم الخاص بالنادي اليوناني فوجدها قاربت السادسة وعشر دقائق، وسط ما يميز المكان من موسيقى هادئة ذات الطابع اليوناني نظر "يوسف" إلى "جيمي" وسأله بضيق:

- أأكدتَ عليها الميعادَ والمكانَ ؟

فردَّ "جيمي" بالإيجاب وبعد لحظات سأله مرةً أخرى:

- ألا يوجد إلا هذا المكان ليحمل نفس الاسم ؟

فردَّ "جيمي" بالنفي، واستشعر "يوسف" أن التوتر بدأ يسيطر عليه، فمنذ اللحظة الأولى لتفكيره بالعودة وهو يحلم بلحظات لقائها بعد كل تلك السنوات، والأمل يراوده برؤيتها ولو للمرة الأخيرة قبل أن يترك هذه الدنيا، وأن ينظر إلى عينيها، أو يتلمس يديها بأنامله، إنه لا يريد أكثر من ذلك على الإطلاق، مجرد الوصول للحالة التي طالما حاول الاستقرار لها ولم ينجح، بسبب عوامل خارجية بعيدة عن رغباته وأحلامه، واتجه بيده اليسرى إلى القلادة الذهبية التي تحيط عنقه التي تحمل أول حروف اسم "سارة" باللغة الإنجليزية، وأحكم قبضته عليها

وأغمض عينيه للحظات، لا يعلم السبب على وجه التحديد الذي جعل بارقة من الأمل تترآى له، إنها قريبة للغاية، وفتح بعد ذلك عينيه، واتجه بالنظر نحو الباب، ليجد سيدة قاربت على السبعين بيضاء الشعر وتأملها وتأمل تفاصيل ملامحها ولون عينيها إنها هي... إنها "سارة" كان يعلم أنها لن تخذله بعد كل هذه السنوات، وسمع صوت "جيمي" وهو يقول له:

- بالرغم من كل هذه السنوات تبدو فرنسية.

قام "يوسف" من على مقعده وتخطى المناضد وهو لا ينظر إلا لها حتى اقترب منها، وقف أمامها وهو يتأمل عينيها وجد بداخلهما ما لا تستطيع الكلمات وصفه، مرور الزمن والحاجة للسعادة، تلك المعاني المختلطة، قدمت يديها بشكل محنيٍّ إلى الأمام فيما يوحي برغبتها لتقبيل يديها، قدم يديه إليها وأحنى رأسه لجمالِها وقبل يديها ، ثم نظر إلى عينيها وهو لا يعلم ماذا يقول وخيَّم السكونُ للحظات ولكنها بدأت بالحديث لـ "يوسف":

- لم أكن أتوقع أنني سأراك مرة أخرى ولكنني اشتقت لرؤيتك.

ابتسم لها وقال:

- لقد عدتُ من أجلِكِ

ابتسمت ابتسامةً تدل على حاجتها إليه، وتأمل أنها المرة الأولى التي تصارحه بمشاعرها بشكل مباشر يبدو أنها تعرف أنها لا تملك الوقت الكافي من الزمن لكي تتعجرف وضع يده اليسرى على كتفها الأيمن وأشار بيده الأخرى نحو الباب وقال لها:

- يمكننا أن نقترب من البحر بشكل أكبر.

ابتسمت له وهي تتجه نحو الباب عائدة، كان يعلم أنه أخطأ عندما تركها، وقد يكون أخطأ عندما فكر بها وعاد من أجلها , لكنها أيضاً قد تكون بداية من أجل أحلامهما المؤجلة...إنها المرة الأولى التي وصل فيها لندي السعادة..الذي بحث عنه الكثيرون و وجده القلة , لعله كان محظوظاً أو لعله آمن بما أحب , أو أحب ما آمن به , و لعل الوقت قد مر دون تأثير ولكنه لم يستطع التأثير عليهما .. فإن قبل العالم حبهما أو رفضه , سيظل هو "يوسف حداد " العاشق المتمرد , وستبقي هي "سارة مصطفي " الفتاة ذات الشعر الاحمر....

تمت

معتز فتيحة
القاهرة 2008

الكاتب

- معتز محمد عبد الفتاح فتيحة
- من مواليد 27-2-1987
- ينتمي الي اسرة سكندرية
- يدرس الهندسة بالكلية الكندية الدولية
- عضو نادي كتاب القصة القصيرة
- عضو رابطة المبدعين العرب للافلام الرقمية, و قد اخرج العديد من الافلام القصيرة ,شارك في العديد من المهرجانات الدولية و المحلية للافلام الروائية القصيرة , ويعد من التاثرين بالموجة الجديدة في السنيما الفرنسية و يميل في افلامة الي الأبيض و الاسود معتبرهما الروح الحقيقية للسنيما.

للتواصل مع الروائي : **motaz_fetteha@hotmail.com**